قلوب عبير

ايسّي سامرز

حائرة

www.elromancia.com
مرمورية

قلوب عبير

HARLEQUIN — "ABIR" — No. K16

حائرة

نظرت اليه وهو يقف امامها فارداً ذراعيه اللتين تركتا ظلالا مرتعشة حول رأسها. وشعرت بدفء ينسرب من تحت قميصها الحريري الخفيف. ولم تستطع ان تردّ صوته الذي كان يحاول اجتذابها. وعندما شعر بانقطاع انفاسه، ابعد وجهه قليلا وضحك...

ـ مورغان!

حاولت ان تعنّفه بدون جدوى. وضحك منها قائلا:

ـ لا تتظاهري بأنك لست مهتمة بكل ما افعله يا سوزانا.

اعترفي! تقولين انني ابالغ في تحليل الأشياء بينما انت تبالغين في اعطاء معادلات لكل شيء اقوله...

كانت حائرة وهي تتبع خطاه في الغابات، حائرة وهي تحاول مقاومة الهتاف الصاعد من قلبها!

لبنان ١٠ ل.ل.	الكويت ١ د	اليمن ٤ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ١٠ ل.س.	الامارات ١٢ د	تونس ١٥٠٠ د	U.K. £ 150
الأردن ٨٠٠ ف	البحرين ١٥٠٠ د	ليبيا ١ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٢ ر	المغرب ٥ د	Greece Drs 200
السعودية ١٢ ر	عمان ١٥٠٠ ر	مصر ١٢٥ ق	Cyprus P 1500

أولئك الذين يحاولون ان يفعلوا
شيئاً ما ويفشلون افضل
بما لا يقاس ممن يحاولون
ان يفعلوا لا شيء وينجحون.
للويد جونز

www.forfinancia.com

١- شعرت سوزانا بسعادة طاغية تغمرها. انه الشعور بالعودة الى الوطن. ترى، ماذا ينتظرها بعد هذه الغيبة الطويلة؟

وقفت سوزانا كارو في شارع كانتربري على مسافة قصيرة من الكاتدرائية العظيمة. بعفوية غلابة، تحولت سوزانا بأفكارها نحو النصف الجنوبي من الكرة الارضية، الى مكان آخر باسم كانتربري في منطقة استوطنها المستوطنون الانكليز، وعنوا بها، في القرن الماضي... انتقلت بها الذكريات الى أيام أيلول في نيوزيلندا، حيث رأت بعين الخيال زهور النرجس التي سوف تغطي ضفتي نهر أفون في كرايست تشرش، وأزهار الكرز التي ستكسو الاغصان بعد فترة قصيرة جداً. هنالك في ميلبروك ريزيرف سيغطي الزعفران الارض بأطباق من الزهر، بنفسجية، وبيضاء، وذهبية. وبجوار الساحل تثب الحملان الناصعة البياض طافرة لاعبة. وللجنوب من كرايست تشرش الرابضة في سفوح التلال، تولد الحملان في مثل هذا الوقت. ان القرب الشديد للثلوج يشكل خطورة كبيرة على ولادتها. وفي لارشوود فايل التي كانت احبّ البقاع واجملها في عيني سوزانا، كان يوجد ايضاً اعزّ شيء لديها، باستثناء امها وابيها، بالطبع.

ولعل الحياة التي قضاها والداها متنقلين في انحاء العالم كانت السبب في تعلقها بلارشوود الى هذا الحد. حقاً ان والدتها متحدرة من تلك العائلة الرائدة، في الجيل الرابع، لكنها ترافق والدها كريس كارو الى كل مكان يذهب اليه في كل انحاء العالم بوصفه مندوباً تجارياً.

كان المركز الذي قبله والدها أخيراً في كندا آخر مركز له. وكان عدم ذهاب سوزانا معه بوصفها سكرتيرة له سببه براجها الخاصة. ثم ان والديها

شعرا بضرورة بقائها في بريطانيا لمرافقة ستيفاني وبرنت مورلي في سياحتهما وهما من جيرانهم في لارشوود. استمتعت سوزانا بكل شيء، ولذلك كانت تشعر بالسعادة الا حين تروح ستيفاني تتكلم عن الناس في كانتربري الاخرى، في تلك المنطقة النائية من العالم. غير عارفة انها بذلك تلامس جرحاً قديماً لا يزال طرياً ولو انه التأم في الظاهر. وفجأة هبط الليل. وكان على سوزانا ان ترجع الى الفندق.

وأحس الزوجان، برنت وستيفاني، بالارتياح لرؤيتها. ثم قال برنت لها:

ـ نحن نعلم يا سوزانا انك تقصدين الانتقال الى كندا ولكن والدك ذكر في رسالته الأخيرة أنه شديد الارتياح الى سكرتيرته. اما نحن فنحب ان تعودي معنا الى نيوزيلندا. لقد كتبت لي والدتك اليوم. واستلمت الرسالة اثناء غيابك. كلوتيلد تنظم اجتماعاً ثانياً للبحارة الزملاء. قالت لي على الهاتف: أليس بالامكان اقناع حفيدتي بالعودة معك؟ انني واثقة من انه لا يستحيل على والدها ان يستغني عنها، كما قد تتصوّر. اعرف ان والدتها لا تستطيع المجيء لتسهم في التنظيم، اما اذا تمكنت سوزانا من ذلك، فانه شيء حسن.

واستولت الدهشة على سوزانا، وقالت:

ـ الاجتماع الاخير جرى منذ خمسة أعوام فقط. انهم لا يعقدون مثل هذه الاجتماعات الا مرة كل عشر سنوات؟

ـ ولكن كلوتيلد قد لا تكون حية بعد عشر سنوات. انها الوحيدة التي تعرف التعامل مع المتحدرين عن اسلافهم لأنها الوحيدة التي سمعت ذلك منهم مباشرة. وفي كل اجتماع يحضر كل من لم يستطع الحضور في الاجتماع السابق. لقد تلقت كلوتيلد رسالة من أحد هؤلاء الابناء الذين يعيشون في ألاسكا يقول فيها انه سيكون هنا في ذلك الوقت بخصوص عمل ربما يتعلق بالنفط. وهو يريد ان يلتقي بها. هذا هو ما حمل على تقرير عقد الاجتماع في هذا الوقت. وقالت ستيفاني انها تعجز عن ذلك اذا لم تكوني معها كما فعلت في المرة الأخيرة.

عند ذاك صممت سوزانا على الصراحة والصدق في القول:

ـ سأعود، انما هنالك شيء لا بدّ ان اواجهه. الجميع سيحسبون انني

رجعت لان فرنسواز قد رحلت. انني اكره ذلك وجون يكره ذلك، على ما اتصور.

ـ لم يخطر ببالي ذلك ابداً (قالت ستيفاني) وفي كل حال انت التي تخليت عن جون. وليس هو الذي نبذك واستبدلك بفرانسواز بل انت تركته لانك علقت بحب مورغان. ثم ان ذلك لم يدم، وهو أمر اسفت له بدوري، اشدّ الاسف، ما كنت افضل أية فتاة اخرى عليك زوجة لأخي. انني ادرك ما تعنين. لما كنت قد افترقت عن مورغان، فان الناس قد يظنون انك ستعودين الى علاقتك بجون. لماذا يقلقك ذلك؟ بوسعك ان تنزعي مثل هذه الفكرة من رؤوسهم بسرعة. وفي أية حال...

وفجأة توقفت عن الكلام. ونظرت اليها سوزانا مستغربة. ستيفاني انسانة يندر ان تتهيّب. فبادرتها قائلة:

ـ لماذا الصمت؟ ماذا بعد؟

وبقيت ستيفاني حائرة. وتدخل برنت لانقاذها:

ـ لعل زوجتي غيّرت رأيها يا سوزانا. لا أريد اجراء تحقيق. انها تتسرع في الكلام... دائماً!

وهنا رمته زوجته بكتاب، وضحك الجميع. وأخيراً قالت ستيفاني:

ـ أطلقت علي هذه السمعة التي لا أحسد عليها في عهد الطيش. غريب كيف تعلق الاوصاف وتبقى مع الزمن.

ـ الأمر الاساسي، في كل حال، هو ان سوزانا قبلت ان تأتي معنا. وليقل الثرثارون ما يقولون. أو فلننظر الى الأمر من ناحية أخرى. انهم قد يعتقدون انك لا زلت متعلقة بمورغان.

وضحكت سوزانا وقالت:

ـ قد يقولون ذلك. أو لعلهم يحسبونني فتاة متقلبة. أرجو ان لا تكتبي اليهم على الفور يا ستيفاني.

واغبرّ وجه ستيفاني حيال هذا الرجاء، وقالت:

ـ لن تتراجعي يا سوزانا. لن تفعلي ذلك. اتوسل اليك لا ترفضي. (تابعت بعد توقف قصير) أكاد لا أصدق اننا سنذهب خلال أسبوع. من المؤسف ان مورغان لن يكون هناك لاستقبالنا.

ـ مورغان لن يكون هناك؟ (قالت سوزانا) لماذا؟

- لانه يعمل في نيو هبريدس.

- مورغان. . . يعمل في المحيط الهادي؟ ماذا يعمل؟ لماذا لم تخبريني بذلك؟

- لا أظن انك سألت عنه.

- ولكن مورغان، ماذا يفعل هناك؟

- يقوم بتدريب بعض ابناء نيوهبريدس على الزراعة وتربية الحيوانات وما الى ذلك.

انتقلت سوزانا الى الكلام عن جون فورستر:

- كيف هو حال جون؟

- الأمور ليست سهلة حتى بالنسبة لرجل بمفرده. بين الوقت والآخر كنت أسمع عنه بعض الأنباء من جدتي. الظاهر ان تلك المرأة التي استخدماها حين كانت فرانسواز مريضة ما تزال باقية في المنزل.

- أجل انها أثيرة مدللة. زوجها عاجز عن العناية الكاملة بالمزرعة حين يكون جون غائباً، غير انه وكيل صالح يحتفظ بالحديقة نظيفة جميلة. لقد استطاع جون ان يتكيّف مع الاوضاع الى حد معقول. هذا لا يعني ان الانسان يستطيع ان يعرف بالضبط بماذا يفكر جون، او ما هي حقيقة شعوره. انه سيتحول في النهاية الى السياسة.

ماتت فرنسواز منذ سنتين. وفجأة انتصبت صورتها أمام سوزانا. قالت مارتي غريفيث لسوزانا ذات يوم:

- جميل جداً ان تكوني أنت وفرانسواز رفيقتين. لنفترض انك انت التي تخليت عن جون، فانه طبيعي ان تشعري بالحقد عليه لسرعة ما نسي، ولكنه جميل جداً ان يراكما الناس انت وفرانسواز معاً. قليلا ما يكون الانسباء على مثل هذه العلاقة الحميمة.

الشهر شهر أيلول (سبتمبر) والزمن زمن الربيع، لا الخريف. لقد انتهت الرحلة الطويلة عبر العالم. وتطلعوا من الطائرة النفاثة الى سهول كانتربري الواسعة الغنية في اخضرارها، المزنرة بمياه المحيط الهادىء الزرقاء، من الغرب تحدها مجموعة عريضة من الجبال المعروفة بجبال الالب الجنوبية. وهبطت الطائرة. وعرفت سوزانا سعادة العودة التي لا مثيل لها الى الوطن.

امتدّ نظر سوزانا الى القمم، وهي تعرف جميع تعرجاتها، وتحبها اشدّ الحب. . . مونت هات، مونت سومرز، دارشياك، تو ثمب رانج، كلها تبدو صغيرة عن بعد. . .

وانطلاقاً من نهر راكيبيا، أخذت الارض ترتفع قليلا فقليلا، باتجاه المضيق، بعد ان كانت في أولها منبسطة تمام الانبساط. ثم استداروا باتجاه الجنوب الغربي حيث صار بوسعهم ان يروا الطريق ترتفع شيئاً فشيئاً وهم يسرعون نحو واد ضيق في سفوح التلال التي تحجب المنازل الثلاثة. وسرعان ما تمكنوا ان يتبينوها منزلا منزلا. لارشوود فايل، المنزل المصقول القديم العائد الى عهد الاستيطان، قائم بشموخ في الوسط، بحجارته المطلية باللون الابيض، وبدرفه الزرقاء. وبلير هيل ظاهر الى الجهة اليمنى، وراء المنزلين الآخرين. وبينهما يقع عقار فورستر غورج بأشجاره المحيطة بالمنزل، محدّدة، باخضرارها الشاحب دون اخضرار الشجيرات الأصلية المجاورة، بقعة يقوم في حديقتها المظللة منزل جون فورستر.

الطريق الموصلة اليه طويلة. قريباً سيجتازون البوابة الحجرية الكبيرة. لم يخالج سوزانا أي شعور وهي ترفع عينيها باتجاهه. منذ زمن بعيد، كان الأمر يختلف اختلافاً كبيراً. كانت تحسب ان مستقبلها يقع في فورستر غورج. كان ذلك رائعاً. انها ستكون على مقربة من جدتها التي تحبها حباً كبيراً. ثم استداروا عند المنعطف. ها هو المدخل وبجانبه رجل اسمر طويل، على حصان اسود كبير. انه جون.

وخفّف برنت سرعته ثم توقف. وقفز جون عن جواده، الى جهة سوزانا وفتح لها الباب الخلفي، وقال:

- اهلا بك في الوطن أيتها السائحة.

ولامس خدها محيياً، ثم لامس خدّ ستيفاني برفق أيضاً، وحيّا برنت، وقال:

- قلت لنفسي انكم ستصلون في مثل هذا الوقت، فقمت بجولة على الخراف الى هذه الجهة من التلة. رأيت غبار السيارة من هناك. كلوتيلد شديدة الحماس بالطبع. كلا! ان ذلك لم يكن كثيراً عليها. صغرت عشر سنوات حين حملت اليها رسالتك يا ستيفاني، وفيها ان سوزانا عائدة الى الوطن.

قالت بلهجة حازمة:

ـ حسناً، ينبغي ان لا نضيّع الوقت. لا بد ان جدتي ترقبني بفارغ صبر. سأراك بعد يوم أو يومين يا جون.

ـ سأذهب الليلة بسيارتي الى هناك. انه اجتماع للأهل. والدتك ووالدك يا ستيفاني هناك الآن. والدتك متشوقة كثيراً للاستماع اليك مباشرة.

وككل مرة، كانت سوزانا عند التفكير بستيفن وماريان تشعر بفيض من الحب. كانا في منتهى الرقة والحلاوة. التفكير بأنهما في السبعينيات من العمر مستحيل فقد ظلا مدة طويلة بلا اولاد ولما كادت ماريان تبلغ الاربعين، ولد لها مورغان، ثم ستيفاني. ولذلك يبدو انهما دون ذلك سناً.

هنا المنعطف الأخير. ثم أعمدة المدخل المزينة بزهرات اللاركس المنقوشة على حجارة المزرعة. أغصان ضخمة متشابكة متناسقة جداً، كأنها كرة مذهبة قائمة الى جهة، ثم شجرة زان كبيرة بدأت تتفتح براعمها الورقية مع الربيع، من جهة اخرى. وتحركت ذاكرة سوزانا. أثناء فترة الخطوبة الزائفة القصيرة قال مورغان ذات مرة:

ـ هكذا هو لون عينيك يا سوزانا... ليس بالأسمر، ولا بالأخضر تماماً. انه بين بين.

ولم تستطع ان تتذكر ان جون شبّه عينيها بأي شيء. عينا فرانسواز كانتا ياقوتتين، زرقاوين كزرقة البحر، بلون السماء في الصيف. ثم ان شعر فرانسواز كان احمر ذهبياً كأسلاك النحاس الناعمة الرقيقة في حين ان شعر سوزانا ناعم، كتاني وحسب. ولا عجب ان تكون فرانسواز أكثر اغراء في عيني جون.

اما ما عدا ذلك، فانهما متشابهتان في كل شيء! الملامح واحدة.

غير ان ذلك كله انتهى منذ خمس سنوات. وهي الآن غير ضعيفة ولا معرضة للتأثر، على ما قالت في ذاتها. تلك السنوات الأخيرة كانت مشحونة بالتجربة، والاختبار، مليئة بالبهجة والمناسبات الاجتماعية. فيها لقيت الكثير من الرجال. ثم واصلت حديثها مع نفسها، انما بعنف بعد ذلك، فقالت ان السبب الوحيد لشعورها بالكآبة، لا بل باليأس، برغم ما ظهر عليها من خفة وابتهاج، هو أنها كانت في تنقلاتها الواسعة التي حسدها

عليها الكثيرون، بعيدة عن لارشوود فايل.

وراحت سوزانا تلتهم المشهد أمامها بعينين جائعتين، بحثا عن أية تغييرات لكنها لم تجد شيئاً. السياجات لا تزال كما كانت. مشرقة البياض، ومياه لارش لا تزال تجري حلوة صافية على أرضية حجرية غير عميقة، متوثبة في غير سرعة، وأزهار النرجس النابت في باقات كبيرة تحت شجرات البتولا الفضية بجوار ناعورة المياه... كذلك العرزال الذي انشىء في شجرة الصفصاف الحانية، وصوت الدجاجات وهي توقوق مسرورة حين تركت لتسرح حرة طليقة...

ثم ان الاغنام والحملان سارحة هنا وهناك في سفوح التلال المنخفضة... هنالك ومض من شعاع ارجواني كثيف يخترق اشجار الحور حيث مسكبة البنفسج التي زرعتها كلوتيلد لا تزال تنشر عطرها في الهواء. ازهار الكاميليا متفتحة كما ان الشمس التي سطعت على براعم الازهار تحت الصفصاف جعلتها فضية صافية اللون. واستداروا حول منعطف الممر، ثم التفوا ثانية ليقفوا عند أول درجات جلول الأرض. هنا شوهد شخص ممشوق القامة يسرع نحوهم، مغتبطاً، غير مبال بأن تزلّ به قدم، ولا عابىء بأثقال السنوات الثمانين واحتمال التعثر.

وخرجت سوزانا من السيارة قبل ان تقف تماماً، واندفعت صاعدة نحو جدتها، ممدودة الذراعين لتتلقى تلك المرأة الحبيبة اليها. التقتا على الدرجة الثالثة. وضمت كلوتيلد حفيدتها العزيزة الى صدرها، احتضنتها بقوة كأنها لن تتركها تفلت منها بعد الآن. لكنها ارختها اخيراً، وقالت لها:

ـ يا للأناقة! الزمن الذي امضيته في أوروبا علمك بعض الاشياء، يا حبيبتي! صحيح انك كنت تجيدين ارتداء ثيابك، حتى سراويل الجينز البغيضة... وكنت تحسنين الخطو. قلبي يرقص فرحاً لعودتك. كم احب ان التقي الذي صمّم لك ثيابك.

نقرت سوزانا خدّ جدّتها باصبعها برقة وحنان، وقالت:

ـ ما اعظمك يا جدتي! بوسعك ان تجعلي الانسان يشعر بالاعتزاز. هذه الاناقة على شرفك بالطبع. لم يكن بوسعي ان اجيئك بثياب غير جميلة وألوانها مريحة. على انني سأرتدي مثلها عما قريب.

ولحظت بريق الدموع في العينين الزرقاوين الشاحبتين، وأحست

بالغشاوة على عينيها، ثم قالت:

ـ كم اتشوق الى ذلك الممرّ. هل الركوة على النار؟

وردّت كلوتيلد لارشوود:

ـ آل هيرفينغتون بلير هنا. انهم يعنون بابريق الشاي. لا بد ان الشاي صار جاهزاً. ادخلوا الى قاعة الجلوس.

كانت كلوتيلد تكره ان تسميها قاعة استقبال من الطراز الحديث. وشبكت سوزانا ذراعها بذراع جدتها. النوافذ الواسعة ذات الطراز الفرنسي كانت مفتوحة على الشرفة. والستائر بلونيها الليلكي والارجواني كانت تتحرّك ببطء، غير ان الداخل كان معتماً بالمقارنة مع النور المشرق في الخارج. لذلك لم تر سوزانا في البداية غير الشخصين اللذين توقعت ان تراهما من آل هيرفينغتون بلير، اي ستيفن وماريان. اما الثالث فلم تره. لم تنتبه الى مورغان. وتقدم مورغان نحوها، وطبع قبلة سريعة على خدّ بارد ادارته عنه بسرعة. ثم قالت:

ـ ظننتك شبحاً. كنت احسب انك في نيوهبريديس. لماذا انت هنا؟

ـ وأين أكون؟ امضيت شهرين هناك فقط. لم تحسبي بالطبع انني ساكون غائباً في الوقت الذي تضع فيه النعاج حملانها.

والتفتت سوزانا نحو ستيفاني وقالت:

ـ ظننتك قصدت ان مورغان غادر فايل نهائياً.

وظهرت الحيرة على ستيفاني وهي تقول:

ـ هل ظننت هذا حقاً؟

ـ كثيراً ما كنت أوضح أقوال زوجتي المبهمة يا سوزانا. (ضحك برنت وتابع) غير انني لم افعل ذلك هذه المرّة، على ما يبدو. واذا كان مورغان قد غادر فايل ذات يوم فانني واثق انه لن يقضي حياته كلها في جزيرة في المحيط الهادىء حيث لا اغنام. واذا ما كان هناك اي شيء مؤكد، فهو ان مورغان رجل اغنام.

ـ الا تصدقين ذلك؟ (قال مورغان بصوت جاف) اغنام بالطبع، وسياسة ايضاً... بالاضافة الى اشياء أخرى مسلية.

ووضعت حقيبتها اليدوية على كرسيّ صغير. وقالت:

ـ الآن أريد بعض الشاي. ما ان انظر الى سهول كانتربري حتى اشعر

برغبة ملحة في الشاي. لست أعلم لماذا؟

وبدأت ماريان هيرفينغتون بلير تسكب الشاي. وأشرق وجه ستيفن، وهو يرى ابنتها العائدة اليهما، ثم قال:

ـ لم ارك يا ستيفاني بمثل هذا الجمال من قبل. انت في ريعان شبابك... لا شك ان انكلترا كانت ملائمة لك.

ـ حقاً انها لكذلك (قالت ستيفاني، وفي صوتها مرح الغناء، وفي نظرتها الى برنت شيء من الاشراق) انني مثلك، يا أمّاه، احمل في سن متأخرة. فانتظر حدثاً سعيداً!

وفرح الجميع لهذا الخبر. وشعرت سوزانا بالسرور لأن الحديث أخذ يتركز حول ستيفاني وبرنت. كانت جالسة بجانب جدتها، تمعن النظر بين الفينة والاخرى بتقاسيم ذلك الوجه الحبيب. وأحست بالسعادة حين لحظت ان اثر السنوات الخمس عليه لم يكن كبيراً.

وقدم لها مورغان صحناً فيه بعض الفطائر:

ـ اليك بهذا. كلي منه (قال بخشونة حين هزت رأسها) ليس مزاحاً لمن هيأوا العجل المسمّن ان يقول لهم الابن الضال انه لا يأكل لحم العجل. ثم انك لا تتبعين نظام الريجيم في الأكل. ذلك غير ممكن. انك نحيلة جداً.

وابتسمت ابتسامة عريضة ساخرة:

ـ بعد ان كاد يموت جوعاً وهو يأكل القشور، لا احسب ان الابن الضال يرفض لحم العجل الدسم! لقد سبق لي ان تناولت اثنتين من هذه الفطائر. احب ان آكل بعض الكعك المحلّى الذي تعده والدتك... انني ادرك ما كانت ترمي اليه. ذلك يعيدني الى المرة الاولى التي لحظتها فيها، حين كنت في الثانية عشرة من عمري.

ثم مدت يدها الى الصحن وتناولت قطعة منه.

ـ حين كنت في الثانية عشرة، (قال مورغان) كنت تسببين لي الازعاج الشديد. كان ذلك منذ زمن بعيد، على ما يبدو، كنت كثيرة المغامرات بحيث كان عليّ ان اقضي وقتي لا أفعل شيئاً غير البحث عنك، انت ولويس في زرائب الاغنام وحظائر الماشية، وانزالك عن الاشجار العالية. كان بامكانك ان تتسلقي الاشجار جيداً، اما النزول عنها فكان يصعب

عليك عادة. وحين لا اقوم بهذه المهمة، اكون بازلاً جهدي لوقايتك من جدّك بسبب بعض تصرفاتك السيئة. كنت اتمنى لو انك تتعلقين بانسان آخر.

ـ كنت متعلقة بك (قالت معبرة بصراحة عما يجول بخاطرها) اما انت فقد كنت نعمة لي هبطت من السماء حين انقذتني خلال ذلك الشهر. كنت بطلا لي. اعجبت كل الاعجاب بطريقتك في معالجة الحيوانات المريضة او الهائجة. كنت اقضي الليل مفتحة العينين وأنا أحلم بأن أحمل اليك أمنيتك العزيزة على طبق من ذهب.

ـ أمنيتي العزيزة على قلبي؟!! أي شيء هي؟

ـ كان تفعل شيئاً يحمل ماري ريدينغتون على ان تدرك أنك الرجل الأفضل، وانّ تنبذ فيليب غريفيث من أجلك.

عند ذاك لم يتمالك مورغان الاّ ان نطق بملء فمه:

ـ ماري ريدينغتون؟ الأمنية العزيزة على قلبي؟ يا للسماء! لم يكن ذلك غير سحابة صيف. حقاً انني خرجت معها مرّات معدودة، ولكنها سرعان ما أكدت لي ميلها الحقيقي. لم يكن أمامي الوقت الكافي لاعلق بها. ولم تكن لي أية فكرة عن أنني بطلك (وضحك ثم تابع كلامه) ثم لما رجعت لحضور ذلك الاجتماع الأخير حين كنت في الثانية والعشرين من عمرك، وقعت بحب جون. مما يؤسف له انك عدلت عن ذلك بعد وقت قصير.

وقبلت سوزانا ان تأخذ كوباً ثانياً من والدة مورغان، مستغلة هذه اللحظات للتفكير بالجواب:

ـ لست أدري. انك لم تكن تتوقع يا مورغان ان يدوم ذلك الحب الذي نشأ في بداية سن المراهقة. هل كنت تتوقع ذلك يا مورغان؟ هل كنت تتوقع ان يدوم عشر سنوات؟ ثم ان سن جون كانت أقرب الى سني. الغريب في الأمر انه لم يكن فيه ما يلفت انتباهي وأنا في الثانية عشرة. لعل ذلك عائد الى وجود لويس بجانبي. وفجأة، في المرة التالية...

ـ فجأة خانك الحسّ السليم وانتقلت اليه.

ـ مثل هذا الكلام يا مورغان، كان من شأنه قبل الآن ان يثير جنوني. اما الآن فلا. ماذا حملك على توجيه مثل هذه الملاحظة البذيئة؟ جون انسان موثوق ومعتدل. انه موضع اعتماد. ماذا تقصد بقولك ان الحس السليم

خانني؟ من يسمعك يعتقد انني علقت بحب انسان حقير.

ـ حسناً اذا كنت لم تعرفي حتى الآن ان جون ليس الشاب المناسب لك، فانني لن استطيع اقناعك.

ـ اعطني قطعة من تلك الحلوى (قالت سوزانا) هل تسمح؟ شكراً. من المؤكد انك لا تبني حكمك عليه لأنه يحب فرانسواز... مثل هذه الأمور تحدث احياناً. أننا لم نكن... خطيبين تماماً.

كان مورغان يراقبها بعينيه السمراوين ووجهه النحاسي الأسمر، محاولا ان يبيّن انفعالاتها، أو هكذا ظنت سوزانا. وقال:

ـ اعربت لك عن شكوكي بكونه الزوج المناسب لك من زمن طويل. تلك الليلة التي قرأنا فيها رسائل جيرارد الى فتاته فكتورين، هل تذكرين؟

لم تكن تريد ان تذكر تلك الليلة لأسباب معينة. لذلك قالت برصانة:

ـ غير ان ذلك كان مجرّد سؤال عما اذا كنا، أي جون وأنا، متماثلين من حيث الاذواق ولم يكن في معرض الازدراء به.

ـ لم أكن احتقره آنذاك. كنت أظن انك ترمين نفسك عليه (ثم توقف عن الكلام، لكنّ عينيه ظلتا محدقتين بوجهها) يصعب ان يكون الانسان منصفاً، غير متحيّز، حين يرى الطرف الآخر يصلح ما اضطرب من حاله.

وخفضت سوزانا نظرها بسرعة. انما... انما... ذلك كان قبل ان يأخذ جون بالنظر الى فرانسواز بحرارة، وتقدم منها باقتراحه المنقذ. وهنا خطرت لها فكرة طغت عليها طغياناً تاماً. حين يكون الانسان وريثاً وحيداً لعقار كبير، يكاد يستحيل عليه ان يتأكد ما اذا كان السعي وراءه يعود الى شخصه بالذات ام الى ارثه.

ثم رفعت بصرها وتكلمت بصوت هادىء، واثقة من نفسها:

ـ هل يعقل يا مورغان ان الشهامة وحدها هي التي حفزتك يومذاك على ما فعلته؟ لم يكن ذلك من اجل انقاذي وحسب؟ ان دوافعك لم تكن بريئة كما صورتها؟

ـ لقد ادركت الحقيقة اخيراً (قال مورغان متشدقاً) انت الآن اكثر ادراكاً من قبل. الواقع انني رأيت الفرصة التي كنت ترقبها، فاغتنمتها. غير انك ظللت جاهلة ذلك، جهلاً كلياً... عليك ان تعترفي بذلك الآن. على انك لم تكوني متعاونة معي. لقد استخدمتني ثم تجاوزتني.

وأخذت سوزانا جرعة من الشاي بسرعة. غصت وكادت تختنق، لا بسبب السرعة، وانما بسبب الحقد.

ـ حسناً. انني معجبة بصدقك. انه لشيء مؤسف انك لم تكن صادقاً كذلك منذ خمسة أعوام. لقد ظننت ان ذلك سينطلي عليّ؟

ـ اجل. هو كذلك.

ـ كيف؟ (قالت ببرودة تعادل برودته) ولماذا؟

وبدر عليه بعض التردد هذه المرة، ثم قال:

ـ لنقل ان ذلك كان يسهّل اعطائي... على ذلك الصحن الذهبي، تلك الأمنية المفضلة لدي.

وتنهدت سوزانا تنهيدة عميقة. وكم كان اسفها شديداً لأنهما لم يكونا وحدهما! اذن لكانت غرست اظافرها في اذنيه... انه يريد الحصول على لارشوود فايل بمثل هذه البساطة! طبعاً، ان ستيفاني وبرنت ما زالا يعيشان في مزرعة بلير هيل منذ سنوات. وقد خيّل لستيفن هيرفنيغتون بلير ان زواج ابنته من مزارع يشكل حلا مثالياً. لقد كان بوسع مورغان ان يمتلك المزرعة قبل ذلك بسنوات، غير انه اختار ان يتعلم الطب البيطري. واضح انه نادم على ذلك. عند ذاك صار الحصول على لارشوود فايل هو الشيء الثاني الانسب. ثم انها كانت من السذاجة الى درجة كافية بحيث ظنت انه تخلى عن ذلك كله وانتقل الى مهنة جديدة مثيرة في نيوهبريدس.

وأفاقت من تأملاتها هذه على صوت مورغان وهو يقول:

ـ لقد عدت الى الوطن مجدداً. الاحداث التي مرت خلال السنوات القليلة الاخيرة تعني ان جون عاد حراً طليقاً. لا تنخدعي به مرة ثانية يا سوزانا. اذا فعلت ذلك، لن اهبّ الى نجدتك هذه المرة. الم تعلمك الايام شيئاً؟ الم تمنحك القدرة على التمييز؟ اما حان لك يا سوزانا ان تقلعي عن النظر اليه بنظارتين ورديتين كأنه ادونيس العاشق المتيم؟

وردت عليه بلهجة ساخرة واضحة في صوتها:

ـ ان ذلك غير ملائم تماماً يا مورغان. اذا كان المرء كأدونيس، عاشقاً متيماً، فلا حاجة الى نظارتين ورديتين.

ـ حسناً اذن، انظري الى الوضع نظرة منطقية. لن تستطيعي الزواج من جون فورستر. كوني عاقلة.

ـ عاقلة؟ هل كان من الحكمة ان اتزوج منك؟

ـ اجل انه سيكون شيئاً عظيماً. لنا اهتمامات متماثلة، وهي تمثل الرباط الذي يدوم حتى سن متقدمة. كوالدي ووالدتي مثلا. لا اقصد بذلك العاطفة المشبوبة، فهي قد تنطفىء، بل الحرارة القلبية، الدائمة، الدافئة، المؤاسية.

وأحست سوزانا بقشعريرة اخترقتها حتى العظم، وقالت بدون اية دراية:

ـ لقد اخطأت اختيار المثل يا مورغان. والداك يملكان الشيئين معاً، العاطفة المشبوبة وحرارة القلب. كنت ذات يوم في بلير هيلز حين عاد والدك الى البيت بعد قضاء اسبوع مشاركاً في مؤتمر للمزارعين. كنت آنذاك في الثانية عشرة من عمري. صعدت الى غرفتك لأتناول كتاباً. اخذته ورحت اقلب صفحاته وأنا جالسة على مقعد. سمعت صوت السيارة وتطلعت الى الخارج. شاهدت والدتك وقد اندفعت كالصبية الشابة ورمت نفسها في ذراعي والدك. احببت ذلك منهما. قلت انهما يملكان كل شيء من العاطفة المشبوبة الى الحرارة القلبية.

ـ كم هو مؤسف ان تكوني بعيدة النظر وأنت في الثانية عشرة، ثم ان تكوني فاقدة الرؤية وأنت في الثانية والعشرين لتقعي في حب شخص حقير كجون فورستر.

ـ غير انني كنت حكيمة الى حدّ كاف لانهي خطوبتنا الزائفة يا مورغان.

عند ذاك وضعت كوبها على الطاولة والتفتت الى الآخرين في القاعة، وقالت:

ـ لا يمكنني يا جدتي ان ابقى هنا حتى أرى كل شيء، كل زاوية أو ركن في البيت... لنترك آل بلير هيل في لقائهم العائلي الحميم ولنقم بالجولة وحدنا.

كانت تود ان ترى مورغان منزعجاً. ولكنها سمعته وهي تغادر القاعة، يقول بارتياح:

ـ اخبريني يا ستيفاني عن زيارتك الى المبنى التاريخي في ابسويتش. انت تعرفين انك لا تجيدين كتابة الرسائل، ولكنك تستطيعين ان تتكلمي بدون انقطاع. آمل ان ازوره بنفسي ذات يوم، وان ارى المكان الذي اختبأ فيه شارل الذي كان سيملك باسم شارل الثاني قبل ان يفرّ الى القارة الأوروبية.

٢ـ فاجأ جون سوزانا باتهامه لها أنها هي التي تخلت عنه. ووجدت نفسها، بعد وصولها الى لارشوود، حائرة بين قلبين: قلب جون... وقلب مورغان الذي حاول ان يلعب دور الخطيب المنقذ!

أملت سوزانا ان جدتها لم تلاحظ شيئاً. كان الغضب متملكاً منها طيلة الوقت، وزال عنها حين وصلت الى الطابق العلوي. لم تتحمل هزء مورغان بجون، هذا الشريف العزيز، جون غير المعقد الذي قد تنقصه دعابة مورغان ولكن لا ينقصه شيء من الرجولة والنزاهة. كان من الممكن ان يعيش جون في صفاء وسعادة مع فرنسواز لو لم تمت بعد ثلاث سنوات من زواجهما. من يظن مورغان نفسه؟ أيظن أنه الزوج المثالي الذي تحلم به امرأة؟ آه من هؤلاء العزّاب! كم هم معتزّون بأنفسهم!

قالت كلوتيلد بصوت حنون:

ـ سألتك يا عزيزتي رأيك في القماش الفارسي - أو الهندي؟ - الذي عاد بعد كل هذه السنوات. (وبرقت عينا العجوز الصاحية وتابعت تقول) اللون بتروني قاتم. انه ملائم على ما أظن... ليس من السهل لقاء خطيب سابق... كنتما غارقين في حديث عميق. كنت اتتبعكما بكل انتباه، بينما كان الآخرون يغطون حديثكما بأصواتهم. هذا القماش هو من النوع الذي استعملته فكتورين لارشوود عندما انتقلوا من كوخ الطين الى هنا. كنت طفلة اذ ذاك، واعتادت أمي ان تأتي بي الى هنا من اكاروا في العطل، لم أنس ان احمل لها سلة الخياطة المبطنة. كم هي مثيرة تلك الأيام! يختلف قماش هذا التبطين عن قماش الستائر الذي فيه شيء من التريلين والذي قد يعيش ليرى أجيالا أخرى. ام ان سيدة جديدة ستأتي الى لارشوود وتتخلص من قماش زيّه عتيق؟!

داخل سوزانا شعور غريب. قد تكون هذه السيدة الجديدة ممن لا يبالين

بالاشياء القديمة والمعتنى بها. وقد لا يروق لها هذا المنزل بزيه وهندسته القديمة فتهدمه. وأحست بشفقة كبيرة على جدتها لفقدانها ولديها، في الحرب العالمية الثانية، اللذين كانا ليرثا وادي لارشوود من بعدها. وتواجه العجوز حقيقة انتقال هذه الأرض الطيبة الى أيد غريبة أو حقيقة زوالها كلياً. قالت كلوتيلد وهي تتأمل من بين الستائر في بقاع الأراضي الممتدة الى السهول الباسمة:

ـ للتاريخ طريقته الخاصة في اعادة نفسه في عائلة لارشوود... حتى الآن. بدأ أول فصل لهذا التاريخ عندما ذهب جيرار لارشوود يبحث عن عروس له في جزيرة اكاروا الفرنسية بدلا من جزيرة كرايستشرش الانكليزية وأتى بفكتورين روسينيول الى هنا سنة ١٨٦٢. والفصل الثاني عندما تزوج بي حفيدهما وأنا أيضاً من أكاروا. كنا وزميلي نلعب في صبانا، وتزوجنا بعد أن رحّب الأهل بهذه الفكرة.

قالت سوزانا:

ـ نفكر يا جدتي بأجدادنا دون ان نسأل عما اذا كانوا سعداء في حياتهم أو ناجحين. ويبدو ان الاطفال يأخذون الزواج كشيء محتم وطبيعي. وعندما نعود بأفكارنا الى الوراء ننسى قلق تلك الأزمنة. هل كان زمانك مثالياً؟ هل اردت انت الزواج من الجد همفري ولا أحد غيره؟ أعني هل كانوا يعتبرون الزواج الفرنسي المتفاهم عليه أمرٌ مرغوب؟ هل والداك وجدّاك ضغطوا عليك، ام انهم اعتقدوا ان ذلك مثالي، وانت تبنيت رأيهم؟

ضحكت كلوتيلد ضحكتها الرنانة المعدية وشاركتها سوزانا في الضحك.

ـ آه، يا بنيتي. خشيت فقدان همفري من تعدد مخططاتهم في التوفيق بين العائلات. أحببته وأنا في الثامنة عشر ولكنه تجند في الحرب العالمية الاولى وكنت متأكدة من انه سيجد فرنسية يحبّها ولن يعود أبداً حتى لو خرج حياً من جحيم حرب الخنادق، ولطلاقة لسانه في اللغة الفرنسية كان من المحتم ان يكتسب شعبية هناك. وأفكر الآن في السنوات التي كنا فيها مفترقين. فقد عرفنا قيمة الفراق. وقرأت مرّة: لا تساوي المرأة شيئاً الا اذا مرت بأيام حزن ووحشة ورغبة في أشياء يستحيل امتلاكها. تأكّدي من انني تعلمت الكثير في معاناة العذاب والشوق. امك هي الأخرى مرت بهذه المرحلة.

افترض انها اخبرتك كيف كانت تصر على الزواج من مزارع لتعمق جذور العائلة في هذه الأرض. وحاولت جاهدة الا تقع في حب الرجل الذي اصبح والدك فيما بعد. ومضى عليها مدة طويلة وهي فريسة للحزن، وفشلت في تحري السبب في بادىء الامر. وعندما اكتشفت سرها قلت لها ان الزوجات يتبعن رجلهن. هذا هو الطريق السوي. وكنت أحلم وأنا صغيرة بأن ابقى طيلة حياتي قريبة من البحر لأتمتع بهديره. ولكن الظروف حكمت عليّ ان أعيش بعيداً عنه من أجل همفري ومثلما تعلقت بالبحر احببت وتعلقت أكثر بالجبال. اثمن شيء للمرأة ان توفق بين المكان الذي تحبه وبين رجلها. . . ولكن لا تقعي يا سوزانا تحت هذا التأثير. لا تخافي من عودتك الينا. واذا انفتح قلبك لأحد ما في بلاد الاغتراب طيلة السنوات الماضية فان مقامك هناك. ومع الوقت ستفهمين قلبك. . . وستعرفين وجهته.

ـ هل افهم من كلامك انني قد اجد سعادتي ضمن حدود لارشوود أو قريباً منها، وانه لا يهمك اذا كان احدهم يختارني للزواج لكي يضمن مصلحته فقط؟

ـ لم أقل شيئاً كهذا (قالت كلوتيلد بحزم) قلت انك ستعرفين ميل قلبك في الوقت المناسب. لا احب مطلقاً حشو دماغ الشباب بنصائحي. نستطيع ان نوجههم ليقدروا القيم الحقيقية والصلاح والارادة كي يتصرفوا حسب حكمهم. ونحسنين صنعاً اذا نسيت انك كنت مخطوبة مرة الى مورغان لانقاذ ماء الوجه يا صغيرتي، عندما اكتشفت ان جون مال الى فرنسواز. هنا في وادي لارشوود نقيس الزمن بوحدات مختلفة (عشر سنوات لكل منها) كان جد همفري يقول انه لكل منا فرصة البدء بالحياة مجدداً، ولكني أرى ان وحدة عشر سنوات طويلة المدى بالنسبة اليك. فقد تغير جون في خمس سنوات وتغيرت أنت أيضاً كما تغير مورغان. فهلا رأيت كلا منهما بمنظار جديد يا سوزانا؟

لم تجب سوزانا على ذلك مباشرة، بل اقتحمت موضوع مورغان:

ـ كنت تعرفين يا جدتي ان خطبتي مع مورغان كانت خطبة مسرحية. هل اطلعك مورغان على ذلك؟ اتفقت وإياه ان نحتفظ بذلك سراً.

ـ لم يكن مورغان بحاجة الى اعلامي، فقد تكهنت منذ البداية. كنت في

الحديقة عندما اهداك مورغان خدمته لانقاذ عزة نفسك. وأقولها صراحة الآن اني صليت كي لا تفسخي هذه الخطوبة.

ـ لكننا كنا نعلم بوجوب فسخها. لم تكن الخطوبة سوى مرحلة انتقالية.

ـ أملت في انك ستجدينه ملائماً لرغبتك وقناعتك ولن تدعيه يفلت من بين يديك.

ـ لم تكن الخطوبة حلوة ولا كان هو مقنعاً يا جدتي، عدا ان علاقتنا تخللها الحلو والمرّ.

ـ والحب، اليس حلواً ومرّاً؟ لا أنسى ما معنى ان يكون المرء شاباً. الحلاوة النقية تصبح منفرة في نهاية الأمر. نعم. اعرف ذلك. ولكن الشباب يطمعون بالكمال وبالسعادة بينما لا يصل الانسان الى هذه الدرجة الا ساعة ساعة، يوماً يوماً، سنة سنة.

ـ كنت تعرفين يا جدتي ان بادرته في خطوبتي لم تكن بادرة نبل لانقاذ موقفي وان رغبته في الزواج مني كانت لتحقيق مآربه وانه وجد فرصة ذهبية واغتنمها.

ـ نعم، كنت أعرف ولم أسيء الظن به كما كان عليك ان لا تسيئيه أنت أيضاً.

ـ لست من رأيك. أنا لا أتسامح مع من تظاهر بالنبل ليغطي مآرباً انتهازياً.

ـ هنا نختلف في الرأي. انت تحبين التحليل. ولكن، لا تحقدي على مورغان اليوم. ولا يحاسب انسان على اخطائه الماضية. وأنا من جهتي لا أؤمن بقيمة العفو اذا لم يتبعه نسيان. يمكن أن يكون قد ارتكب هفوة في حينه، لكن ابتدئي معه من الآن أو تناسي السنين الخمس الماضية، وأفضل من كل ذلك، اشعري بالسعادة لوجودك في موطنك.

في هذه اللحظة سمعنا مورغان يصرخ قائلا بأن والديه وستيفاني وبرينت ذاهبون الى مزرعتهم وطلب اليهما ان تنزلا لوداعهم. وهكذا سيبقى ثلاثتهم وحدهم. ولكنها سرت عندما قال جون انه سيأتي لرؤيتها، وأملت ان تراه.

لكنه لم يأت، بل اتصل تلفونياً بعد ان تناولت كلوتيلد وسوزانا العشاء

الذي طبخته الجدة وحضره مورغان ونظر مورغان الى كلوتيلد بحنان وقال:

- لا يجب ان تتعب الجدة في أول يوم لك هنا. في يومنا، لا يستنكف الرجال عن مد يد المساعدة في الاعمال البيتية. في كل الأحوال، استخدمنا امرأة تأتينا مرتين في الأسبوع لتقوم بالاشغال المنزلية. انها قوية وماهرة.

اشترك مورغان وسوزان في غسل الصحون ثم جلسا أمام الموقد بوئام بدا، في الظاهر، على الأقل. قرع جرس التلفون. كان هذا جون ويريد مكالمة سوزانا. تقابلت نظراتهما بتحد. نهضت سوزانا قائلة أنها ستحادثه من الغرفة المجاورة. اغتاظ منها وقال بصوت مرتفع كي تسمع كلوتيلد:

- يا للشيطان. لم أفكر أبداً انك بحاجة الى محادثة خاصة.

سعلت العجوز استهزاء واشفاقاً، بل تسلية في مشاهد صبيانية كهذه.

- جون؟

- ماذا يجري عندكم؟ اسمع كالضرب أو ما يشبه ذلك.

ضحكت سوزانا وقالت:

- هذه فقط يد مورغان الثقيلة وهو يعيد السماعة الى مكانها بعد ان أجابك عندما اتصلت، وقلت له انني سأتكلم من البهو.

ضحك جون وقال:

- هذا يعود بي الى السنوات الماضية يا سوزانا. هذه هي طريقتنا.

شيء آخر غير هذا أتاها من الماضي. صوت جون الناعم الذي لم يتغير رغم مرور الزمن. وقالت وهي منقبضة قليلا:

- ولكن الأسباب كانت تختلف يا جون. أنت تعرف اني كتبت لك عندما فقدت فرنسواز لأقدم تعازي. أما الآن وقد اصبحت هنا، فاني اكررها صوتياً وكلمتك من البهو لعلمي بانك لا تحب ان يسمعني أحد وأنا أتكلم عن فرنسواز. سررت بوجودك في صحة جيدة يا جون، ولكني تهيبت من مقابلتك شخصياً لأن فقدانك لشخص مثل فرنسواز لا بد وانه قد أثر في نفسك وخشيت ان يكون ذلك قد غيّرك كثيراً.

- كل شيء يزول والحياة تسير في مجراها. ويعود الانسان الى نفسه. تعلمت ذلك منذ زمن. عندما تخليت عني.

لم تحب سوزانا. لم تتوقع منه هذا الاتهام لأنها عاشت تلك السنوات

وهي تعتقد انه كان قد مال الى فرنسواز فتخلت هي عنه. وفاجأها بكلامه. هذا الذي تفهم منه ان تقربه من فرنسواز لم يكن سوى تعويض عن سوزانا.

استعادت شيئاً من رباطة جأشها وقالت:

- اتتك فرنسواز في الوقت المناسب أي في وقت قصير بين افتراقنا وزواجك منها، اليس كذلك؟

- هل آلمك اني وجدت تعزية بهذه السرعة؟ ودهشت عندما فسخت الخطوبة مع مورغان التي لم تدم، فكّرت لو انني انتظرتك لوجدت ان تقربك من مورغان كان مجرد تعلق وقتي، فكثيراً ما تتولع فتاة برجل يكبرها سناً ثم تنطفىء شعلتها. وقلت لنفسي انك ربما ندمت لخطوبتك منه.

لا مجال للندامة في خطوبتها التي كانت دوراً في تمثيلية لايهام الناس. والمجال هو في ذكرى تلك الأسابيع الحلوة ولكن المخيبة.

قال جون:

- اني اعتذر لعدم تمكني من المجيء هذا المساء اذ يتوجب عليّ الذهاب الى اشبورتون لحضور اجتماع سياسي طارىء. في كل الأحوال، اعتقد أنك متعبة الآن. ما قولك في العودة الى عاداتنا السابقة فنتجول على ظهور الخيل غداً صباحاً؟ ان فرس مورغان الشهباء تلائمك. هل اتفقنا؟ حسناً. اذن سنلتقي عند الكراك في السادسة. جدتك لا تتناول فطورها قبل الثامنة وسيهتم مورغان بذلك ويقدمه لها في غرفة نومها. هذا هو الدلال الوحيد الذي تسمح به لنفسها في سنها هذا.

لم تجد سوزانا تفسيراً لقبولها بالرجوع الى عادات قديمة بمقابلة جون في مثل تلك الساعة المبكرة. هل ذلك للنيل من مورغان؟ هل هو لاستعادة جون؟ لم تحاول ان تعرف.

عادت الى الغرفة، وبكل جرأة- ربما بوقاحة- سألت مورغان:

- هل لك ان تعيرني فرسك الشهباء يا مورغان؟ سأخرج غداً صباحاً. ام أنك ستكون بحاجة إليها؟ قال جون انها سلسة لي الا اذا...

- يمكنك استعمالها لأني لا أخرج في جولات مبكرة حول الخرفان. دان هو الذي يقوم بذلك. ستجدينها جاهزة. هل ستقابلين جون؟

- نعم. عند الكراك، كما في السابق. هذا يعني انني في بلدي.

- طبعاً. لا شيء أفضل من القديم. وهكذا تشعرين ان اغترابك كان قصيراً. لكن حذار من القفز فوق أي شيء مثل السياج او غيره قبل ان تتدربي على ذلك. أنا ذاهب الآن.

قالت بسرعة:

- آه، لا يا مورغان. لا تفكر انه يتوجب عليك تركنا وحدنا في أول ليلة لنا معاً. لك غرفة نوم وغرفة جلوس خاصتان بك. لذا ابق. الا تبقى؟

لكن كلوتيلد هي التي اجابت عنه:

- انه ذاهب الى نغايوبند لان فيليب غريفيش الآن في اوستراليا وسيحل مورغان محله ليساعد مارتي في سجلات الخيل.

فكرت سوزانا في مارتي التي ستسر بوجود مورغان بجانبها ثم قالت:

- كيف مارتي هذه الأيام يا جدتي؟

- اجمل من ذي قبل. ما زال شعرها النحاسي اللون زاهياً لامعاً وعيناها الزرقاوان تشعان نوراً كعيني فرنسواز. واولادها يعبدون. دوروثي وروبيرتا تشبهانها هيئة وشخصية وهما كالزئبق مثلها. أما ريشار فيشبه والده وجده الذي يحمل نفس الاسم، وبيتر اصهب وحمراوي وعفريت. اذا رأيتهم فقد لا تتعرفين عليهم. نموا وكبروا وارتاحت مارتي قليلا من العناية بهم طول نهارها وأصبحت اكثر حرية.

طبعاً حرية حلول مورغان محل زوجها فيليب الغائب في استراليا. هكذا تفسر سوزانا عمق حرية مارتي. وعند حلول المساء سألت جدتها:

- هل يجب ان نترك عشاء لمورغان يا جدتي؟

- كلا. انه سيتناول عشاءه مع مارتي، وسيتأخر.

وبالفعل تأخر كثيراً. كانت سوزانا متمددة في سريرها تراودها شتى الافكار.. وضجرت من هذه الامسية التي تبقى فيها وحيدة فيما يكون مورغان في نغايوبند وجون في اشبورتون.

سمعت صوت محرك سيارة مورغان وهو يدخلها في الكاراج ونظرت من النافذة فرأت القمر بدراً ونجماً يسطع على مسافة منه. وذكرها البدر باحدى امسيات أيلول (سبتمبر) منذ خمس سنوات خلت عندما اعلنت خطوبتهما ومشيا وحيدين بين الاشجار الوارفة ليعطيا انطباعاً للحاضرين انهما يرغبان في الاختلاء قليلا.

توقفا عندما انحسرت الغيوم عن القمر ليطل عليهما من عل. وتطلعا الى الجبال البعيدة والى الثلوج التي كانت تغطي بعض متونها والتي حولها ضوء القمر الى رقع فضية. ثم اخذا في السير ثانية واقدامهما تدوس على الاعشاب والازهار البرية فتصعد رائحتها الى انفهما. مضت برهة وهما كذلك عندما قالت سوزانا باستهزاء:

- في البيت يقولون الآن انها من أروع ليالي العشاق!

التفت مورغان وقال:

- فليكن هذا. لماذا نبذر وقتنا يا سوزانا. لنستفد من هذه الفرصة ونقذف بجون فورستير الى الجحيم.

غافلهما الوقت فراحا يتحدثان كما لو أنهما في حالة حب حقيقي.

لم ترد لأنها فوجئت ولم يعرف مورغان انها عزمت على التخلي عن جون قبل التفكير في الخطوبة الظاهرية. ولكنها لا تنكر انها استسلمت لحديثه ولم تحاول الافلات ولو صورة. واصبحت الآن بين قلبين، قلب جون الذي اقصته عنها في الوقت المناسب كما تعتقد وقلب مورغان الذي يحاول فتحه لها عن طريق تمثيلية يلعب فيها دور الخطيب المنقذ. قال مورغان:

- ما أجمل أن أكافأ لانقاذي لماء وجهك! ما أحمق جون الذي فضل فرنسواز عليك!

ليته لم يتكلم هكذا. افقدتها عبارته المشؤومة الاحساس بسحر الساعة وربما التحول لكليتها اليه لتصير خطيبته الحقيقية. قررت كلماته هذه مصيرها وحولت حديث الأمل الى حفنة من رماد.

هي الآن في سريرها تفكر وقد اغتاظت من نفسها. الم تعلمها السنوات الخمس شيئاً؟ هل كفاها بدر ليلة واحدة من أيلول (سبتمبر) كي يجعل قلبها ينبض ويتشوق؟ كلا. هذا تأثير ربيع الجنوب فقط وفرحتها بعودتها. ليتها بقيت في كانتربري في انكلترا حيث بدأ خريف الشمال وبدأت معه أوراق الشجر تتساقط وتصفّر عوض ان تأتي الى هنا حيث أخذت الحياة في الانتعاش والاشجار والنباتات في الاخضرار. الربيع وقت جنون، وقت خطر.

وصل الى اذنها صهيل حصان. هذه لابد غراي الفرس التي اشتمت رائحة وصول مورغان. تمتم مورغان ببضع كلمات ثم سمعت وقع

خطواته وصفيره على الطريق المعبد في باحة البيت. من عادات الرجال ان يصفروا اشارة اطمئنان بأن القادم ليس غريباً ولا يبيّت شراً ولكن صفير مورغان كان عن عادة اكثر منه للتنبيه.

ولا تعرف كيف ولماذا، فقد فطنت الى شعر وجده مورغان في احد كتب قصاصات جرائد يخص والدته بعد خطوبته بمدة قصيرة. ولأنه موسيقي ماهر فقد لحنه، ولكنها لم تستوعبه تماماً، من عادة مورغان ان يبحث عن أبيات شعر ليستلهم منها أو ليضيف عليها. وكثيراً ما كان يكتب لها وللويس اشعاراً خفيفة خالية من المعنى تقريباً ولم يعتبر مورغان نفسه كاتب شعر بالمعنى الصحيح فقد كان يستعمل اشعار الغير. اما الشعر الذي وجده مورغان فهو بقلم شاعرة تازمانية، نورما دافيس وعنوانه «قمر أيلول» ويبدأ بما معناه: يكون الجمال الباهر حيث يكون الجاهدون والعالم يتمتع بأروع الجمال وهو جاحد. وينتهي بما معناه: ايها القمر المبتسم بلا انقطاع ذكريات أيلول تذوب في نورك الوفير.

عزف مورغان هذه المقطوعة في الصالون أمام جدة سوزانا ووالديه، والآن وازنت سوزانا بين كلام البيت الأخير من الشعر وصفيره.

هل تذكر مورغان ليلة ذلك اليوم من أيلول وقمره؟ أم ان هذه الذكريات ماتت في مخيلته؟ يا لك من حمقاء يا سوزانا تشغلين بالك به وهو آت من عند مارتي التي أحبها فيما مضى بالرغم مما يقوله اليوم، مارتي التي تقارب سنه، بعكس سوزانا الصغيرة التي اعتاد أن يهرع لينقذها من مواقف حرجة في طفولتها ثم انقذ ماء وجهها وهي صبية وفي ذهنه طموح للاستيلاء عليها كي يستولي على ارثها. نامي يا سوزانا ولا تكوني حمقاء. كنت تتمنين الا يكون هنا لدى عودتك، وها أنت قد عدت من أجل جدتك، ولكنك سعيدة، سعيدة حقاً بوجوده بقربك.

عندما التفتت الى المنبه لترى الوقت، كانت الساعة السادسة الا ربعاً، فنهضت وارتدت بنطلوناً اخضر وقميصاً من حرير بلون الكريم، ثم ربطت شعرها القصير في جديلتين وعقدت منديلاً حول عنقها، بعد ذلك انسلت من الغرفة على أصابع قدميها وحذاؤها في يدها ونزلت السلّم.

فتحت باب المطبخ ووجدت مورغان جالساً يتناول الشاي مع شرائح

خبز بزبدة. ولما أشار اليها لتشاركه رفضت قائلة:

ـ كلا، شكراً. يجب ان اسرع في الذهاب.

ـ لا تكوني حمقاء. دعيه يذرع المكان فلن يصاب بأذى اذا انتظرك. لا تعطيه الانطباع انك تركضين إليه كلما أشار إليك. انه معتاد على ذلك مع الجميع مستغلا صوته العزب.

أجابت سوزانا ببرود:

ـ اذاً هذا هو تفكيرك في الناس يا مورغان هرفنتون بلير. اني استغرب كيف أنك لم تتلق ما تستحقه من الصفعات على وجهك حتى الآن. ولكني سأشاركك في لقمة أو لقمتين كي أتخلص من الاستماع الى محاضراتك التي تتدرب فيها على شحذ ذكائك.

ـ ليس من الحكمة ركوب الخيل بمعدة خاوية، فقد يقنعك بان تطيلي البقاء معه مدة أطول مما تتوقعين.

ـ لن أتأخر. سأكون هنا عند السابعة والنصف لأجهز فطور جدتي... وفطورك ايضاً.

ـ لا تزعجي نفسك من اجلي. فقد وضبت فطوراً لكلينا.

ـ لا تكن سخيفاً يا مورغان. انا موجودة هنا الآن وسأتولى تدبير المنزل. وهل تظن انني سأقوم بدور سيدة مخدومة؟

ـ ظننت انك ستتابعين طريقك الى مزارع الكورج لتلقي نظرة على تضاريس وأشكال الارض هناك.

صبت سوزانا لنفسها فنجاناً من الشاي وتلذذت بأكل قطعة من الخبز المقمّر:

ـ ارى ان جدتي ما زالت تصنع الزبدة بيدها. احب نكهتها المملحة. قلت تضاريس الارض يا مورغان؟ ماذا عنيت بذلك بالضبط ؟

ـ الا تريدين ان تعرفي ما اذا كانت مدبّرة البيت قد استقرت نهائياً، ويلزمها بعض الوقت للخروج؟ هذا شيء طبيعي، اليس كذلك؟

ـ ليس بالنسبة الي. أنا لا أحيك مؤامرات كما كنت تحيكها- ولا تزال- حتى انني كنت مترددة في العودة الى هنا كيلا يفترض الناس انني اردت بذلك تعويض جون وتعزيته. موفقو الزواج سماسرة خطرون. ولكن رسّخ في ذهنك انني اتيت لهذه الغاية. من المستحيل تعويض جون عن

فرنسواز!

- من الذي يريد ان يعوض؟

قالت سوزانا بذهول:

- ملاحظتك غريبة حقاً! الناس قد يتزوجون مرة اخرى، وهذا شأنهم. قد تدوم الحياة وتصبح موحشة. واسمع ان الحب الثاني يمكن ان يكون حلواً.

- اعتقد بانه اذا نجح شخص ما في زواجه الأول فلن تخاف أية فتاة ان تتزوجه، لكن قليلات الفتيات اللواتي يجازفن بحياة تعيسة كحياة فرنسواز.

توقفت سوزانا عن شرب شايها ونهضت قائلة:

- انت تماديت كثيراً يا مورغان. لا اصدقك. لماذا تقول هذه الاشياء؟

ثبت نظره في عينيها وقال:

- لانك حطمت قلبك بسبب هذا الشيطان العذب. اكره ان يحدث ذلك لك مرة اخرى.

وعند الباب قالت بانفة وحزم:

- اريدك ان تعرف شيئاً ايها الذكي. صدق اني لا اصدق بالقلوب المحطمة. القلوب تترضرض فقط. وهذا لا يقتل!

وخرجت غاضبة ومشت في صباح ربيع صافي الزرقة وذهبي اللون.

الى الجحيم مورغان هرفنتون بلير ومحاضراته! ستعتبره من الآن وصاعداً أقل من لا شيء ولن تقع في حبائل سحره مرة ثانية. وثمة شيء لا يجب ان تنساه: ستخيب كل آمالها فيه اذا استمر في مضايقتها ووخزها بسبب جون. لقد صدمها بكلامه المشين عن زوجة جون وانها كانت تعيسة معه. لقد كان مهماً بالنسبة اليها ان تكون فرنسواز قد عاشت سعيدة بالرغم مما يدعيه مورغان.

الأمر يتلخص في ان مورغان حاول منع زواج فرنسواز من جون لأنه لم يرد ان يخسر فرصة الزواج بها هو ليصبح سيد لارشوود. وعمل المستحيل لينال مأربه، ولم تشك سوزانا ان تصل القسوة بمورغان الى هذا الحد.

واستغربت كثيراً ان يسرج مورغان الفرس لها. تقدمت اللايدي غراي في السن ولكنها ما زالت فرساً جيدة. وربتت سوزانا على وجهها عندما

دخلت الاصطبل ولاطفتها، ثم وضعت قدمها في المهماز وقفزت على ظهرها. انتعشت سوزانا وهي تستنشق نسيم المحيط الهادىء الآتي من بعيد وهدأ غضبها. واطمأنت الى صباح هذا الربيع المجيد.

رأت عن بعد جون واقفاً قرب شجيرة، وظله الممدود في شمس الصباح المشرقة التي ضربت اشعتها على الكراك خلفه فبدا كجبل طارق. كان هذا المكان نقطة ملتقاها صباح كل يوم قبل خمس سنوات عندما كانت تعتقد انها تحبه. رغبت كثيراً في ان تقع في حبه لأن ارضه تجاور أرضها. فاذا تزوجت منه ستجد نفسها مستقرة بجوار جدتها.

وسارت الأمور على هذا النحو بضعة أسابيع في جو رومانسي... الى ان كثر تردد مورغان على أرض لارشوود مشاركة منه في التهيئة لاحتفال ابناء المستوطنين الأوائل. ولكي يكرس وقتاً اكبر في انهماكه بالمؤتمر وظف مساعداً له في عيادة البيطرة وهكذا تفرغ لمد يد العون لوالديه ولكلوتيلد. اما جون فقد اعتذر لكثرة انشغاله، ولكنهم كانوا يعرفون انه اقل اهتماماً بالاحتفال من والديه وجماعته الذين كانوا يولونه الاعتبار اللازم لذلك قبل عشر سنوات.

حينذاك لم ينقطع مورغان وسوزانا عن العمل معاً ليل نهار في اخراج كتيب تاريخ المستوطنات مما قربهما بعضاً الى بعض بينما وجد جون الوقت الكافي ليمضي فترات من الزمن مع فرنسواز. وأفاد سوزانا كثيراً جو التفاهم العاطفي الذي وجدته في مورغان ورأت فيه رجلا متكلماً بارعاً، مطالعاً متعمقاً، ضليعاً في تاريخ الاستعمار وذا ذاكرة مذهلة بينما وجدت في جون شاباً مملّ الحديث وقليل البادرة. داخلها الشك، هل ستكون زوجة هذا الشاب الذي يدور حديثه دائماً عن عمل المزرعة، وعن الصوف واسعاره، والانتاج والاسمدة؟ تنقصه حنكة مورغان في الأخذ والرد في الحديث، فهو اذا تناول موضوعاً معيناً يطيل الكلام عنه بأسلوبه الجاف. اخذ جون الحياة على وتيرة واحدة. فالمكتبة مثلا. كانت تعتقد سوزانا انها تخصه ولكنها عرفت فيما بعد انها من تأسيس والده وجده، ولم يضف عليها جون الا بعض الكتب والمجلات المتعلقة بالزراعة. الفرق شاسع بين مكتبته ومكتبة مورغان التي تزخر بالقصص، بكتب عن مشاهير الرجال والنساء، بكتب عن تسلق الجبال، عن المجتمع ومشاكله، بكتب

ودواوين اشعار، عن اللاهوت، بكتب عن الأدب القديم والمعاصر، هذا عدا الكثير من الكتب التي تعنى بالحيوانات والبيطرة.

وتساءلت سوزانا كيف ستمضي ليالي الشتاء الطويلة مع جون فيما لو تزوجته، خاصة اذا عزلتهم الثلوج عن باقي المزارع وانقطع التيار الكهربائي بسبب العواصف فيحرمان من الراديو والتلفزيون والتلفون. فما عساها تفعل او تتكلم مع شخص تبدو معرفته محدودة خارج نطاق الزراعة والاغنام؟

وذات ليلة ومض ذهنها وكشف لها عن حبها الدفين لمورغان هرفنتون بلير. كانا حينذاك يبحثان عن المزيد من المعلومات عن عاصفة ١٨٦٧ الثلجية المفجعة التي اودت بحياة آلاف الخراف وقطعت المواصلات ونقصت فيها المؤن حتى لكاد الناس يهلكون.

قالت كلوتيلد ان فكتورين روسينيول، زوجة جيرار لارشوود وهو من المستوطنين الثلاثة الأوائل، وصفت تلك العاصفة وصفاً حياً ودقيقاً في رسائلها لوالدتها في اكاروا. قال مورغان:

- اذن الرسائل موجودة في اكاروا. لكن من الذي يحتفظ بها؟

اجابت كلوتيلد:

- الرسائل موجودة هنا لأن امها طالبت باسترجاعها الى لارشوود لأهميتها التاريخية. وأراد محرر جريدة (اكاروا مايل) (بريد اكاروا) ان ينشرها ولكنه نشر بدلا منها رسائل اللايدي باركر بروميلو التي سبقت فكتورين الى الجريدة برسائلها المماثلة وصفاً وتعبيراً. سآتي بها من الصندوق في الغرفة العليا.

صعدت السلّم ولحق بها مورغان وسوزانا وفتحوا درجاً فيه صندوق. اخرجت كلوتيلد الصندوق وعندما فتحته رأوا في داخله عدة ربطات من الرسائل وقد شدت كل منها بشريط ابيض وبعد البحث اخرجوا ربطة مكتوب عليها (العاصفة الثلجية الكبرى).

تركت كلوتيلد الاثنين ونزلت الى اسفل ووجدا بين الرسائل الاخرى ما أثار فضولهما يتعلق بأملاك المزارعين الثلاث وابتهجا كمن عثر على كنز. وفيما هما يعيدان ربطات الرسائل الى مكانها سقطت واحدة من أيديهما وتميزت عن غيرها بكونها مربوطة بشريط أبيض عقد طرفاه في شكل زهرة.

- آه (قال مورغان) قد تحوي هذه الربطة شيئاً رومانطيقياً.

فتحت سوزانا الرسالة الاولى.

- اوه، مورغان. اعتقد ان هذه رسائل الحب التي كان يحررها جيرار لفكتورين وهي بعيدة عنه في اكاروا. عدد الرسائل قليل طبعاً لضعف وسائل النقل في أيامهم، وجرت العادة حينذاك ان يجمع احدهم الرسائل ويتعهد بتوزيعها عندما يسافر الى كرايستشرش. كم اتمنى ان اقرأها يا مورغان، لكن...

- لكن ماذا؟

- الا يعني هذا فتح أبواب مغلقة؟ قد تكون هذه الرسائل خاصة.

- انها قديمة يا سوزانا، وقراءتها لن تضير احداً. واذا كنت تستطيعين ان تمنعي نفسك من قراءتها، فانا لا أستطيع. لكن اسمعي. لماذا لا نسأل كلوتيلد؟ ربما قرأها احدهم من قبل.

ونزلا السلّم مهرولين وسألاها.

- نعم. أنا قرأتها. كنت تشاجرت مع همفري، وأنا كنت المخطئة- كنت حادة الطبع وأنا شابة- وحاول تهدئتي ولكني هربت منه وصعدت راكضة واختبأت في السقيفة وأقفلت الباب ولما يئس مني عاد فنزل وخرج من البيت غاضباً واهتز البيت عندما أغلق الباب بعنف. صفر لحصانه جيس وابتعد قاصداً بيتكم يا مورغان ربما ليعطيني الوقت الكافي لاهدىء من روعي. عندئذ نزلت من مخبئي وعملت شاباً واخذت اطالع في قصة بدلا من ان اقوم بعمل ما في المنزل.

ولكن عندما اردت الخروج من البيت تملكني خوف عظيم. كان الباب مقفلا. وفزعت من انه لن يعود أو ان حذوة من حصانه افلتت فسقط ومات، وخفت ان اكون السبب في كل ذلك. اشعلت شمعة وبحثت عن شيء اقرأه لاشغل بالي بشيء آخر وأطرد الرعب فوجدت هذه الرسائل. وما ان أتيت على آخر رسالة حتى تأكدت من حبي الكبير له كحب جيرار لفكتورين. مسكين همفري! خاف من ان يمسني جنون بسبب قلقي عليه ولكنه لم يشك مطلقاً اني كنت سجينة. ويمكنكما رؤية آثار خلع الباب. اطلب منكما ان تقرآها ولكن ليس هنا. فالكهرباء ضعيفة. اصعدا ثانية الى السقيفة واشعلا شمعتين.

كان مورغان يقرأها وهي تتسمع، وتبين لها في لهجته اثر من لفظ اجداده الذين يتكلمون لغتهم الولشية بنغم فيها رنة موسيقية. وفجأة لفت مورغان نظر سوزانا لتنتبه الى مقطع يقول فيه جيرار: «فيك اشياء وأشياء تسحرني يا فكتورين. قلت في رسالتك الأخيرة انك لا تتصورين ما أراه فيك. أنظري الى نفسك في المرآة فترى أن لون شعرك بلون العسل ولون عينيك بلون يتراوح بين البني والأخضر، قد اسميه لون البندق. أنظري الى أنفك المستقيم... واذا تبسمت لصورتك في المرآة سترين غمازة حلوة في خدك الأيسر (ماذا جرى للأخرى؟) هذا كل ما سترينه. ولكني أرى كيف تحركين يديك واسمع صوتك بلكنته الفرنسية وجهده وهو يبحث بطريقة غريبة عن اصطلاح انكليزي وانت تتكلمين. أرى تقويسة ذقنك، كما أرى حلقك الحديدي الأسود يتأرجح من أذنيك. وأكثر من كل هذا مشيتك الجميلة. كم أتمنى لو أستطيع كتابة الشعر. حاولت مراراً ولكنني لم أقتنع. ولحسن حظي وجدت شعراً قديماً يعبر عن مكنونات قلبي. هذا هو شعوري بك يا فكتورين:

سحرك الذي يُضيء كالنجوم
فينسحب الليل من ظلمته الداكنة..
حيث تقفين كتلويحة الفجر
وكانسياب الأنهار
في الصحاري المقفرة.

متى تأتين الى لارشوود يا فكتورين، لكي نبقى سوياً الى الأبد؟ لكي نتشارك ليس فقط جمال النهار، ولكن سحر الليل أيضاً.»

شعرت سوزانا بارتعاش يسري في جسمها كنشوة لم تعرفها من قبل ولما رفعت عينيها عن الرسالة التقتا بعيني مورغان فتبادلت العيون نظرة دامت ثانية لم تعرف سوزانا لها سبباً.

كان يعرف مورغان ان سوزانا على وشك خطوبتها لجون ومع ذلك فقد اشتهت حديث مورغان وتوردت وجنتها تأثراً بانفعالها واملت الا يلاحظ ذلك في ضوء الشمعتين. ولتكسر الصمت الثقيل قالت:

- ترى من كتب هذا البيت؟
- بايرون كتبه يا سوزانا.

تطلعت فيه وقالت:

- تأكد لي ان ذاكرتك لا تخزلك ابداً في معرفة مصدر اي شعر. وان جدتي تلجأ اليك لتنيرها في الكلمات المتقاطعة. ما سرك؟ هل هي ذاكرة فذة؟

- اعتقد ان لي ذاكرة قوية، ولكن الأهم من الذاكرة هو حبي للشعر وفضولي الكبير لمعرفة ما يدعو الشاعر الى كتابة اسطر معينة دون غيرها. ولذا يصعب علينا التقصي في السبب والشخص والزمن، وكل هذا يختلط علي.

عند هذه النقطة بالضبط تبين لها ان حبها لجون لم يكن سوى رباط فاتر يعود أساسه الى رغبة منها في البحث عن شخص يتزوجها ويبقيها قريباً من جدتها وأرض لارشوود.

أعادا ربطة الرسائل الى مكانها وفيما هما ينزلان السلم، توقف مورغان على صحن السلّم العلوي وسألها:

- هل يحب جون الشعر يا سوزانا؟

رفّت عينيها وأجابته متلعثمة:

- انا... لا أعتقد ذلك. جون ليس بالمطالع الشغوف. يطالع فقط المواضيع التي تهمه ولكن بدون تعمق.

- تعرفين ذلك اذن.

- نعم. لماذا؟

- افكر في ذلك منذ ان اخذت نجومك تحنّ الى نجومه، واتساءل عن معرفة ما اذا تعمقت في درس وضعك معه. الزواج هو حياة بكاملها كما نأمل. واحياناً لا تدوم هذه المشاركة. ولكن من الممكن تفادي أسباب التفسخ في الحياة الزوجية اذا درس المرء وجود تكامل أو عدم وجوده بين فردين أو سمه توافقاً اذا شئت. والتحليل جيد وضروري اذا وضعنا جانباً مسائل سحر الجمال أو ما يتعلق بالبيئة ومكان العيش. فالاهم هو التوافق في الافكار بين فردين.

قالت بدون مواربة:

- فكرت في ذلك يا مورغان وهذا كل ما استطيع قوله في الوقت الحاضر.

- يكفيك هذا ذخيرة لك الآن. ولكن لا تندفعي يا سوزانا في جو المستوطنين الأوائل المحموم الذي سيبرز في احتفال الشهر القادم وترتمي في رومانسية قيام اتحاد بين فرعي عائلتي المستوطنين الأول والثاني.

أجابت هامسة وهما يتابعان نزولهما:

- سأتمعن في ذلك.

بقيت مستيقظة الليل بطوله وهي تفكر في الرسائل والماضي الذي فيها وقراءتها مع مورغان وتوقفت عند نقطة اكتشاف فتور حبها لجون وشكرت القدر على تفتح ذهنها وعدم توريط نفسها مع جون بقبول الزواج منه. وفضلت ترطيب جو العلاقة معه وتفضيله على فسخ الخطوبة بطريقة فظة كيلا يؤثر ذلك في روابط الصداقة بين العائلتين. أمضت الأيام التي تلت ذلك بحبور واطمئنان، تعرف ان مورغان كان ينتظر الفرصة الملائمة. ولكن مورغان لم يتفوه بأي شيء اعتقاداً منه بأنها ترتبط بجون وهكذا أبقى مسافة بينه وبينها حتى في اوقات العمل معاً.

وتذكرت سوزانا وهي مستلقية في فراشها كيف طلبت من جون ان يهتم بقريبتها فرنسواز عندما تأتي من تاهيتي. وحين لاحظت نظرات جون الخاصة للقادمة الجديدة اطمأنت على ان فسخ الخطوبة لن يحطم قلبه. فقد راقبتهما معاً وهي تجمع بعض الزهور البرية بينما كان مورغان يراقبها هو بدوره من دون علم منها. أمل مورغان في ان تتأكد سوزانا من التقارب بين فرنسواز وجون فيكون ذلك عذراً لفسخ الخطوبة. فيتقرب هو إليها. فطنت الآن فقط الى سذاجة اعتقادها في حينه وهزت رأسها محاولة منها لطرد هذه الافكار المؤلمة من رأسها. وفي تلك اللحظة رأت حصان جون يتقدم نحوها بخبب رائع.

٣ - أخذت الذكريات تندفع كالفيضان الجارف في مخيلة سوزانا. . . إلى ذلك اليوم الذي كانت تتوق فيه لمصارحة مورغان. . . ثم جاء ليطلب يدها بفتور، دون أن تسمع عبارة تأكيد واحدة لحبه واصراره على الزواج

لم تفكر سوزانا الا بغبطة اللقاء وزوال كل تحفظ بينهما. مد يده لها ونظر في عينيها وقال:

- لنعد عقارب الساعة الى الوراء يا سوزانا ونركب خيلنا كما لو كنا خاليين من هموم الدنيا وأحزانها.

تجاوبت معه وحررت قلبها من الذكريات المؤلمة. استدارت ليستوي الحصانان جنباً الى جنب وابتسمت. لفتت نظره الغمازة التي طالما كان يحبها. قالت:

- والآن. . . إلى أين نتجه؟

- الى شجرات مفترق ممر جبرار. الى الأمام!

انه فارس ماهر وطالما ربح مسابقات الفروسية، ولكنه لم يستغل فروسيته أمام رفيقته، فهي لا تضاهيه خاصة وانها لم تمارس ركوب الخيل مدة طويلة. جذب جون عنان جواده قبل أن يصل الى الشجرات وانتظر حتى وصلت سوزانا. كانت وجنتاها متوردتين وزاد في جمالها صعود الدم الى وجهها عندما رأت نظرة الاعجاب في عينيه مما انساها روح العداء الذي اظهره مورغان لها.

- لا نستطيع الجري الآن، فالأرض هناك حفرتها الجرافات تمهيداً لفتح طريق الى مجرى بلاك بيتش بهذا حصلنا على مرتفع يستطيع منه المرء أن يمد نظره الى أوسع مساحة ممكنة بواسطة المنظار وقت تجمع القطعان، ومراقبة الخراف التي تتخلف عنها، وارسال الكلاب لتطويقها.

دخلت الفرسان أرض الطريق المحفرة وأخذتا تسيران برشاقة. لم يتبادل

www.elromancia.com

الراكبان الكلام وكانت تسمع اجراس الفرسين وزقزقة بعض الطيور وتساقط الماء في الوهاد المجاورة. وصلا الآن الى المرتفع الذي سماه جون نقطة المراقبة. من هنا رأت سوزانا التلال المنخفضة على جانبي النقطة التي تتوسط السهل المتألق.

ظلل جون عينيه بيده ليقيهما توهج النور من جهة الشرق وقال:

ـ ما أكبر الاختلاف بين يومنا هذا وتلك الأيام. تصوري الوقت الذي كان يتطلبه اجدادنا للوصول الى كرايستشرش. لا يلزمني الا ساعتان أو أقل بقليل حتى المطار وساعة اخرى بالطائرة من هناك الى ولّنتون لحضور اجتماعات مجلس الصوف أو مجلس الحبوب. في احدى المرات طال سفر ايلدريد فورستير جدنا الأول الى كرايستشرش ثلاثة اسابيع بسبب فيضان نهري راكايا وسلوين بينما لم تدم الرحلة في الطقس العادي الخالي من الفيضانات أو الثلوج اكثر من ثلاثة ايام. والآن رحلة من هنا الى اوروبا أو كندا أقصر من سير جدنا الى ساحة الكاتدرائية.

ـ وهل ستسافر قريباً يا جون؟ الى كندا أو أوروبا؟

ـ نعم. السنة القادمة بكل تأكيد. كنت سأقوم بالرحلة هذه السنة، ولكن رسالة ستيفاني التي تقول بانك آتية وصلتني لحسن الحظ تماماً قبل يومين من التاريخ المحدد لقبول العرض.

ـ هذا يعني انك رفضت العرض بسببي؟ (قالت سوزانا مستغربة) ما كان يجب أن تفعل ذلك يا جون..

ـ طبعاً رفضت العرض. ولم لا ارفضه بسببك؟! والطلب الذي قدمته كان بسببك ايضاً لأني اردت اغتنام فرصة وجودك في انكلترا لأراك. والجولة كانت لتشمل بروكسيل ولندن ثم كندا. وسمعت بانتقال والدك الى كندا بعد تقديم طلبي، فقلت في نفسي سأراك هناك فيما لو ذهبت معهما.

قدّرت سوزانا وقفته هذه ولكنها انزعجت. فقد ارادت أن تكون عودتها مجرد عودة الى بيتها خالية من كل انفعال داخلي. وعلى جون أن ينزع من رأسه ان الأمور ستعود كما كانت قبل وصول فرنسواز أو دخول مورغان في حياتها.

قالت وهي متوترة بعض الشيء:

ـ هل يمكن التراجع عن الرفض؟ بما ان مجيئي ما زال حديث العهد فالوقت ليس متأخراً. اعتقد انك تهتم بالسياسة اهتماماً كبيراً ورحلتك قد تساعدك في طموحاتك. انني آسفة لهذا الرفض.

في السابق لم تنجح مطلقاً في استقراء عينيه. اما الآن فقد رأت انها غير متأكدة من ذلك عندما نظر اليها مطولاً قبل أن يعلق على كلامها:

ـ لا اعتبر ذلك خسارة، ولدي المتسع من الوقت لرحلات كهذه. لم اشعر بأي اسف عندما رددت الطلب بعد أن علمت بمجيئك. وأقولها صراحة أن تفويت فرصة التعويض عن خطأ سابق وترك المجال مفتوحاً امام مورغان لمس من الجنون. كفاني ان مورغان سرقك مني مرة.

ـ لا شيء على الاطلاق بيني وبين مورغان يا جون. ربما كتب لكلينا أن نقوم على خدمة جدتي وان نتعاون في العمل. جدتي تخشى من انها لن تحيا لحضور احتفال الجماعة اذا انتظرنا نهاية السنوات العشر حسب التقاليد المتبعة ولذا يتوجب علينا التخفيف عنها وابقاؤها في جو المستوطنين الأوائل. وسأحاول كل جهدي في انجاح هذه الجمعية وفي ابعاد كل ما يمكن ان يؤثر في العلاقات مثلما حدث في الجمعية الأخيرة. هذا من جهة. ومن جهة اخرى... يستحيل عليّ الآن أن... اعتاد على فراق... فرنسواز. فكل ذكرياتي في لارشوود مرتبطة بها واستميحك عذراً لقولي هذا، فانه قد يؤلمك. ولم نكن انا وفرنسواز مجرد قريبتين. كنا صديقتين ومتحابتين.

اقترب جون منها قائلاً:

ـ غابت فرنسواز عنا منذ سنتين مضتا. وعلى المرء أن يحيا حياته، ولا تنسي يا عزيزتي انك انت التي تخليت عني. فرنسواز عوضت عليّ غيابك ولكنك كنت في المقام الأول في قلبي.

ـ دعني اوضح لك امراً يا جون. عزمت على التخلي عنك قبل أن اتركك باسبوعين عندما تأكد لي انك همت بفرنسواز. ولكن قولك هذا اربكني.

ـ ولماذا يربكك؟

نظرت في وجهه الجميل وقالت وهي تحاول أن ترى ما وراء عينيه:

ـ لن اطيق قيام فرنسواز بدور المضحية لتعوضك وتحل محلي لأنك

خسرتني. هل ضحت بنفسها يا جون فالتقطتك قبل أن يدخل اليأس الى قلبك؟ عمل كهذا يجعل المرأة تعيسة. وآمل انك اكدت لها انه كان من حسن حظك اني تخليت عنك واننا لم نكن مخطوبين واقعاً. قلت لفرنسواز اننا لم نكن مرتبطين بعاطفة جياشة واعتقد انها اقتنعت بذلك. هل كانت فرنسواز تعيسة بسببي؟

- اذا كنت قد سمعت انها لم تكن سعيدة فان سبب ذلك لا يعود اليك يا سوزانا. اتريدين الحقيقة؟ الحنين الى اهلها فقط، الى تاهيتي وشمسها ومرحها ودفئها وبهجة الطبيعة فيها. ليتني بعت املاكي هنا وأسست مزرعة في الشمال قريباً من موطنها. ولكني املت في ان الزمن سيشفيها من هذا الحنين كما يشفي الكثير من الزوجات وانها ستتعلق بجبالنا وأرضنا. هذا كل ما في الأمر. لا تتركي مجالاً لأي كان أن يدخل الشكوك الى ذهنك... والآن يا سوزانا. دعي الزمن يحل الأمور. ما كان يجب ان افاتحك بقلبي بهذه الجدية وقبل الأوان... ولكني فقدت منطقي عندما رأيت اني كنت على وشك مقابلتك اما في انكلترا أو في كندا ومن ثم عندما وجدتك هنا قريبة مني. ومع ان ستيفاني طلبت مني في رسالتها أن ازفّ بشرى رجوعك الى جدتك مع ما في ذلك من احتمال صدمة لها ارادت بذلك اخباري انا ايضاً خشية منها أن اكون قد سافرت فأجد نفسي في الطرف الآخر من العالم وأنت في هذا الطرف. وربما فكرت في ان المؤتمر الحالي قد يقربنا مرة ثانية مثلما فرقنا المؤتمر السابق.

قبلت سوزانا باعتقاده ولكنها شكت في أن تكون ستيفاني قد أعدت لذلك. تتذكر الآن كيف بكت ستيفاني عندما افترقت عن مورغان منذ خمس سنوات ورجت من كل قلبها أن تكون زوجة اخيها.

عاد جون وسوزانا ادراجهما وافترقا عند الكراك، هو الى بيته الخالي الا من مدبرة البيت وزوجها وهي الى مورغان الذي ستحجب عنه شعورها في الوقت الحاضر. وارتاحت عندما فكرت أن تعاسة فرنسواز كانت ناشئة عن شوقها الى بيت اهلها. هذا شيء طبيعي ولو عاشت لاختفت هذه التعاسة مع الزمن. ولكنها ترقد الآن بجانب طفلتها جوستين في قبر واحد في مقبرة كنيسة لارشوود، بين هذه الجبال بدلاً من ارض المحيط الهندي وشواطىء طفولتها.

دخلت البيت وهي تغني ووجدت مورغان يجهز فطور الجدة. ولم تجد ما تقوله سوى ان نزهتها انعشتها كثيراً. قال مورغان وهو يصب قليلاً من حبات الشوفان (القرطمان المشهور بالبوريدج بالانكليزية) في الحليب:

- حسناً. لقد اتيت في وقتك لتساعديني، ولتبهجي عيني جدتك التي تحب أن ترى وجه حفيدتها قبل أي شيء آخر، سألحق بك بالصينية.

وجدا الجدة جالسة في سريرها ملتفة بشال ارجواني اللون وقابلتهما بعينين مفعمتين بالحياة وبوجنتين تشعان صحة وبشعر ابيض جليل.

- اليست هذه الجدة فتاة أنيقة؟ (قال مورغان مازحاً) انظري كيف تتطابق ألوان ثياب النوم مع ألوان الغرفة. تذكرينني أيتها الجدة بملوك آل تيودور وهم يستقبلون أفراد حاشية البلاد في غرف نومهم.

رتب مورغان الوسادات خلف ظهرها وهيأت سوزانا الصينية على ركبتيها. ضحكت الجدة وقالت:

- ستخجل مني أليز في اكاروا لهذا الفطور الوفير! أليز لا تتناول الا فطيرة بمربى الكرز، بعكس مارغو زوجة بيير التي تتناول كل ما يخطر على بالها. ليس لي حيلة في ذلك. فان مناخ الجبل هنا حولني امرأة شرهة وقد توقفت بعد رحيل همفري عنا عن تناول البيض وبعض اللحوم صباحاً.

سألتها سوزانا:

- كيف الحالة أليز هذه الأيام؟

- اوه، ممتازة، فقد تجددت حياتها بعد أن بنى بيير ومارغو عدداً من الموتيلات على ارضهم واتخذوا سكناً لهم في مبنى سمّوه روسينيول. وهناك أليز ثانية، صغيرة، هل عرفتما ذلك؟

- نعم. فانهم اخبروا امي في احدى رسائلهم.

- آه... إن أليز الصغرى جنة أليز الكبرى. وسيأتي جميعهم لحضور الجمعية العمومية لأن التزاوج بينهم وبين نسل الوادي متشابك وأصبحوا بنتيجته جزءاً من العائلات الثلاث، ولا يسمحون لأنفسهم أن يفوتهم اي احتفال... الوقت يستعجلنا يا سوزانا. ولحسن حظنا اننا لن نكتب هذه المرة تاريخ حياة المستوطنين الأوائل وأبنائهم على هذه الأرض على مدى المئة سنة الغابرة.

لحسن الحظ؟ بل لسوء الحظ لأنها كانت تجد اكبر متعة في سير حياة

السابقين وتصحيح أخطاء الطباعة قبل نشرها. هذا ما فكرت فيه باطناً ولم ترد مشاركتها في أفكارها. وتحوّلت الى موضوع التعجيل في ارسال بطاقات الدعوة وموضوع تنظيم اطعام المجتمعين، فقال مورغان ان والدته تقوم بتنظيم هذه المهمة، اما والده فقد أوصى على خيمة كبيرة جداً لايواء الأولاد في حال نزول المطر وهيأ البهو الكبير للقيام بواجبات الآخرين من جهة المأكل والمشرب والترفيه.

- ومارتي - باركها الله - تبرعت بالعناية بالأولاد مدة أيام الاجتماعات، واشتركت معها في تنظيم ما يتوجب عمله حيالهم بعد أن انتهيت من عملي في سجلات الخيل.

الغيرة - هذا شيء جديد بالنسبة الى سوزانا - كوت قلبها. لم تشعر بأي شيء من الغيرة حين تحول جون الى فرنسواز. على العكس من ذلك، فقد احست بارتياح. اما مارتي... هذه المرأة التي تشبه فرنسواز بلون شعرها ولون عينيها والتي احبها مورغان فيما مضى ثم ادعى نسيان ذلك الحب؟! سوزانا تحسدها الآن بشدة، وتشفق على نفسها لأن الرجال لا يفضلون الشقراوات مثلها، بل ذوات الشعر النحاسي الأشقر والوجه الذي فيه مسحة احمرار.

- لماذا ارى سحنتك مقلوبة يا سوزانا؟ (سألها مورغان) تبدين كمن يمضغ شيئاً كريه الطعم.

اغاظها دهاؤه فأجابت محتدة:

- من تظن نفسك...؟ سيد العارفين وقارئي الأفكار؟ أنت مورغان هرفنتون بلير فقط؟

قال بنفاد صبر:

- اختصري هرفنتون بلير واستعملي فقط بلير الكلمة الدارجة منذ اجيال. عبارة هرفنتون بلير طويلة ولا استعملها الا في المعاملات الرسمية. لا قيمة للأسماء المفخمة اليوم كما كانت في السابق.

- ما اصل هذا الاسم؟ دائماً اتساءل عن الأسماء المركبة.

- يعود الأصل الى القرن الثامن عشر. احب رجل اسكوتلاندي من عائلة بلير الابنة الوحيدة لآل هرفنتون وربط اسمه باسمها ليبقى اسم عائلتها حياً عند استيلائها على ارث والدها.

عبست سوزانا في أول الأمر ثم انفرجت اساريرها وقالت:

- ابقوا على الأقل على كلمة بلير ولو في الشطر الثاني من الاسم المركب. لا يتوقع المرء ان يسقط اسمه كلياً حتى لو كان هذا احد شروط الزواج.

اجابها بهدوء كلي قائلاً:

- اراك متحمسة، لماذا؟ ما الذي يجعلك تعتقدين ان استعمال الاسم أو عدم استعماله جرى تحت تهديد المسدس؟ لقد جرى بالتوافق.

- انت تؤكد التوافق بينما انوه انا عن الشرط.

- لا شيء مما تقولين. اراك مائلة الى التهجم هذا الصباح. لم اسمع شيئاً مما تنوهين عنه. العكس هو الواقع. احسّ موراي بلير بالشفقة على رجل فقد ثلاثة أولاد ذكور فحرم من ذكر يخلد اسمه من بعده اذ بقيت له ابنة وحيدة - جوليا - فعرض عليه دمج الاسمين. من يدري يا سوزانا. عندما تتزوجين وتنجبين حفيداً لكلوتيلد قد يتعلق هذا الحفيد بها تعلقاً كبيراً كما انا متعلق بها، وقد يقترح وضع اسم لارشوود قبل اسمه.

- الاسم يزول، اما الأرض فلا. سيبقى اسم وادي لارشوود خالداً. ولن اطلب من زوجي الذي سأحمل اسمه بكل فخر أن يضيف اسم لارشوود على اسمه.

- ربما هذه انانية منك. لا تقدرين أهمية هذا في عيني جدتك. انه لشيء عظيم فعلاً ان نرى الأسماء تتكرر في شجرة العائلة. في خطوبتنا القصيرة مثلاً...

- في خطوبتنا الظاهرية. (قاطعته بحدة).

- في خطوبتنا الظاهرية (رد عليها بحدة مماثلة) اعتقد لو انك فكرت ملياً في احتمال زواجنا- وهذا يسعد الجميع - لأحيينا اسماً قديماً وسمينا مولودتنا الأولى فكتورين روز.

ارتعشت شفتا سوزانا ولكنها اخفت ذلك. هل يفكر مورغان في الابوة حقيقة؟ قرأت مرة أن الرجال قلما يفكرون في الابوّة كما تحلم الفتيات في الأمومة ويبدآن بانتقاء الأسماء وهن صغيرات السن. والغريب في امر مورغان انه يعرف ان الخطوبة كانت ترتيباً بينه وبينها فقط لذر الرماد في العيون. الاّ انها ارتأت ان تهاجمه. قالت:

- أرى انك رتبت كل شيء ورسمت خريطة الزواج... كأنك كنت

واحداً من أوائل المستوطنين الفرنسيين. بحق السماء يا مورغان، كن واضحاً في مغازلتك لكسب عطف امرأة. لا غرابة في ان مارتي...

قطعت كلامها ولكن بعد فوان الأوان. فقد خانها مزاجها. فأكمل هو الجملة عنها:

- لا غرابة في أن مارتي فضلت فيليب عليّ. وانا اوافقك على ذلك. واعتقد بانها اختارت أفضلنا مع انه وقع ما باعد بينهما لفترة ما. لقد تغيرت يا سوزانا وأصبحت غير تلك الفتاة ابنة الثانية عشر المتناهية اللطف، عندما كنت افكر في الرجل المحظوظ الذي سيتزوجك حين تكبرين لأني كنت أرى فيك امرأة جذابة. من منا توقع أن تصبحي امرأة بهذه الشراسة؟ والسنوات الأربع التي امضيتها في الأوساط الرفيعة لم تغير منك شيئاً أو تحسنك. كنت على يقين من انك ستتزوجين من لويس روسينيول متى كبرتما. ولكنه لم يأت منذ خمس سنوات.

اتسعت عينا سوزانا ولامت نفسها على ذكر مارتي، الا ان عزة نفسها دفعتها الى القول:

- لويس! انه ابن خالة لي، وأنا من غير المؤمنين بالتزاوج بين الدم الواحد.

- ماذا تقولين يا سوزانا؟ اي ابن خالة لويس هذا؟ توجد بينك وبينه اثنتان وأربعون درجة قرابة على أقل تقدير. رحل فرع عائلته عن اكاروا الى تاهيتي بين ١٨٤٠ و١٨٥٠ . وربما سمعت انه كان من كبار مغامري تسلق الجبال خاصة في أميركا الجنوبية.

- اعتقد باني سمعت بذلك وبصورة مشوشة، غير اني لا اعرف الكثير عنه.

- هذا صحيح. ام انك لم تولي اهتماماً يذكر بعائلته في السنوات الأخيرة الماضية؟

- انك تعرف بما لا تعرف. لم اتوانَ مطلقاً في مراسلة الجدة مرة كل اسبوع من خلال الأعوام كلها.

- من السهل أن يراسل الانسان، فهذا لا يتطلب تضحية مثل...

توقف عن اتمام كلامه، ولكنها تحدته قائلة:

- تابع يا مورغان. فان لك موهبة فائقة في استعمال لسانك اللاذع.

رجل داهية. لا توفرني. قل. مثل اي تضحية؟

اجابها بتمهل مقصود:

- مثل تخليك عن المآرب الفخمة وحفلات الاستقبال والاختلاط بالدبلوماسيين والتنقل بأبهة في مقصورات الدرجة الأولى... ثم عودتك الى سيدة عجوز ظريفة لم تتذمر من وحشة الوحدة ابداً بفضل علاقتها بشخص لا يمت اليها بصلة القرابة بشيء.

- هذا الشخص هو انت ايها القديس مورغان... تستحق هالة القداسة على رأسك...

- ارأيت ما اعنيه؟ انت مشاكسة وتتصرفين كالذي يهاجم عدواً في معسكره، ولكنني ارفض منازلتك.

احست كأنه طعنها في جسمها. عدو؟ مورغان؟ ابداً... انه الرجل الذي تحبه حتى وهو ينتقدها بكلامه القاسي... احبته طوال خمس سنوات. من الانصاف أن تصرح له بانها لم تتمكن من المجيء لأنها لم تكن حرة قبل الآن.

لم تجرؤ على المجيء في العامين الأولين بسبب وجود مورغان على ارض لارشوود وكانت تأمل أن تجده متزوجاً من فتاة ما فتأتي وتبقى مع جدتها على الأرض التي هي اعز شيء على قلبها والتي لا تضاهيها اجمل بقع العالم. هل خليج نابولي أو أقنية البندقية أو ينابيع روما أكثر بهاءً من أرضها؟

وجمال بحيرات زوريخ؟ وسحر ساحة بروكسيل؟ أو سحر ليالي موسكو؟ ما هي بالمقارنة مع مباهج لارشوود الطبيعية، وينابيع الأحراش التي تسبح في رقصاتها في السهول، وأريج تفتح براعم الأشجار المزهرة، وفجر الجبال والوديان، وشعاع القمر عليها وسحره الفضي في ليالي الشتاء؟

عندما تأكد لها ان حبها لمورغان اخلى قلبها نهائياً قررت العودة وحجزت لنفسها مقعداً في الطائرة الى نيوزيلاند، ولكن قبل أن تعلم لارشوود بعودتها وقعت امها مارغريت في مرض وضع حياتها في خطر. امها امرأة شجاعة وأصرت على عدم البوح بمرضها الى والدتها كلوتيلد التي قد يصيبها اليأس فتستسلم للأحزان لأن نبض الحياة في روحها بسبب ابنتها مارغريت وحفيدتها سوزانا.

- اذا علمت والدتي بمرضي (قالت مارغريت) لن يبقى لها هدف في الحياة تعيش من اجله. سأحاول جهدي لأكتب لها كالعادة نوع الرسائل التي تحبها... مفرحة، مثيرة ومسلية.

ونجحت في ذلك رغم علاجها المتعب والعملية الجراحية ونقاهتها والنكسات التي كانت تعاودها من حين لآخر. ثم اتاها ذاك الدواء العجيب الذي ساعدها على استعادة صحتها كاملة ولم تنتكس مدة الأشهر الستة التي تلت شفاءها. كان ذلك في كندا. ولما اتصلت بها ابنتها لتعلمها بعودتها الى لارشوود وبأسباب تلك العودة، نصحتها امها بالا تخبر جدتها بشيء في الوقت الحاضر وقالت لها:

- ستقلق امي كثيراً ولكننا سنخبرها عندما نأتي لحضور الجمعية العمومية، وعندها ستطمئن على صحتي.

ولكن سوزانا ستطلع مورغان لتبرر سبب غيابها الطويل. قالت:

- سبب غيابي الطويل يا مورغان يعود في الحقيقة الى عوامل اخرى. كانت هناك دوافع منعتني من المجيء...

رفع يده وقال:

- حزرت ذلك. رجل ما قد استبقاك هناك. ولكن من اعتذر يا سوزانا فقد اتهم نفسه. ولا عذر لك في عصر السرعة الذي نحن فيه لعدم مجيئك الى هنا ولو لثلاثة اشهر في كل عام. واذا كانت لم تكن لديك الجرأة الكافية للابتعاد عن هذا الرجل كل هذه المدة فانه، في نظري، لا يساوي شيئاً. لا تعرفين كيف تختارين، اليس كذلك يا سوزانا؟ لدي اعمال انصرف اليها.

- كلك تناقض يا مورغان! امضيت كل هذا الوقت في انتقادي والآن تشكو من انني اضيع عليك وقتك.

- لم اضيع دقيقة واحدة ولا أعد ذلك مضيعة للوقت. رغبت أن اقول ذلك منذ مدة طويلة... في الواقع منذ سنوات.

- هذا لطف منك أن تبصق مزاجك السوداوي من مرارتك. عليك أن تعمل لتهدئته، وآمل انك لن تحتاج لأية مساعدة اليوم، مع انني سأساعدك في الأيام الأخرى بالرغم من كل ذلك. اريد تمضية الوقت مع جدتي وان ارتب المكان وأظن ان المرأة التي تأتي الى هنا تقوم بكل ما يلزم بأحسن ما يمكنها ولكن ليس كأصحاب البيت.

التفت اليها عندما وصل الباب وقال:

- لكن لا تهمليها، لأننا سنحتاج اليها بعد ان ترحلي.

لم تهدأ أعصاب سوزانا، الا بعد نصف ساعة لتواجه جدتها بوجه باسم. شكرت سوزانا ربها على أن هذا الجدل بينهما دار في المطبخ بعد ان نزلا من غرفة كلوتيلد التي عاودها النوم ثانية بعد فطورها. صعدت سوزانا الى الغرفة ولما فتحت الباب لم ترد ان توقظها الا ان جدتها تململت قليلاً وفتحت عينيها. اتت اليها سوزانا وقبلتها وسألتها عما اذا ترغب في البقاء مستلقية.

- كلا يا عزيزتي. لا اريد أن اخسر دقيقة واحدة من هذا اليوم الربيعي الذي منحنا الله اياه. اشعر كما شعر رجل الانجيل عندما عاد ابنه الشاطر بعد غيبة. يجب أن نفعل شيئاً. ان نحتفل. ولكن كيف؟

- لا يا جدتي. لا نريد ان نتعبك برقصنا واحتفالنا. سنترك ذلك ليوم الاحتفال لدى اجتماعنا بأبي وامي. ولكن ماذا تعنين بالابن الشاطر؟ هل انا في نفس وضعه؟

هل شعرت جدتها ايضاً بامتعاض كما شعر مورغان بسبب غيابها الطويل؟ كان على امها ان تطلع جدتها على مرضها بعد شفائها.

ضحكت جدتها وقالت:

- لم افكر في الابن الشاطر ولكن في فرحة الأب بعودة ابنه. كنت دائماً اتمنى عودتك وبقاءك هنا ولكنني كنت أعرف لماذا أطلتِ غيابك في الخارج.

استدارت سوزانا والصينية بين يديها وسألت:

- كنت تعرفين؟ كيف؟ ظننت انك لم تعرفي شيئاً على الاطلاق. هل كشفت بشيء عن هذا لـ...؟

- لا يا حبيبتي. كنت أعرف بعدم رغبتك في العودة خوفاً من أن تكشفي شيئاً عن مكنونات قلبك. ولكن هذا لا يهم الآن. انه يحبك كثيراً. لا يجب أن تشكي في ذلك. صحيح ان المسألة كانت معقدة، ولكن اتركي هذا للزمن... والوقت الذي سيمضي بين الآن ونهاية الاحتفال سيقرب بينكما بعد أن يكون واحدكما قد تعوّد على الآخر. هذا هو السبب في تعجيلي في اقامة الاحتفال بعد خمس سنوات من الجمعية بدل العشر سنوات طبقاً للتقاليد. اعتقد بأن عودتك هذه المرة نهائية وبأنك ستبقين تلك الحفيدة

التي هي أعزّ من كل شيء.

اذن، لا تعرف الجدة شيئاً عن مرض ابنتها وخطورته. تعتقد بأني بقيت بعيدة لأنني لا اتحمل رؤية جون وفرنسواز تحت سقف واحد، وتأمل الآن ان فرصة ثانية قد تتيح لي استرداد سعادتي. آه، لو تعرف المسكينة!

نزلت الجدة من غرفتها وقالت لها بلهجة آمره:

ـ يجب أن ترافقيني في جولة في الحديقة لتبتهجي مثلي بعودة الربيع المدهشة لتفجر براعم النباتات والأشجار فتتفتح عن ألوان قوس القزح بعد الصقيع الذي جمّد كل شيء. الا ترين كيف ان الخالق يخلق العجائب عندما تنشق الأرض ويبرز منها عود اخضر ضعيف قبل أن ينمو ويترعرع ليصبح نبتة تزينها الأزهار؟ أو عندما تراقبين أزرار البراعم على الأشجار تتفتح ثم تتحول الى فاكهة أو ثمرة ما؟ وهذه السنة حدث ما هو أكثر سحراً. هل تذكرين يا سوزانا ما كنت أحبه كثيراً؟

فكرت سوزانا قليلاً ثم فطنت فقالت:

ـ صحيح يا جدتي. قليل من الثلج بعد تفتح البراعم. هذا هو ما يسحرك حقاً. كنت افكر فيك كل ربيع في انكلترا، وهذه السنة اصطحبت صديقة لي وأخذنا القطار الى اوستر لي لأريها البيت التاريخي هناك. وما ان خرجنا من محطة سكة الحديد حتى ابهرنا منظر ازهار «اجاد الثلج» التي تربيتها هنا. كانت بساطاً من الأزرق والأبيض. يسمونها «زنبق الحقلة» في انكلترا.

ـ في البدء قيل لي ان هذه الزنبقة لا تنمو هنا. شككت في ذلك. فزرعتها مستخدمة سماد الخيل ومعتمدة على ايماني وصبري. فنمت وأخذت تزهر سنة بعد أخرى وتدخل البهجة الى قلبي.

وفاجأهم مورغان بصوته وهو يقول:

ـ والذي ساعد على نموها عندما اقترحت حمايتها بنبات الزعرور البري.

قالت سوزانا:

ـ لهذا الزعرور اسماء اخرى.

ـ تتعدد الأسماء حسب المناطق. ولكن معظم التسميات لاتينية ويونانية ومنها ما يشابه لفظها لفظ اسماء الأمراض.

قالت كلوتيلد:

ـ انظروا الى هذا النبات الرمادي الأوراق. كاد الثلج المتأخر يحرقها ولكنها ستنمو بين شجر القصّيب.

وهنا وهناك رأوا اقحوان الشمال يتمايل في هواء الربيع وشقائق النعمان بألوانها القرمزية والأرجوانية. اما كلوتيلد فعلقت على صوت اشجار الصنوبر قائلة:

ـ هذا الصوت عوض عليّ خسارة صوت مياه المحيط في بلدي. ولما شعرت ببعدي عن شاطىء البحر وعن منظر الميناء وبحرماني من النسيم العليل بدأت اتعزى بصوت هذه الأشجار وشكرت الجدة فكتورين، أول امرأة اتت الى هنا وزرعتها شجرة شجرة بينما كان زوجها جيرار يحول التربة الشائكة الى تربة خصبة. فقد جلبت فكتورين معها جزءاً من اكاروا.

ـ ليس فقط جزءاً من اكاروا (قالت سوزانا) بل من نورماندي ايضاً. فشجر الحور الذي اتانا من اكاروا اتى اصلاً من نورماندي حيث أساس نبات ورد بوربون وشجر الجوز الذي نجده في اكاروا. وعندما زرت النورماندي في فرنسا منذ سنتين اقتطفت وردة بوربون وتلهفت الى ورد لارشوود.

ـ واذا صدقت الاسطورة (قال مورغان) واعتقد انها صحيحة، فان شجر الصفصاف ـ ويسمونه في اوروبا الصفصاف النائح أو الباكي ـ اتانا من الشجر المحيط بقبر نابوليون في منفاه في جزيرة القديسة هيلانه. وربما كنت تعلمين يا سوزانا ان الصفصاف الموجود حول آفون في كرايستشرش هو من رجل فرنسي كان يحج الى قبر نابوليون هناك.

لم يدعها شانا هذه المرة لأن مورغان لا يريد أن يُظهر انهما متخاصمان أمام جدتها. تابعوا سيرهم حتى الأمكنة المفضلة لكلوتيلد والى بقعة نبات الخنشار الذي زرعته فكتورين في تجويفة في بطن التل التي اصبحت الآن مغارة تعتبر آية في الجمال الطبيعي حيث تتساقط المياه بأنغام موسيقية، كما زاروا المغارة التي كانت تأوي اليها سوزانا وهي صغيرة والصخرة التي سمتها فكتورين بصخرة برج المراقبة حيث كانت تنتظر عودة زوجها، فكانت كلما رأت الغبار يرتفع في نقطة معينة تعرف انه يتبقى عليه قطع نهر وايماوكو الذي يعني باللهجة المحلية ماء الخنشارة الصغيرة. عادوا ادراجهم الآن الى البيت وافهمت سوزانا مورغان انها جهزت طعام الغداء

في وقت مبكر:

ـ سخنت الحساء الذي لا يضاهي احد جدتي في طبخه وعملت سلطة ملفوف اخضر بالاضافة الى لحم خروف بارد.

ـ احسنت صنعاً. وآمل الا تكوني قد نسيت فن طهو اهل الكيوي او الماؤوريين كما يسميهم البعض بعد أن امضيت وقتاً من الأبهة والترف في الخارج.

ـ انك تتخيل كل ما يجول في خاطرك واقعاً (ردت سوزانا) لماذا لا تتناول شيئاً من صلصة النعنع؟ فهو افضل لمعدتك من الخردل في سنك هذا.

ـ وأنا الذي اهتم بكبدك! تأتي ملاحظاتك متأخرة بعض الشيء. ربما الاثنان معاً.

ـ اي اثنين؟

ـ لا اقصد كبدك وملاحظاتك. اقصد الاخلاص والتمني. الاخلاص من طرفك والتمني من طرفي وهو ان اراك دائماً وديعة. سنشحن انا وداني بعض الحملان بعد الظهر. اتحبين الانضمام الينا؟ لقد كان لحضورك معنا فائدة كبيرة في المرة الأخيرة. هذا اذا رغبت في ذلك، لأن عملية الشحن ليست كعملية «البستنة» أو الطبخ مثلاً.

ـ انك ستذبحها وتقطعها الآن؟ لا احب ان...

ـ كلا. لا نذبحها لأن في ذلك خطر التلوث. اننا فقط نضعها في عربات معدة للنقل ونتركها طليقة طوال مدة شحنها الى الخارج. ومهما يكن من أمر فان نقلها أو حتى لمسها ليس كمثل قطف الأزهار.

ـ لا تكن سخيفاً. كل من تقدمونا في العائلة مزارعون ويستطيعون ذلك. وانه لمن الطبيعي ان اقوم بهذا العمل. هل استطيع ان اتركك يا جدتي؟

ـ طبعاً. وسآتي لكما بالشاي في الثالثة والنصف، لم اتقاعد عن العمل بعد.

العمل في الحقول في شمس الربيع يجلب شعوراً لا يوصف. فهناك رائحة الصوف الذي يعبق به الهواء وأصوات الحملان وهي تثغو وتتراكض في كل اتجاه وهناك الكلاب التي تعوي وتحاول تطويق الحيوانات المنفلتة والأهم من كل هذا الاحساس بالقيام بعمل مضنٍ، بكل رغبة ونشاط.

ولاحظ دان كايرنز ان سوزانا لم تقع في أي ارتباك وانها لم تنسَ تقنية العمل وانها عملت بصورة طبيعية وقدر لها ذلك تشجيعاً ثم قال:

ـ هل ستبقين هنا طويلاً يا مس كاريو؟

ـ عدت لأبقى.

رأت مورغان يضع آلة شد الحلقة على الذنب جانباً ولكنه ترك الأمر لدان ليرّد عليها.

ـ اوه، ستسر الجدة بهذا الخبر الطيب لأنها تعتقد انك اتيت فقط لمساعدتهم في معمعة الجمعية العمومية.

ـ هذا ما دعاني الى التبكير في المجيء مع ستيفاني بعد أن سمعت بعقد الجمعية، مع ان مدة مكوثي في انكلترا لا تنتهي قبل شهر.

وهنا تدخل مورغان قائلاً:

ـ لم تخبريني بذلك يا سوزانا.

ـ لأنك لم تسألني. ينتهي ايجار الشقة هناك بعد شهر وأردت اعطاءهما فرصة البقاء مدة أطول بينما أنا انهي بعض الأعمال المتبقية بعد رحيلهما.

ـ اهناك سبب خاص؟

لحسن حظها لطّف وجود دان كايرنز الجو. قالت:

ـ رأيت ان جدتي تحتاج اليّ اكثر مما يحتاج اليّ والديّ.

لم يجب مورغان. دان هو الذي اجاب:

ـ تبدو جدتك اكثر شباباً. ولكنني اعتقد ان من في سنك يحتاج الى ذويه. كانت أغنيس تذهب اليها أحياناً كثيرة، كما كان والديّ. ولكنك الآن لها بكليتك، وهذا ما تحتاج اليه.

وافقه مورغان بلير، ولكنه تحوّل الى موضوع آخر:

ـ ستكون هناك نقاط مشتركة بينك وبين جون فورستير طالما انه اخذ يتخبط في السياسة. بالفعل ستكونين اكبر عون له اذ لا يوجد من يواكبه من المضيفات.

ـ سيسرني ان اقدم له هذه الخدمة، لكنني قلما أراه هنا.

تناولت حملاً آخر ولكن فكرها كان يعمل بسرعة. هل يحاول مورغان أن يتقرب اليها لشخصها؟ كلا. ليس لشخصها، بل لوادي لارشوود. سترفض محاولته. واندفعت ذكريات السنوات الخمس الماضية في مخيلتها

كالفيضان الجارف.

في ذلك اليوم منذ خمس سنوات جاذفت بكل شيء مقابل سؤال واحد وجواب واحد. فقد طالت مهزلة الخطوبة الصورية اكثر من اللازم وتوقعت أن تنتهي بسؤال من مورغان يطلب فيه يدها فتصبح خطوبة حقيقية ويعبر فيه عن حبه لها. لم تعد تطيق هذا الوضع أو تتحمل فضول الغير وهم يتساءلون عن يوم الزفاف وعن خططها في المستقبل. كانت تتوق الى ذلك اليوم عندما يصارحها مورغان بود ويؤكد لها انها له ولن يتخلى عنها ابداً.

كانا اذ ذاك عائدين من نزهة على ظهور الخيل فتوقفا عند مفترق جيرار ليسقيا الخيل. قالت سوزانا وهي منقبضة بعض الشيء:

ـ اظن ان كل شيء انتهى بيننا يا مورغان. فقد لعبنا دور المهزلة والآن يجب اسدال الستار. إنني اشكرك على تمثيلك الرائع الذي لن يستحسنه احد، بكل اسف. وسيعتبرني الناس بما فيهم انت وجون ابنة متقلبة. لذا عوّلت على الرحيل واللحاق بوالديّ في بانكوك. اشكر الظروف التي جعلت من عمل اهلي عملاً متنقلاً يستطيع المرء فيه أن يقيم علاقات جديدة ويتخلص من جماعات يحاولون توقيع ما يسمونه بسوء تفاهم بين محيين نحن وقعنا فيه. كل واحد بارك هذه الخطوبة وأولهم جدتي المسكينة التي اعتقدت ان خطوبات من هذا النوع تصنعها السماء فقط. كدت افقد صوابي كلما سمعت ذلك. آه، لو كانوا يعرفون فقط.

وانتظرت ثم انتظرت. هل سيتقدم لطلب يدها رسمياً؟ كان مورغان يحدق النظر في الدوائر التي تتكون أثناء شرب الخيل. رفع رأسه وقال:

ـ يقولون ان المتفرجين يتابعون اللعبة باهتمام. اليس هذا صحيحاً؟ قد لا تكون الخطوبة من صنع السماء ولكنها موفقة ومتكاملة. وخطوبتنا ليست خطوبة طبل وزمر وحب جنوني من أول نظرة، بل خطوبة بين رفيقين متعارفين منذ مدة، وآن الأوان لأن اتزوج واستقر. اذواقنا متوافقة في كثير من الأشياء ولنا ثقافتنا وحصلنا على بركة ذوينا. فلم لا يا سوزانا؟

هناك كل شيء في علاقتهما، الا الشيء الجوهري... الحب. طلب يدها ولكن بفتور. لم تسمع عبارة تأكيد لحبه لها أو اصراره على الزواج منها لتصميمه على الا يجعلها تفلت منه وانها يجب أن تتزوجه. لا شيء من هذا

غير كلمة لم لا يا سوزانا؟

وفجأة قالت بصوت يعبر عن عمق احساسها:

ـ لم لا؟ لم لا؟ ذلك لأني لا اتزوج بدون ذرة من الشعور الحقيقي. ولأن المسألة ليست مسألة توافق وتمازج فقط ورضى الأهلين. الزواج اعطاء واستسلام كلي والتزام بين اثنين. لا شيء من هذا بيننا يا مورغان. لذا فان جوابي هو لا، لا، لا!

ساد صمت طويل بينهما قال مورغان بعده:

ـ تكلمت بصراحة ورفضت. هذا كل شيء. ذهبت الأيام التي كان فيها الزواج تأميناً للحياة. آسف لقرارك. فقد ظننت اننا سنسير في طريقنا بالرغم من كل شيء. سأعلم اهلي وجدتك هذا المساء. وتستطيعين انت الخروج من هذا سالمة والذهاب الى ألبنليندن اذا شئت وأن تخبري أهلك بدورك.

وعندما عادت سوزانا تلك الليلة أخبرها بأنهم اسفوا لفسخ خطوبتهما ولكنهم تقبلوه. ثم قال:

ـ لنخرج لبضع دقائق، لتتنشق الهواء الرطب.

عاودها الأمل. مشيا في ضوء البدر على طريق يؤدي الى مرتفع صغير مزروع بشجيرات صنوبر الجنوب من حيث يستطيعان رؤية السهول من ثلاث خيلات حولها. قال بعد أن استقرا:

ـ قد تكونين محقة في رأيك يا سوزانا. فزواج من هذا النوع لا يرضيك. هذا ولم تنسي بعد انفصال جون عنك.

ربما كانت هذه فرصة سانحة لتوضح له ان المسألة بينها وبين جون ليست كما يتصور وانها وجدت انها لم تحب جون. لكنها لم تفعل ذلك لأن مورغان بدهائه سيكشف لها انها تخلت عن جون لأنها وقعت في حب اعظم منه عندما كانا يتصفحان سجلات العائلات، ولكنها لم تبح له بذلك بسبب فتوره في طلب الزواج منها، لأنها لن تستطيع العيش مع رجل تحبه ولا يحبها. ففضلت الافتراق عنه. خلعت خاتم الخطوبة ـ وكان رخواً حول اصبعها، ربما نذيراً بذلك ـ ووضعته في يده. وخاب املها ثانية. فقد توقعت أن يشد على يدها محتجاً على هذا، ولكنه عوضاً عن ذلك قال:

ـ قلت لك يا سوزانا ان الخاتم سيبقى لك عند فسخ الخطوبة

الصورية. لقد كنا رفيقين، ولمن غيرك اهدي خاتماً؟ انه يلائم تماماً عينيك الخضراوين، وحجر الزمرد رمز لشهر ايار، شهر مولدك. اريد منك ان تلبسيه كلما لبست اللون الأخضر لتتذكري ان راعياً من نيوزيلاند حاول جاهداً أن ينقذ فتاة صغيرة من ارتباك كانت فيه وكان يفكر فيها كثيراً في سنوات ماضية.

تذكرت ما قاله لها وهما يختاران خاتم خطوبة تمنى لو انها تحتفظ به الى الأبد.

- سيزين اي فستان تلبسينه فيما بعد.

كان ذلك منذ خمس سنوات!

٤- بينما كان مورغان يحاول ان يغيّر الصورة التي ارتسمت له في مخيلة سوزانا، رنّ جرس التلفون فاذا هي مارتي غريفش.. وحين وصلتها دعوة جون الى لندن قررت السفر دون تردد.

مضى على عودة سوزانا ثمانية أسابيع وكانت أولى أيامها شاقة، اذ لم تطق العيش مع مورغان بلير تحت سقف واحد، وكانت تخشى أن يزل لسانها فتكشف عن هذا الكره. ولكن انشغالها في شؤون المزرعة وفي التحضير الى الاحتفال عوّدها على اعتبار هذا العيش جزءاً من الحياة اليومية.

ويبدو ان عدد الحضور سيكون هائلا لأنهم يخشون أن يكون هذا آخر احتفال تحضره كلوتيلد الوحيدة التي بقيت من الذين عاشروا المستوطنين الأوائل وسمعوا منهم شخصياً عن حياتهم اليومية وشاركوهم في سني الروّاد الأخيرة. ما تزال كلوتيلد تتذكر الأيام العصيبة عندما كانوا يحولون الأراضي الصخرية الى أرض تزرع وتفلح وتنتج. أنها تتذكر المواسم الدسمة والمواسم المقفرة والمبيعات المزدهرة والمبيعات الكاسدة وتتذكر صعوبة المواصلات ومخاطر التنقل والحرمان من الأطباء حين تكون امرأة على وشك الولادة أو يكون طفل فريسة للحمى أو للمرض أو لحادث ما.

ما زال بعضهم يقص حكاية امرأة شجاعة من عائلة هرفنتون بلير التي تملكها اليأس عندما كاد طفلاها يموتان خنقاً بمرض الدفتيريا أو الخناق فانقذت حياة أحدهما بحمله فوق جمر مرشوش بمادة الكبريت الى أن بصق الغشاء الذي كان يخنقه، ولما لم تنجح هذه العملية مع الطفل الثاني وكان بنتاً بعد ليلتين من التجربة الأولى جازفت بحياتها وأجرت لها عملية جراحية بفتح قصبة الرئة وسحب الغشاء اللعين. كانت الأم متأكدة من موت طفلتها بغير العملية الا ان جرأتها الفائقة انقذت حياتها.

www.elromancia.com

ومن أطرف القصص التي تعيدها كلوتيلد على مسامع الحاضرين قصة كرات معجونة بسمن النعاج من صنع فكتورين جدة كلوتيلد وزوجة جيرار لارشوود احد المستوطنين الثلاثة الأوائل.

تكثر الانهار في تلك السهول ويشبه تشابك بعضها مع بعض جدائل الشعر ومعظم قيعانها مفروشة بالحصى وتتفرع منها أقنية تنساب وتتعرج. ولا يجد المرء عادة صعوبة في عبورها ولكن يرتفع منسوب مياهها ويصعب تمييز شواطئها خاصة في الامطار الجارفة أو ذوبان الثلوج على الجبال. وفي مواسم الجفاف تنمو مختلف النباتات حتى بعض أنواع الاشجار المائية.

وفي أحد الأيام وبينما كان جماعة من الشبان يقطعون النهر على ظهور خيولهم فوجئوا بعاصفة رعدية قوية وكان من حسن حظهم ان المياه الجارفة لم تبتلعهم فتمكنوا بجهد بالغ من ان يتسلقوا الى الشاطىء والوصول الى وسط أكبر جزيرة- اذا صح التعبير- في نهر وايماوكو الذي لا تفيض مياهه أبداً.

هدأت العاصفة ولكن ظل تساقط الامطار الغزيرةمستمراً وظلت معها مياه النهر مرتفعة. لم تتعرض الخيول للخطر وكانت ترعى العشب ولكن الشبان احسّوا في اليوم الثاني بالجوع القاتل والبرد القارس وحاول جيرار ومن معه ان يمدوهم بالخبز فكانوا يقذفونهم بالارغفة الا ان الريح كان يحيدها عن طريقها فتسقط في الماء. ولكنه نجح عندما رمى لهم فخذ خروف. ولم يكفهم اللحم مع توالي الأيام واستمرار سقوط الامطار بلا انقطاع.

لم تنقطع فكتورين عن التفكير في ابتكار حيلة ناجحة. عجنت طحيناً بسمن النعاج ثم قطعته كرات ضخمة حشت بعضها بخضرة الكرّاث والباقي بالتفاح وغلتها في الماء، ولكي تزيد من ثقلها لم تضع خميرة في العجين. ولم تنسَ كلوتيلد جيرار وهو يروي هذه القصة ويضحك بملء شدقيه لأن فكتورين صاحبة البصيرة الفرنسية في الطبخ الخفيف طبخت كرات بحجم كرات المدفع الحديدية وقد تعمدت ذلك ليتمكن جيرار من اطلاقها فتصل الى اولئك الشبان الجائعين. بقي جيرار أياماً لا يستطيع حراك ذراعيه بسبب انتفاخ عضلاته وهو يرميها عن بعد كرامي القرص. اما الشبان المحاصرون فقد تلقفوها كالمن النازل من السماء.

ولكي يحموا انفسهم من هطول المطر غير المنقطع بنوا ملاجىء من اغصان الاشجار والحجارة وبعض الاشجار المجتثة حتى اليوم الرابع حين خف المطر وبرزت الشمس فجففوا ثيابهم وخرجوا الى اليابسة في اليوم الخامس وهم يقسمون الا يأكلوا مثل هذه الكرات ما داموا على قيد الحياة.

داومت سوزانا على القيام بأعمال المنزل وبتخزين الكثير من الأكل والحلويات والبسكويت في البرادات وكانت تعمل بهدوء بعيدة عن لسان مورغان الحاد. وكان جون بعيداً في مهمة تجارية في ولنتون. ولكن لم يكن هذا الغياب ليطول كثيراً فعاد جون الى سابق تردده على بيت سوزانا وهذا ما أغاظ مورغان وجعله يعامله في حدود اللياقة المعتدلة.

لم يعر جون جفاء مورغان المخفي انتباهاً واخذت صورته تتبدل في مخيلة سوزانا. فقد كان يتوقّد حيوية عندما يتكلم عن مواضيع سياسية، وتعزو سوزانا ذلك والأسى يحز في قلبها الى ضياع فرنسواز، كما تعزوه الى انغماسه في عمله وفي تعقيدات المال والتجارة كنتيجة لوحدته في مزرعته.

أوت الجدة الى فراشها في ساعة مبكرة قبل ان يعود مورغان بقليل. قالت له سوزانا لدى دخوله البيت:

- تناولت شايا مع بعض البسكويت مع الجدة يا مورغان. هل تريد ان اقدم لك شيئاً؟

- آه، عظيم، فأنا جائع. هل يوجد قليل من الحساء وشيئاً من لحم الدجاج والجبن؟ وأرجو ان تشاركيني، فاني أكره ان آكل وحدي.

هذا هو نوع الحياة التي تحلم بها. جميل ان تستقبله عند عودته من عيادته البيطرية. وتحلم أنهما يتشاركان غرفة واحدة. انتهى مورغان من تناول الحساء وتلذذ بأكل الخبز المقمر. قال:

- اختلفت الأمور منذ وجودك هنا. لم تفكر الجدة في استخدام مدبرة بيت حتى لو وجدت، لأنها تشعر ان المنزل ومسؤولياته تنزلق بين اصابعها. وانت تعرفين ان أية مدبرة قد لا تتناسب وجو البيت. فتدبرنا أمورنا معاً. اما ان نتكلم معاً واما ان يثرثر أحدنا ويسمع الآخر أو نصمت معاً فنضجر، وكانت تساعدنا في العمل المدبرة لوييس ماينز يومين في الأسبوع.

دخل قلب سوزانا احساس بالدفء لدى سماعها هذا ولكنها حذرت نفسها من الانزلاق وراء عواطفها. من السهل الوقوع في فخ التساهل عندما تشعر المرأة بحاجة الرجل اليها فتعمد الى ارضائه لأنها تحبه فتدخل باب الزوجية من الطريق السهل. ويكون هو بذلك قد حصل عليها من دون عناء. تصورت نفسها بين ذراعي رجل تعلم انه لا يحبها بقدر ما يحتاج اليها. وتصورت ان عليها ان تضبط اندفاع حرارتها وتكبح جماح رغباتها الصارخة لانها تعلم انها لن تسمع الرجل الذي يفاجئها بصوت مفعم بالفرح والسعادة كما كانت تسمع والدها يقول لأمها: آه يا مارغريت. كم احبك. لا أدري ما الذي فعلته لأستحق حبك! هذا ما تحب المرأة سماعه وتكراره. لا يكفي ان يحب الرجل المرأة بل كيف يحبها. ويستطيع الرجل ان يعبر عن حبه بشتى أنواع التعابير: يا هرتي الصغيرة، يا شيطانتي، انت سببت لي مرضاً، مرض الحب، ولكني احبك. لتشهد السموات على كلامي وما شابه ذلك.

احمرّ وجهها عندما رفعت عينيها ورأت مورغان ينظر اليها. قال مورغان:

ـ اتعرفين يا سوزانا؟ انك تبدين الآن كما كنت تبدين منذ زمن.

ـ اي زمن؟ منذ خمس عشرة سنة... ام منذ خمس سنين؟

ـ منذ خمس سنين، أيام خطوبتنا. لا. لا تصححي عبارتي... أيام خطوبتنا الظاهرية! ولكني اقسم انك كنت تنسين احياناً أنها ظاهرية، ومظهرك الآن يشبه مظهرك في تلك اللحظات.

ـ لكن لا أعرف شخصياً كيف كنت أبدو.

ـ كنت أنا أيضاً أنسى الخطوبة الصورية ولا أصدق انها صورية. هل كان ينقصك الاحساس لتدركي مدى حاجتي اليك؟ كانت أيام فرح وهناء يا سوزانا. وظننت انها ستدوم. وفجأة لطمتني بقولك بعدم فائدة استمرار علاقتنا. لماذا لم تبقي دائماً في هذا الهناء وهذا الحبور؟

بدأ التفكير في عينيها كأنها تريد ان تسبر غور ذاكرتها لتستعيد وضعها في تلك السنوات الخمس. قالت بنزاهة وبغير تهرب:

ـ اعتقد بانني شعرت بوجود خطر في الاطمئنان الى هذا النوع من العلاقة بيننا، وبأن الزواج بحاجة الى أكثر من ذلك. قد نصل الى السمو

الذي وصله أهلي وأهلك وما زالوا فيه على ما أظن.

هذه المرة حوّل مورغان نظره عنها، ثم قال:

ـ خشيت من وجود خطر فيه؟ أي خطر بالتحديد..؟

ـ اذا شعرت بانك لم تصل الى حد التسامي في الحب، فقد يأتي يوم تشعر فيه انك خدعت نفسك، خاصة اذا كان الشخص الذي تتمنى ان تصل معه الى اسمى الدرجات هو من نوعٍ آخر!

ـ لم يبق لي ما أقوله... آسف.

فجأة بان ذلك الوجه الجميل السموح. وبدا فيه غول يُشير الى ان كلامها ترك فيه تأثيراً كبيراً. دهشت سوزانا لذلك. كانت في الماضي تغتاظ منه فلا تشفق عليه. هل ان ما قالته جعله يشعر بنقص ما؟ يقارب عمره الاربعين وما زال عازباً. قالت:

ـ أحاول يا مورغان ان اكون نزيهة تجاهك وربما... اهتتك بمحاولتي. لكن صدقني. لم اقصد ذلك. اردت فقط ان احلل الوضع. هذا ما اشعر به ولا استطيع تغيير هذا الشعور. ليتني كنت من نوع آخر لسهل الأمر كثيراً، لكن...

أومأ برأسه ورأت في عينيه الكستنائيتين نظرة عطف واشفاق. وقف واقترب منها مختصراً المسافة التي أبعدت بينهما طوال تلك الفترة. أحسّت بالدفء وعادت بذاكرتها الى الوراء. كان منظرهما جميلاً كعروسين يزيحان الغيوم التي تلبدت في سمائهما لسنواتٍ طويلة.

وضع يديه على صدره. ثم قال:

ـ اشكرك يا سوزانا كاريو لنزاهتك البريئة مع انني اجد صعوبة في استيعاب نظريتك سابقاً وحاضراً. قولك جميل ولكن تطبيقي له لن يقنعك.

اعتقدت ان جوابه كان مجرد سلوى أو تعزية لها ولكنها فوجئت عندما أخذت الكلمات تتعثر بين شفتيه محاولاً ان يجد العبارة التي تبدّد ظنّها.

لم تتحرك لتتذوق حلاوة هذه اللحظة ولما ارادت ان تبتعد بوجهها لم تستطع لأنه حرّك رأسه، منحنياً بعض الشيء ليواجه عينيها الحائرتين. احست بأنه كان يرتجف قليلا واعتبرت هذه الرعشة تجاوباً لعواطفها. رفعت نظرها اليه ورأت في عينيه استفهاماً ينتظر جواباً وكأنها وقعت تحت

تأثير مغناطيسي فسمعت نفسها تقول:

- نعم. ماذا؟

ضحك وقال بدوره:

- أنا الذي كنت سألقي السؤال نفسه... والآن ماذا؟

قالت ممسكة بأنفاسها:

- ماذا تعني؟

- ألم تكن هذه اللحظة جميلة؟ الا نستطيع أن نسمو بنفسينا اذا منح كل منا الآخر الفرصة لتهيئة ذلك؟ أبحث عن كلمة تعبر عن فكري، عن كلمة تعني التقارب بين اثنين. آه، ها هي، «الانسجام الكلي» فلماذا لا نتقارب وننبذ مواقف العداء يا سوزانا؟ يقولون ان العواطف الجياشة تتمدد. أتريدين ان تحرقك العواطف أو أن تكوني نجمة تدور في دوامة في مسارها؟ أو تفضلين العواطف العنيفة التي يتحدثون عنها في الكتب؟

أجابت وهي ترتعش قليلا وبدون قناعة:

- لا أظن انني استطيع ان أقبل بأقل من ذلك يا مورغان.

لاحظ ترددها فاقترب منها... وفجأة قرع جرس التلفون.

- يا الهي! (قال مورغان) هل يجب ان اردّ عليه. من المؤكد ان الرقم خطأ كما يحدث في معظم الاحيان، خاصة في هذه الساعة المتأخرة.

- اظن أنه عليك ان ترد (قالت سوزانا) قد يكون أبي أو أمي من كندا. الوقت قريب نصف الليل. حسناً. سأجيب أنا.

كانت المتكلمة في الطرف الآخر مارتي غريفيش:

- اني مسرورة يا سوزانا أنك لم تأوي الى الفراش بعد. هل مورغان موجود ام ذهب لينام؟ أظن انني فقدت جزداني، أو اني نسيته في سيارته. هل يستطيع أن يتأكد من ذلك؟

كانت سوزانا تنظر الى الحائط وهي تتكلم فلم يلاحظ مورغان شحوب وجهها. الا انها استعادت رباطة جأشها وقالت:

- ما زال ساهراً يا مارتي، وآمل أن يكون جزدانك في السيارة. سيذهب مورغان ليفتش عنه (والتفتت الى مورغان وقالت) تقول مارتي انها ربما نسيت جزدانها في سيارتك. تأكد من ذلك.

تابعت سوزانا حديثها مع مارتي حتى عودة مورغان. ودار حديث قصير

بينهما عن فقدان الاشياء وخاصة النقود. قالت مارتي:

- كنت في تيمارو عندما اقترب مني جماعة وطلبوا هبة فأعطيتهم شكاً، وكنت مع عائلة وسلر أريهم صور أولادي ولكني لا أتذكر كيف فقدته، ربما اضعته في تيمارو ام نسيته في السيارة عندما أعادني مورغان الى البيت.

عاد مورغان والجزدان في يده. قالت سوزانا:

- الجزدان هنا. تكلمي مع مورغان. طابت ليلتك يا مارتي.

مدت السماعة اليه وانسحبت من الغرفة دون ان تنبث بكلمة وصعدت الى غرفتها. بقيت مستيقظة في الظلام مدة طويلة. قرع على بابها وناداها بصوت خافت كيلا يوقظ جدتها في الغرفة المقابلة ولكنها لم تجب. لم يشك في أنها لم تكن نائمة لأن الجميع كانوا يعرفون انها سريعة النوم.

لا تفهم مورغان ابداً ويزعجها جداً ان يبدو لها انه لا يستطيع الابتعاد عن مارتي. بقيت هكذا حتى الثالثة صباحاً واستنتجت ان الحب غير المتبادل اي الحب من طرف واحد لن يكتب له الحياة. فانه يذبل ويموت لأن الطرف الآخر لا يغذيه بحب مقابل. ربّت حبها لمورغان وغذته خلال خمس سنوات من طرفها هي فقط. وستقتله الآن نهائياً. في مورغان سحر قوي انتزع منها كل سلاح المقاومة وجعلها تتقبل ان العاطفة وان كانت فاترة فانها تكفي لتغذية زواج يباركه الجميع ويقدم لمورغان على طبق من الفضة عقارات وأملاكاً مثل تلك التي تديرها اخته وزوجها برينت. تدفعه جرأته ليأتي الى سوزانا من عند مارتي ليقنعها بأنهما يستطيعان بدء حياة مستقرة. ان فيليب غريفيش احمق او اعمى بالتأكيد! جلست سوزانا في سريرها وضربت الوسادة بيدها غيظاً ثم ارتمت ثانية ونامت كالاطفال.

ابدت سوزانا في صباح اليوم التالي شيئاً من الفتور ولكن مورغان لم يبال به. وربما لم يلاحظ ذلك لانهماكه بتحضير فطور الجدة التي فضلت ان تتناوله معهما.

قالت كلوتيلد:

- أريد ان اسمع عن اجتماع الليلة الماضية وعن التوصيات التي سيقدمها فرعنا من الحزب الوطني للحكومة بخصوص أسعار الحنطة والمساعدات المالية المتعلقة بالسماد الكيماوي.

هكذا اذن. كان هناك اجتماع ومارتي رافقت مورغان اليه. من

السخافة ان يذهب مورغان الى بيت مارتي ليصطحبها الى المؤتمر فيما وادي لارشوود حيث يقطن مورغان وسوزانا مع الجدة اقرب بكثير لتيمارو (مكان المؤتمر). فلو اتت مارتي الى مورغان لكان وفر كمية لا بأس بها من البنزين. ولكن هذه الطريقة تطيل مدة رفقته بمارتي. ومهما يكن من امر فان سوزانا توقفت عن حب مورغان في تمام الساعة الثالثة صباحاً.

دار حديث كلوتيلد ومورغان طيلة مدة وجبة الافطار حول الاسعار والسوق. واذهلت حدة ذكاء كلوتيلد سوزانا ومقدرتها على تفهم الأمور التجارية والخوض في تفاصيلها بدون ان تدخل في المقارنة بين أيام زمان الهادئة الرصينة وهذه الأيام العصرية الكثيرة التعقيد. وفجأة قالت موجهة كلامها الى سوزانا:

ـ تبدو ملامحك متعبة يا حلوتي. الم تنامي جيداً؟

ـ بل نمت تماماً. لقد نمت نوماً عميقاً. ذلك يحدث احياناً، وكنت اجد صعوبة في فتح عيني. ولن ارافقك اليوم الى الخارج يا مورغان. لدي بعض الاعمال هنا كتصنيف المربيات في العنبر والكشف على معلبات الفواكه، ولأنني اذا خرجتُ في هذا الطقس الجميل فلن أعود باكراً.

ـ هذا يؤسفني يا سوزانا. كنت خططت لاصطحبك الى هافوي كريك لنكشف على الاسياج هناك. انك لم تزوري المكان بعد حيث حولنا مجرى ماء الشرم لريّ قطعتي أرض لوالدي.

ـ سأزورها في المرة القادمة.

لم تخف سوزانا قلة اكتراثها له عندما تكلمت واراد ان يقول شيئاً لو ان جرس التلفون لم يقرع.

اجاب مورغان ثم قال:

ـ انه لك يا سوزانا. طلب شخصي خاص من ولنتون... السيد جون فورستير يطلب المس كاريو.

رحبت بهذا التحول في الجو وسرت لسماع صوت جون الجميل الذي قال لها:

ـ كيف انت يا سوزانا. كلا، لا أريد منك شيئاً في الكورج. عندي مفاجأة لك. أحزري من معي هنا في ولنتون حيث سيمضيان ثلاثة أيام... ميرابيل ودونالد ستتنغز من لندن ويتوقان لرؤيتك قبل ان يتابعا

سفرهما الى كانبرا. قالا انهما كانا في النروج ولم يودعاك عندما تركت لندن. وعدتهما بأنني استطيع اقناعك بأن تأتي لتجتمعي بهما. ما قولك في ذلك؟ ان رحلتك بالطائرة الى هيروود لا تدوم أكثر من ساعتين، وتستطيعين البقاء معهما ساعتين كاملتين بعد الظهر، وسألقاك في رونغتاي. سيقام لهما استقبال رسمي ويمكنني ان أدبر بطاقة دعوة لك. حضورك يعني الكثير لهما... ولي أيضاً.

التفتت سوزانا الى جدتها ومورغان وعيناها تتلألأن حبوراً وقالت:

ـ اثنان من اعز اصدقائنا من لندن موجودان الآن في ولنتون. وسيقام لهما حفل استقبال هذا المساء ويرغب جون في اصطحابي الى الحفلة. عليّ ان أسافر في أول طائرة الى هناك. ثلاثة أيام فقط. هل من مانع يا جدتي؟

ـ طبعاً لا يا حبيبتي. انت حرة تماماً، فلا تضيعي وقتك.

قال مورغان بصوت جاف:

ـ آسف لعدم تمكني من اصطحابك الى كرايستشرش، ولكن يمكنك ان تأخذي سيارة الهنتر. اتركيها في المطار احتياطاً لرجوعك، لأنني لا استطيع التضحية بهذا الجزء الكبير من يومي لمرافقتك الى المطار.

ولكنه كرس جزءاً كبيراً في الليلة الماضية لاصطحاب مارتي الى تيماروا تعرف ان انتقادها هذا ليس منصفاً لأن الوقت الذي ضحى به كان ليلا وبعد انتهاء اعماله. صعدت السلّم وهي تغني: آه، ما أجمله صباحاً، ما أجمله نهاراً... وأملت ان يكون مورغان قد سمعها وفهم مغزى كلامها.

وفيما هي ترتب فراشها سمعته يمشي في الباحة وهو يصفر. تنصتت لتعرف نغمة صفيره فتملكها الغضب. كان صفيره أغنية: اصفر أيها الصبي وسآتيك حالا. هذه رسالة ردّ على رسالتها.

نزلت السلم في طقم أخضر أنيق له ياقة بيضاء، سلسلة ذهبية حول عنقها وزوج أحذية أخضر زمرّدي وجزدان بلون ينسجم مع هذا التماوج الأخضر.

ـ ورثت ذوق أمك في الملبس حتى في استعمال الثياب القطنية الخشنة في عملك في العنبر.

ـ يا جدتي العزيزة. تعرفين. كوني عاقلة في اثناء غيابي. أنا أتركك مرغمة ولكنني أتشوق لرؤية عائلة ستتنغز.

وجدت سوزانا السيارة جاهزة ومحركها دائراً. ولم تتمالك نفسها من الاحساس بالانجذاب نحو مورغان الذي كان ينتظرها. ولفتت نظرها خطوط شقراء في شعره وشعيرات بيضاء في رموشه وحاجبيه.

وضع حقيبتها على المقعد الخلفي وفتح لها الباب الأمامي وقال لها بعد ان احتلت مكانها أمام المقود:

ـ ليتك لا تذهبين يا سوزانا. اعتقدت الليلة الماضية أننا كدنا نتفاهم أكثر من ذي قبل. لا تجعلي من رحلتك هذه عائقاً في طريق هذا التقارب.

تظاهرت بالدهشة كما لو أنها لم تدرك ما يرمي اليه وقالت:

ـ لا تعتمد على ذلك كثيراً. كان ذلك نزوة عابرة فقط يا مورغان. الأمور يختلف شكلها في ضوء النهار.

لم تهدأ اعصابها الا في نهاية المسافة الى كرايستشرش تقريباً. تغير كل شيء عن ذي قبل. فآل بلير سينسحبون الى بلدة ليندن بيكس عما قريب وسينتقل برينت وستيفاني مورلي الى المزرعة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يدير مورغان املاك وادي لارشوود نيابة عن كلوتيلد... وتفضل سوزانا شخصاً آخر لادارة هذه الاملاك. وفي وقت قريب سيخرج جون فورستير من عالم الزراعة ليدخل عالم السياسة. كل هذه التقلبات غير العادية دفعت بكلوتيلد للدعوة الى جمعية عمومية خارج أوانها. بعد ذلك... الطوفان!

لا تفهم سوزانا كيف يقبل جون بالتخلي عن الكورج. هل يئس من العمل الزراعي بعد ان فقد فرنسواز؟ هل سيختلف حاله ويعود الى رشده لو تزوج ثانية وأصبح له أولاد يحملون اسمه ويثابرون على العمل على أرض اجدادهم الذين جعلوا من الحجارة والبوار والصخور أرضاً خصبة؟ صحيح ان الزراعة لم تعد تجلب الثروة لصاحبها مع تقلبات الأسواق العالمية والتضخم المالي ونكبات الطبيعة. ومع ذلك فقد نجح مورغان في الحفاظ على مركب لارشوود سليماً. هل بدأ مركب جون يغوص بعد موت فرنسواز؟ أو ان هذا ما أراد مورغان ان تعتقده سوزانا؟

وما كادت الطائرة ترتفع بسوزانا حتى عادت الى مزاجها الطبيعي واستعادت ثقتها الرفيعة بنفسها. وسرعان ما هبطت بها الطائرة في ولنتون. ولم تجد صعوبة في تمييز جون في صفوف المنتظرين مرتدياً طقماً قاتماً. مد لها

يدين مرحبتين فتقدمت نحوه فاستقبلها بقوله:

ـ مدهش، مدهش حقاً يا عزيزتي. لا أصدق هذا الحظ وأية سعادة تمنحنا سرعة السفر بالطيران. كنت مرهقاً الليلة الماضية ـ اجتماع تلو آخر، مقابلات، مناقشات. ثم أتى آل ستنغز وسألوني عن مكان سكني وحين عرفوا بالتجاور مع أرضكم سألوني اذا كنت أعرفك. أوشكت أن أقول أني لا أعرفك فقط بل كدت أتزوجك، ولكني قلت لهما بدلا من ذلك ان مزرعتي مجاورة لمزرعة جدتك، وأكدت لهما أني استطيع اقناعك بالمجيء الى هنا اذا رغبا في ذلك.

ـ اني أحب هذه العائلة. عندما مرضت أمي ضحت ميرابيل بمعظم وقتها معتنية بها كأحسن الممرضات وشاركتنا السهر عليها، بينما كان زوجها دونالد يرافق والدي في نزهات ليرفه عنه.

رافقها جون الى غرفة الانتظار وقال مندهشاً:

ـ كيف لم يخبرني أحد بمرض أمك؟

ـ لأننا أخفينا هذا الأمر عن جدتي خشية أن تصر على السفر لتبقى بجانب ابنتها فيؤثر ذلك على صحتها، ولن نطلعها على هذا الخبر قبل مجيء أمي الى الاحتفال فتتأكد من صحة ابنتها عيناً. هذا كان سبب عدم مجيئنا لزيارتها كل هذه المدة مع أننا كنا نعرف انها متضايقة من ذلك.

نظر اليها بعينيه السوداوين وقال:

ـ اعتقدت جدتك بأن سبب اطالة غيابك هي تلك الفترة التي مرت بك، وتركت فيك آثاراً مؤلمة منذ خمس سنوات. وأنا شخصياً أملت في انك ندمت لتخليك عني ولذا عوّلت حينها على الذهاب الى انكلترا لأراك هناك ولكنني عدتُ وعدلت عن ذلك عندما سمعت بمجيئك.

ـ في أية ظروف قالت جدتي ذلك؟

ـ عندما مرضت بالنزلة الصدرية. تذمر مورغان قائلا انه يتوجب عليك ان تأتي حتى لو لم تأتِ أمك. ولكن جدتك عنفته تعنيفاً شديداً كالنمرة التي تدافع عن صغارها. لم تكن لتسمح لأي كان ان يوجه لك انتقاداً من نوع أو آخر، مؤكدة انك رقيقة، عطوفة، لا تستطيعين ان تعودي الى البيت لئلا تقعي في طيش الشباب مرة أخرى، وان عزة نفسك وكرامتك هما أروع ما تمتلكينه. عندها حدثت نفسي بالذهاب اليك ولكنك اتيت الي. أعرف

يا سوزانا ان هذا المكان لا يليق بحديث خاص بيننا ولكن لا تواتينا فرص كثيرة نكون فيها وحدنا لمدة طويلة. آوه، أنظري من القادم... وزير الزراعة، انه مهم بالنسبة لي ولا أستطيع التظاهر بأنني لم أره.

سرّها مجيء الوزير لأنه قطع الحديث على جون الذي يتسرع في الأمور التي تتعلق بها بالاضافة الى أنها كانت ترغب في التعرف على الوزير الذي كثيراً ما تحدث والدها عنه.

فرحت فرحاً عظيماً بلقاء ميرابيل ودونالد. والتقت بعدد كبير من الناس في حفلة الاستقبال تعرفت عليهم اثناء وجودها في لندن، هذا عدا رئيس الوزراء وزعيم المعارضة ومندوباً سامياً سابقاً تكن له تقديراً كبيراً ولو انه ليس عضواً في الحزب الذي تفضله. أما جون فقد كان يراقبها باعجاب وتقدير.

بعد الحفلة رافقا آل ستننغز الى شقتهما لتناول فنجان من الشاي وبعض الساندويتشات ثم أوصل جون سوزانا الى غرفتها في طابق تحتهما وقال مبتسماً:

- اني مسرور برحيل آل ستننغز الى كانبرا بعد ست وثلاثين ساعة وببقائك هنا حتى ذهابي الى المزرعة في نهاية الاسبوع. فقد نتمكن من استئناف الحديث.

أومأت برأسها ولكنها قالت:

- لكن هذا لن يؤدي بنا الى اي هدف لأنني لا أريد أن أرتبط بأحد. أنا أشكرك. وأريد فقط الاستمتاع بوجودي هنا.

- سأنتظر الوقت المناسب. طابت ليلتك يا عزيزتي.

ردّت عليه بلطف وتهذيب ظاهرين فاقترب منها قائلاً:

سنكتفي بهذا الآن ولكن لا تتصوري انك ستتوقفين عند هذا الحد.

دخلت سوزانا غرفتها وجلست على سريرها وأخذت تنظر في الفضاء. تمتعت بهذه الأمسية التي التقت فيها بعالم تعرفه جيداً... ولكن على بعد مئات من الأميال الى الجنوب هناك عالمها الحقيقي... بين تلك الجبال... عالمها الذي تحبه.

٥ـ شعرت سوزانا أنها تمنت هذه المنافسة بين الرجلين، وتمنّت لو تجد رجلاً ثالثاً يثير اهتمامها ويخرجها من هذا العالم الضيّق..

استمتعت سوزانا كثيراً بالوقت المتبقي لديها في ولنتون، هذه العاصمة التي تتلألأ بهجة عندما تكون الرياح العاصفة خامدة. لم تكن المدينة بحد ذاتها شيئاً جديداً بالنسبة اليها وهي التي الفت مدناً مماثلة أو أجمل منها في حياتها في الأوساط الدبلوماسية ولكن بالرغم من قناعتها بأنها ابنة الارض لا المدن فانها لا تعزو تجدّد قريحتها وحيويتها للأمكنة بذاتها بل لوجودها قريبة من الاشخاص الذين تحبهم. ولقد كانت تشعر بقدر كبير من الاعتزاز حين كان يطلب اليها القيام ببعض المهام أو ابداء رأيها في بعض المسائل أو حتى الظهور على شاشة التلفزيون بصفتها سكرتيرة والدها المكلف بمهام دبلوماسية تجارية والمطلع على الاوضاع الدولية.

أتت نهاية الاسبوع فاستقل جون وسوزانا الطائرة الى هيروود حيث كانت سيارة كل منهما في انتظاره، وأسف جون لأنه كان عليه ان يفترق عنها هنا ليعود الى مكان عمله، واغتاظت سوزانا لهذا الظرف المشاكس لأنها فضلت لو رافقها الى بيتها. وما كادت الطائرة تحط وينزلا منها حتى استدعي جون وقيل له أن أحدهم صدم سيارته من الخلف في الصباح ونقلت الى المشغل للتصليح. لم يثر الحادث قلق جون حين قالت له سوزانا على الفور:

- من حسن الحظ انني هنا لاصطحبك يا جون.

وأجاب جون وهما يخرجان:

- سنتناول طعام الغداء في مطعم وايت هاوس عند مفترق سلوين. هل أنت في عجلة لتعودي الى البيت؟

www.elromancia.com

- كلا. لماذا؟

- لأني أريد مقابلة المستر لافيل في ماتا فلات لأقدم له تفصيلات عن اجتماع مجلس الحبوب الذي لم يستطع حضوره. بيته بالقرب من الساحل في منطقة راكايا. هذا المكان كان سابقاً كله مستنقعات مثل لونغ بيتش وبعد تجفيفه أصبح أرضاً خصبة.

اقتربا من جسر سلوين وتمهلا في السوق ليدخلا موقف السيارات أمام المطعم ومرت بهما سيارة ستايشن فيها شخصان لم يريا جون وسوزانا لانهما كانا ينظران الى الناحية الاخرى اما جون وسوزانا فقد رأياهما! انه مورغان مرتدياً لباساً رسمياً وبجانبه امرأة ذات شعر نحاسيّ لامع ترتدي ثوباً أزرق أنيقاً... مارتي غريفيش! شهقت سوزانا ولكنها أسفت لأنها فضحت نفسها أمام جون. قال جون:

- آه، كعادته، في رفقة الفاتنة مارتي فيما زوجها موجود في اوستراليا. (وأضاف) آسف لاظهار نفسي بمظهر الفاضل المستقيم، لكن هذا الرجل يثير غيظي احياناً. معظم الشبان الذين تتخلى عنهم فتاة ما يبحثون عن أخرى مثلما فعلت أنا، لكن مورغان ما يزال متعلقاً بأذيال مارتي.

- يستحيل علي أن أصدق ان شيئاً كهذا يصدر عن مورغان أو مارتي... مورغان الذي كنا نعرفه باستقامته مع الجميع والمعروف بأمانته المثالية في ادارة المزرعة. كل حساباته يراقبها محاسب دقيق وكل أعماله مدونة وبالاضافة الى ذلك فان المزرعة شقت طريقها بنجاح رغم تقلبات السوق في السنوات الأخيرة.

- انني أكره ان أذم انساناً او أشي به. وقد عرفته كل حياتي يا سوزانا.

- تابع كلامك يا جون. لا تتوقف عند هذا فقط. دعني أقف على بيّنة من أمره.

- أظن انه يتوجب عليّ ان اطلعك على بعض الأمور وذلك لصالحك وصالح والدتك.

- لصالح والدتي؟ ألأنها الوريثة الاولى لأملاك جدتي الشاسعة؟ لا أصدق ان مورغان يقوم ببعض الحيل أو التلاعبات.

- لا أقول انه يتلاعب بالحسابات أو بشيء مثل هذا، ولكن ما أعنيه هو أنه من غير المعقول ان يتقاضى رجل راتباً ويقوم ببعض الترتيبات لينال

حصة في العقارات. افتحي عينيك يا سوزانا وراقبي كل شيء. اصري على ان تكوني حاضرة كلما اتى مستشار والدتك القانوني الذي هو مستشار مورغان في الوقت نفسه، وهكذا تستطيعين ان تسهري على مصالح والدتك. وقد حُوّل لك والدتك بعضاً من حصصها بدلاً من ان تنقلها إليك كلها، ولكن المسألة تنحصر كلياً في المراقبة. قلت ما فيه الكفاية، ولقد اعذر من انذر. ولننس الآن مورغان بلير ولنهتم بأنفسنا.

لم تندفع سوزانا في الدفاع عن مورغان لأنها متيقنة من ان كل ذلك لا يقوم على أساس من الصحة. تناولا طعام غداء لذيذ ثم اخذا طريقهما الى ماتا فلات.

وجدت سوزانا مزرعة لافيل الجميلة والمستر والمسز لافيل الظريفين. واعتقدت ان المسز لافيل كانت تتنقل بنظرها بينها وبين جون، وتركت المرأتان الرجلين يتبادلان حديث الاعمال وقامتا بجولة في الحديقة التي تعتني بها المسز لافيل شخصياً، ثم عادتا لتناول شاي بعد الظهر.

فكرت سوزانا كثيراً في تشهير جون بمورغان وهما عائدان الى البيت. وصممت ان تقوم بتحرياتها بتكتم كيلا تثير شكوك أحد. حتى جون لا يجب ان يعرف أنها تشكّك في أي شيء. ولكنها أرادت ان توجه له سؤالا شخصياً يتعلق بمزرعته وقد شجعها على ذلك طريقته في الكلام، فقد كان واضحاً وصريحاً في حديثه مع المستر لافيل عن الصوف والاسعار والمساعدات الحكومية والتكاليف وحالة الاسواق العالمية والتصدير. قالت:

- كيف تدبرت امورك في الكورج في السنوات العصيبة؟

- ليس تماماً يا سوزانا. كغيري من الناس. ان سنوات الخير والازدهار التي تمتع بها جيل والدي في الخمسينات ولت. وكنت أستطيع ان اكون في حال أفضل بكثير لو كانت لي خبرة غيري من المزارعين.

- لا أفهم ما تعنيه يا جون. أو ربما لا يجب ان اسأل؟

- انت من يجب ان يعرف. فقد اصبت بنكسات. لن أدخل في التفاصيل ولكن عندما عزمت على تقوية مركزي وبالتالي ايجاد حماية لابنائي لا تعتمد على نزوات وتقلبات الزراعة، استثمرت بعض المال بدون أن أعرف ان عملي لم يكن حكيماً. فخسرنا رأس المال والفائدة أنا ومن جازف

معي. ووقعت فرنسواز في المرض بعد ذلك وكلفني الكثير لتأمين أفضل عناية لها. ولم تكن حصة الضمان الاجتماعي في المصاريف ذات قيمة. ومما زاد الطين بلة كارثة الفيضان، واعطتنا الارض نتاجاً عوض علينا بعض الشيء، ولأول مرة تغرق مزرعة الكورج في الديون وترهن، ولكني سأخرج من هذا المأزق. لم اغرق بعد، فما زال رأسي موجوداً فوق سطح الماء، ولا يقلقني هذا. اردت اطلاعك على وضعي منذ مدة ولكن لم تسنح لي الفرص المناسبة ولم أرد ان اشغل بالك، ولكنني اكره ان أعطي المرأة انطباعات خاطئة وبعيدة عن الحقيقة.

. وقعت سوزانا في حيرة. رغبت في ان تواسيه ولكنها خافت ان يفسر نياتها خطأ لمجرد أنها امرأة. قالت:

- اعتقد يا جون بانني عكّرت عليك حياتك منذ خمس سنوات كما عكرتها على مورغان. كانت المسائل كثيرة التعقيد، واصبحت الآن لا أثق في منطقي... أريد الآن ان أكون مع جدتي فقط. ويؤلمني أن تكون مزرعة الكورج عبئاً عليك. أجدادنا أيضاً واجهوا رهونات يائسة ولكنهم نفذوا منها بأمان. سأنتظر نهاية الجمعية العمومية لأفكر في أموري، وحتى ذلك الحين أرجو ان نظل صديقين لمصلحة جدتي.

- حسناً يا رفيقتي. (ربّت على ركبتها وقال) أشعر باطمئنان كبير بعد ان حذرتك من مورغان. هل تعنفيني على ذلك؟ انت احببته حباً كبيراً منذ خمس سنوات وذهبت آمالي في التزوج منك هباء. أصبحت أكبر سناً الآن وأكثر ادراكاً للأمور... ولذا اعرفي مجرى عواطفك. آه، يا سوزانا. يؤلمني عيشك معه تحت سقف واحد.

- هذا لا يعني شيئاً على الاطلاق! (ضحكت سوزانا تلطيفاً للجو وقالت) تلقانا نتشاجر في معظم الاوقات. ولا يكف عن مشاكستي لأنني لم أعد الى جدتي من لندن في وقت مبكر، نفذ صبري ولم اكشف له سبب اطالة بقائي هناك. كل ما يهمني الآن هو البقاء في احضان جدتي ولا أريد الارتباط عاطفياً بأي كان. ها قد وصلنا الى بيتك. اعذرني اذا تابعت مسيرتي لأني لا أحب ان تنتظر الجدة أكثر من ذلك.

دخلت سوزانا باحة البيت ولكنها فوجئت بوجود سيارة الستايشن وبجانبها صندوقان صغيران يغطيهما معطفان من المشمع يبدوان كمعاطف

أولاد المدارس. كيف عاد مورغان قبلها؟ ولمن يا ترى هذان الصندوقان؟

عندما وصلت الى الباب الخلفي برز منه شخصان صغيران مندفعين خارجاً. بنتان. وعرفت هويتهما من شعرهما النحاسي. انهما دوروثي وروبيرتا بنتا مارتي. كان عمر الأولى سبع سنوات والثانية خمساً عندما رحلت الى انكلترا، واصبحتا الآن ابنتي اثنتي عشرة سنة وعشر سنوات.

- أوه (قالت دوروثي) طلب الينا مورغان ان ندخل الصندوقين ولكننا نسينا، وعندما سمعناك خشينا ان تحطميهما بسيارتك. كيف انت يا سوزانا؟ منذ مدة طويلة لم نرك.

- أهلا بالفتاتين الجميلتين.

قالت روبيرتا:

- كثيراً ما يتكلم مورغان عنك لوالدتي. ما أفخر طقمك! من باريس؟

- كلا، يا حملي الصغير، من لندن. كيف انتما هنا؟ رأيت...

فضلت الا تتابع وتقول انها رأت امهما مع مورغان متجهين نحو المدينة.

لم تفهما معنى كلامها بل قالتا باندفاع وحيوية:

- سنبقى هنا وسيبقى اخوانا ريشار وبيتر في بيت غراهام ورونا العريسين ليساعدا غراهام في أعمال المزرعة بعد المدرسة. وقال مورغان انه يستطيع ان يراقبنا لأنك هنا. لا تخافي فقد روّضتنا امنا التي تقول انه يمكنك الاستغناء عن القيثارة أو لعبة الكابير أو الرسم أو النسيج اذ ان على المرأة ان تكون ماهرة في غسل أواني المطبخ والخبز وفرك أرضيات الغرف وما شابه. نأمل انك لا تمانعين يا سوزانا. وسنحاول الا نتسبب لك في أي ضجر... ووعدنا مورغان بذلك، ولكن نأمل أيضاً انك تحبين المحادثة.

- كلا... أوه، أحب الحديث ولا أبالي اذا بقيتما هنا مدة من الزمن. أحب عشرة الاناث خاصة اذا كنتما تحبان الضحك ولكن...

- آه، نحب الضحك. ووالدنا يقول انه لم يفعل شيئاً سيئاً حتى يبتلي بثلاث اناث لا ينقطعن عن الضحك المزعج، أي نحن الاثنتان ووالدتنا. ويلقبنا والدي بالمثرثرات والمقهقهات. ويعجبنا ان تكوني مثلنا. ونكره الاشخاص الذين لا يرون الجانب الباسم من الأمور من الأشياء البشعة والا يتجاوب الناس مع دعابة أو نكتة.

- إذن فيّ شيء حسن، (قالت سوزانا) لأنني أرتمي على الأرض

من الضحك حتى لو سمعت نكتة عن بعد عشرين ميلا. ولكن قولا لي...

ولكن البنتين قاطعتاها بضحكتهما لأنهما اعتبرتا كلماتها هذه نكتة ملوكية، ولذا لم تتمكن من سؤالهما عن سبب وجودهما في بيتها. وفجأة دخل مورغان عليهن.

- لا تتعبي نفسك يا سوزانا لمعرفة الجواب (قال مورغان) انهما هنا لان والدتهما في الطائرة الآن في طريقها الى بحر تازمان لتنضم الى فيليب. فقد مددوا اقامته هناك وكنت في بيتها عندما خابرها تلفونياً، وكان وجودي هناك خيراً لغراهام الذي عرف واتصل بي كي انقذ نعجة سببت له بعض المتاعب. ومن جملة ما أضافوا على أعماله جولة مدتها أربعة أيام في منطقة غريت باريير ريف وهذه فرصة العمر بالنسبة له. صحيح ان فيليب ومارتي لا ينعمان بوحدة البقاء معاً مما يخرج مارتي عن صوابها أحياناً لأنها تتذمر من انها لا تستطيع ان تقوم بكل هذه الاعباء بمفردها. فعليها مثلا كومات من الغسل ومرافقة بنتيها الى طبيب الاسنان في اشبورتون هذا الاسبوع واستقبال بعض الضيوف للشاي غداً والاشتراك في التصويت وحفلة الشكر في قسم النساء في البلدية... أوه، لم أر أو أعرف في حياتي رجالا يرون في أنفسهم مادة لا يستغنى عنها كما تعتبر النساء أنفسهن. انتزعت السماعة من يدها وطمأنت زوجها الى انه يستطيع البقاء هذه المدة لأن مارتي ستقوم بهذه الأعباء بسهولة وأكدت له ذلك. قلت له أنها ستأخذ أول طائرة وستتصل به من هيروود لأعلمه بوصولها كي يذهب ويستقبلها. وهذا ما قمت به فعلاً. أخذت الغسيل من البيت وعرجت على المدرسة لآخذ البنتين. لم يحصل فيليب ومارتي الا على اجازة واحدة منذ زواجهما. ومَن لا يتذمر من هاتين الشيطانتين؟ انظري اليهما.

استدارت روبيرتا وعصرت عنق مورغان بذراعيها وقالت:

- كم أحبك يا مورغان. سنمضي وقتاً ممتعاً. وأتذكرك يا سوزانا عندما كنت هنا، ولكن سمعنا الكثير عنك من مورغان. أمي تقول أنك أجمل شيء رأته. هل تسمح لنا يا مورغان أن نحسّ وننظف الخيول القزمة الآن؟

- لا، ليس الآن. أتركا ذلك حتى بعد المدرسة غداً. يجب ان تأخذ

سوزانا قسطها من الراحة بعد طيرانها وقيادة السيارة مسافة طويلة. خذا اشياءكما الى الغرفة وسأعطيكما شراشف وبيوت وسائد لترتبا سريريكما، وانزلا بعد ذلك لتوضيب مائدة الطعام. يوجد لدينا شرائح لحم بالعظمة يا سوزانا سأشويها، وقليل من السلطة والخبز الفرنسي وفاكهة الخوخ مع القشدة، الا يكفي هذا؟ والآن ايتها الفتاتان، احملا الصندوقين. هل استمتعت بوقتك في ولنتون يا سوزانا؟

أثارت هذه المواقف حيرتها. كانت وهي عائدة من ولنتون ممتلئة حقداً وغضباً على مورغان بلير فبينما هو يغازل امرأة في غياب زوجها يقوم بدور العم الحنون مع ابنتيها ويشحن أمهما الى زوجها لينعما بشهر عسل ثان في اوستراليا. حقاً انها لا تفهم الرجال! اربكها تفكيرها في جون فورستير ومورغان بلير! وما عساها تقول في مارتي التي تعتبر سوزانا جميلة؟ كل ذلك غريب حقاً!

كان مورغان أول من ألقى ببذور الشك عندما تكلم عن تعاسة فرنسواز والتي فسرها جون بالحنين الى بلدها، وشك مورغان أيضاً في وضع جون المالي ولكنه يصدف ان يخطىء أي انسان في الاستثمار أو يضربه سوء الحظ وفي الوقت ذاته يصيب المرض أحد افراد عائلته. ولكن سوزانا خففت من غلوائها ضد مورغان عندما تأكد لها ان جزءاً كبيراً من شكوكه كان حقيقة واقعة.

وجون هو الآخر ظنّ سوءاً بمورغان عندما رآياه هو وفرنسواز مع مارتي. وسمعت سوزانا ضميرها يوبخها: او لم تسيئي أنت أيضاً الظن به؟ وشعرت انه من العدل ان تخبر جون لماذا كان مورغان مع مارتي لكن من غير ان تظهر انها تدافع عنه. انها تمقت هذه المنافسة بين الرجلين وتشك في دوافع كل منهما. وستحاول ان تستجلب جون الى بيتها والفتاتان موجودتان عندها ليكتشف بنفسه عندما يعرف سبب وجودهما. الا ان جون وفر عليها هذه المحاولة لأنه أتى في الليلة ذاتها.

كانوا جميعهم يتناولون قهوة ما بعد العشاء عندما سمعوا طرقاً خفيفاً على الباب الخلفي وصوت جون يقول هذا انا ودخل ووقف خلف كرسي سوزانا وقال وهو يرمي في حجرها كيساً صغيراً منسوجاً من خيوط الفضة:

- الم تتساءلي أين ذهب كيسك؟ تذكري انك وضعته في جيبي في حفلة

استقبال عائلة لوولين الليلة الماضية عندما طلبت منك غوين ان تساعديها في خدمة الضيوف.

شكرته سوزانا وقال جون:

ـ ماذا تفعلان هنا يا فتاتيّ الجميلتين؟ هل وصلتما الى مرحلة الاستقلال للقيام بزيارات؟

ـ اطمئن يا جون (قالت دوروثي) نحن هنا مدة خمسة أو ستة أيام فقط ريثما يعود أبي من جولته في غريت باريير ريف حيث انضمت والدتي اليه عندما أرسلها مورغان بالطائرة. ليتنا ذهبنا معها... انهم يغوصون في زوارق بقيعان زجاجية ليروا السمك والمرجان. حين قلنا ذلك قال مورغان اننا على خطأ اذ ان والدينا ذهبا الى شهر عسل ثان. فكم شهر عسل للانسان؟ اعتقدت ان هناك شهر عسل واحدٍ بعد الزواج مباشرة.

ضحك مورغان وقال:

ـ هذا صحيح. ولكنني حين قلت ذلك كنت أعني انهما في اجازة بمفردهما ليستعيدا جو... شهر العسل.

ـ أوه، أهو كما تقول؟ شكراً لهذا الايضاح. ويسرنا الا يسكتونا الكبار بقولهم اننا لا نفهم. اذ كيف نتعلم اذا لم نسأل، ومع ذلك يقول بعضهم انهم يتحملون الاولاد بصمتهم لا بضجيجهم.

ـ هذا غير صحيح (قال مورغان) لا وجود لاولاد بدون صوت... وأي صوت! ولكن عليكما الآن ان تقوما باتمام الفرض المدرسي ومشاهدة برنامجكما التلفزيوني المفضل ومن ثم... الى النوم. لقد مضى الزمن الذي كنا نفرض فيه وقت النوم على الأبناء ولكنني سألت والدتكما عن البرنامج الذي تستطيعان مشاهدته اثناء غيابها، لذا لا تحاولا التحايل عليّ حتى تطيلا سهرتكما.

قالت روبيرتا لتقطع عليه الطريق:

ـ قالت المسز لارشوود انها ستعلمني نسج السجّاد طالما نحن هنا.

ـ هذا صحيح (اجابت كلوتيلد) لكنني لم اعيّن وقتاً لذلك. اليوم تأخرنا، خاصة مورغان الذي انشغل في النعجة المريضة في نغايو بند وفي مرافقة والدتكما الى المطار، والذي عليه ان يعوض غداً ما فاته اليوم من أعمال.

اطمأنت سوزانا ان كل شيء توضح، وشعرت وهي في فراشها انها سئمت من مسلك هذين الرجلين ومما ينسب كل منهما للآخر. هذه سخافة! لقد اصبحت غير مهتمة بأيّ منهما. وهي تأسف لأنه لم يأتِ الى لارشوود رجل ذو شخصية- رجل ثالث يثير فيها اهتماماً حاداً ونهائياً ويخرجها من عالم مورغان بلير وجون فورستير الضيق... بالطبع لم يدر في خلدها ان هذا الشخص الثالث في تلك اللحظة بالذات، هو في كرايستشرش، في طريقه الى وادي لارشوود، وأنه سيصل في اليوم التالي!

* *

قبل ان تنام وضعت سوزانا ساعة المنبه لتنهض قبل موعدها اليومي وتحضر طعام الغداء للفتاتين لتأخذاه معهما الى المدرسة، ولكنها عندما دخلت لتستحم سمعتهما يتحادثان مع جدتها فدخلت عليهن وهي في ثياب النوم ونظرت اليهما نظرة تأنيب وقالت:

ـ الا تعرفان ان جدتي تحتاج الى المزيد من الراحة لتحافظ على نضارتها في سنها هذا؟ لا تفعلا هذا ثانية.

نظرت دوروثي باعجاب الى وجنتيها المتوردتين وعينيها الزرقاوين وقالت:

ـ انها لا تحتاج الى نوم كما تقولين، واعتقد انها تحب ان ترانا معها هنا.

ـ هذا هو الواقع. لا لزوم لهذه الضجة يا سوزانا. انني احظى بخدمة ممتازة فتأتين انتِ او مورغان بفطوري الى غرفتي كل صباح ألا يبعث هذا على الراحة؟ هذا يذكرني بالأيام الغابرة عندما كان يتسلق سريرنا ثلاثة أطفال كل صباح. كنت أسعد بذلك. لا يا سوزانا. لا تديري وجهك كي تخفي انفعالك... ان احزان الماضي تتلاشى سنة بعد سنة ونحن نتقدم في السن ولا يبقى الا ذكريات السعادة.. أفقت على صوت آت من تلك الغرفة وفي لحظة اغفاءة خفيفة ظننت انه جيرار ولوسيان يقومان بحماقتهما المعروفة فصرخت للبنتين لأن تأتيا.

ـ تعالي واجلسي أنت الأخرى قبل ان تنغمسي في عمل اليوم. دائماً

www.elromancia.com

اشكر ربي على تلك الدقائق التي أمتع فيها ناظري ببزوغ الشمس فوق مرتفعات هرفنتون بلير البعيدة وبلمعان الثلج على سلسلة الجبال وراءها قبل ان تجبرنا مشاغل البيت على البقاء في الداخل.

بقيت سوزانا بضع دقائق ثم نهضت وتركت الفتاتين مع كلوتيلد كيلا تحرمها من رفقة كانت تشتهيها منذ مدة. تساءلت سوزانا لماذا تعامت عن تأمين متعة الرفقة لجدتها بدل ان تتسلل في الصباح الباكر لتتركها تنام؟

بدأت بتحضير عصير البرتقال ونقع دقائق الذرة الصفراء في الحليب لان الفتاتين لا تستذوقان البوريدج او القرطمان. وأتى مورغان وجهز فطور الجدة وكعادته وضع زهرة في اناء لتزين الصينية وعلق على ذلك قائلا:

- ذوقي كذوق دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا في أواخر القرن الماضي والصديق الحميم للملكة فكتوريا.

قدم لها اليوم زهرة النرجس من حديقتها والبارحة قرص خبيزة زهري وقبله زهرة الميوسوتيس او اذينة القط. وذكرها وجود مورغان برأي جون ان لمورغان دوافع شخصية... ولكن لماذا عادت الى التفكير في هذين الرجلين؟ نزلت الطفلتان السلّم بضجة قوية ليأخذهما مورغان الى مفترق الطرق، على مسافة ميل، حيث يتجمع بضعة طلاب وطالبات انتظاراً لباص المدرسة.

فرزت سوزانا قطع الغسيل واشغلت الغسالة الاوتوماتيكية بعد ان وضعت قسماً منه. علقت الغسيل خلف المنزل حيث يعبق الهواء برائحة البنفسج وغيره من الازهار، فهي كما قالت لمورغان تفضل تجفيف الغسيل في الهواء الطلق على استعمال الآلات كما في لندن التي لا تتمتع بشيء من مزايا البرّية.

- اني اعتذر لأني القيت عليك مسؤولية الغسيل ولكنني قلت لمارتي التي ويختني على ذلك بأنك ابنة لارشوود وتتحملين هذه الاعباء وانك من صلب طينة هذه الارض لحماً وعظماً وانك من اللواتي يجابهن العواصف الثلجية ويقمن بما يلزم للخراف والحملان في الوضع والجز وانك من سليلة فكتورين روز. وما الغسل والكي الا مسألة ثانوية بالنسبة اليك. وأنا سأقوم بجلي أواني المطبخ يا سوزانا.

- لا، أرفض طلبك هذا.

انشرح قلبها لان مورغان تكلم عنها بهذه الطريقة مع مارتي وأثبتت ذلك الفتاتان. فهل أنها كانت موضوع حديثهما غالباً؟ قالت لنفسها ان في الحياة نوعاً من التسلية اذا عاشها الانسان كما يجب. العمر المتوازن يريح العقل والحب ينتعش بوجود اطفال على سرير الجدة يستمعون اليها وتستمع اليهم وتغذيهم بحكمة السنوات الطوال، ثم يشاركونها في افطارها، وبوجود رجل يشاركها هي سوزانا في أعمال المنزل ويطبخ لها ويغسل لها ويخيط الازرار عنها وهي تساعده في زريبة الخرفان وفي حظائر الابقار.

ذهب مورغان الى المراعي حيث كانت الخرفان وابتسمت كلوتيلد لسماعها سوزانا تغني وهي تقوم بواجبات المنزل فاغمضت عينيها وغفت مرتاحة ومطمئنة البال. أتى دان الى الغداء، وهذا اليوم، كان دور أغنيس للمساعدة في مركز الألعاب في لندن بيكس. تكلم دان بينما كانت سوزانا تخرج السمكة المدخّنة من علبتها:

- وجودك هنا في يوم كهذا يغير كثيراً من الأمور. فرئيسنا مثلا لديه الوقت الكافي ليمضيه خارجاً الآن ولذا نتحمل نحن الكثير من العمل الاضافي. كان كل عملنا في العام الماضي منحصراً في الحيوانات بالاضافة الى عمل الريّ. كنا ننجح تماماً.

رفّت عينا كلوتيلد التي قالت:

- انهم الطف من ان يتذمروا هكذا يا عزيزتي، ولكن الذي يعنونه هو انهم يستطيعون البقاء خارجاً عدة ساعات كل مرة. واقهم الاعذار التي يتذرعون بها ليتسللوا الى البيت... فيدّعون مثلا نقصاناً في السلك الشائك أو أنهم نسوا آلة مدّ الاسلاك في البيت أو ان عليهم ان يتصلوا تلفونياً. كنت اتفهم كل ذلك واتضايق منه في الوقت ذاته. ولذا فنحن ننظر اليك كأنك نزلت علينا من السماء.

- هنا اثنان نزلا من السماء. (واضاف دان قائلا) ولكنها نزلت علينا ملتفة بسحر فاتن. أنا من بين اولئك الذين يفضلون الشقراوات، وعلى هذا الأساس اخترت اغنيستي.

التفتت سوزانا نحو شعرها المنسدل على كتفها وقالت دون مباهاة:

- ليس اشقر بالضبط. انه اشقر باهت.

علق دان بقوله:

ـ قول سخيف! ليس باهتاً ابداً. انه بلون العسل، العسل الكثيف.

ـ ما زلت اعتبره باهتاً. أنه بالمقارنة مع شعر الفتاتين النحاسي يبدو مطفأ.

ـ فهم النساء يفوق مداركي. تحب اغنيس خصلة الغراب، وتتكلم جادة عن صبغ شعرها مما أجبرني على التدخل.

أهتم مورغان بقول دان فسأله:

ـ كيف؟

ـ اذا تجرأت اغنيس وصبغت شعرها فسأشعر كأنني وقعت في حبها على غير شكلها الجديد وسأفقد كل اهتمام بها وسأبدأ بملاحقة أول امراة شقراء تقع عيني عليها. (ضحك الجميع وأضاف دان يقول) يبدو هذا سخيفاً، لأن المرء يحب شخصاً لشخصه لا لمنظره او للونه. خذوا فيليب غريفيش مثلا فانه لا يطيق الشعر النحاسي في النساء- وهو محق في ذلك- ومع ذلك تزوج مارتي. وتميل النساء الى الرجل طويل القامة وأسمر البشرة وبهي الطلعة، ومن حسن الحظ ان بعضهن لا يتبعن هذه القاعدة والا لذهبنا الى الجحيم.

تكلمت سوزانا دون أن تفكر:

ـ لا أفهم كيف تملك هذا الاعتقاد عن عقول الناس. اني أفضل الرجل الاشقر القوي. ولا قيمة عندي للطول أو للشعر القاتم.

عند هذه النقطة أحست بالدم يصعد الى وجهها لأنها رأت مورغان يلتفت نحوها بسرعة ويقول مازحاً:

ـ يجب ان انهض وينهض مورغان معي وننحني برغم صعوبة القيام بأية حركة بعد وجبة الطعام. لن نتناول شاي العصر هنا وسنأخذ معنا مطرة وفطائر بالحليب. وهكذا سنعمل طيلة بعد الظهر بلا انقطاع. سيذهب شخص من مساعدي برينت ليأتي بالفتاتين عندما يصل باص المدرسة الى مفترق الطرق.

وضعت سوزانا طنجرة فيها ضلوع حمل في الفرن وعملت كريات عجين بالتفاح وقشرت بطاطس وغسلتها لتضعها في الفرن لاحقاً. وأصبحت جاهزة الآن لكيّ الثياب. وفي كل تلك الاثناء كانت كلوتيلد

جالسة في المطبخ تكلمها وتخيط رقعاً من الحرير على لحفها المفضلة. وأحست سوزانا بفيض من الحب لجدتها يغمرها ودعت ان يمد الله في عمرها.

تناولت الشاي مع جدتها عند الرابعة بعد الظهر ثم جلستا في غرفة خلفية بحيث تريان غروب الشمس في نهار جميل كهذا. هذه الغرفة يتكون فرشها من متكآت ذات ظهور عالية منجدة بقماش هندي وكراس من الخيزران ورفوف منخفضة مليئة بدواوين اشعار جميلة وروايات قديمة وحديثة وألعاب تسلية مثل الدومنو والشطرنج، وبجانب كل ذلك سلة اشغال كلوتيلد التي لا تفارقها.

غلب على كلوتيلد النعاس فغفت بتأثير حرارة الشمس ومضت برهة سمعت سوزانا بعدها جرس المدخل الرئيسي. من عساه يكون؟ رواد البيت قلما يستعملون هذا المدخل، انهم يستعملون الباب الخلفي. ولما ذهبت سوزانا لترى من الطارق رأت من ممر جانبي سيارة تاكسي تدور وتبتعد. هل هم ضيوف ليل؟ ربما أتى التاكسي من لندن بيكس.

فتحت الباب ورأت أمامها رجلا ذا شعر أسود في لباس صيفي يرتديه سكان المناطق الاستوائية وفي يده حقيبة من الجنس الممتاز. رفعت نظرها اليه لتتثبت من هوية هذا الغريب فلم تصدق ما رأت بل ظنت أنها في حلم فقالت بسرور واضح:

ـ أوه، لويس، قريبي! ما هذه المفاجأة السارة! اعرفك حيثما تكون. ادخل، ادخل.

تقدم بدون تردد وقال:

ـ أرى أنك عرفتني بعد كل هذه السنين الطويلة.

ـ وجودك هنا ضرب من الخيال يا لويس. هل سمعت عن قرب موعد الاحتفال؟ هل كتبت لك جدتي؟ ربما ارادت ان تفاجئني.

ـ احتفال؟ كلا ليس لدي أية فكرة عن أي احتفال...

ـ ولهذا فاني أستغرب الأمر. لقد مضى خمس سنوات على آخر احتفال، ولكن جدتي تشعر انها في تسابق مع الزمن ولذا قررت ان يقوم الاحتفال الآن. وآمل من كل قلبي انك ستبقى هنا لتحضره. لا تقل أنها زيارة عابرة، فوقت الاحتفال قريب. وبالاضافة الى ذلك انك لا تعرف شيئاً عن

نيوزيلاند. عليك ان تقوم بجولة بادئاً من مقرك هنا. . . في المرة الأخيرة أنت فرنسواز وحدها. . . آه، ليتها هنا. ولكن لا يجب ان اتكلم عن أشياء محزنة. هل ستمكث طويلا؟

قال بعد تردد قليل وهو يبتسم:

ـ لست مستعجلاً العودة الى تاهيتي. أنا سيد نفسي ووقتي وأستطيع ان اعتمد كلياً على الموظفين هناك. بعد ان انتهيت من مهمتي في اوكلاند وولنتون اردت ان يكون مجيئي مفاجأة لكما ولهذا لم اتصل بكما. كم أنا مسرور بوجود جدتك على قيد الحياة.

ـ اترك حقيبتك هنا وسأجهز لك غرفة. عندنا ضيفتان صغيرتان، بنتا غريفيش، واعتقد بانك لم تنسَ والدتهما مارتي ولنتون التي اتت في حينها من انكلترا وبدأت في عمل مساعدة جوي ولفي لوجي في البنليندن. كان مورغان، وهو بيطري بعد، يتواعد معها ويتقابلان، والآن هو مدير املاكنا هنا. ولكن مارتي تزوجت من فيليب غريفيش وهما في اوستراليا الآن وهذا علة وجود بنتيهما هنا، أما ولداهما فيقيمان مع عائلة في المزرعة هناك. لندخل الآن الى الجدة ولنرَ ما اذا كانت ستتعرف عليك.

ـ لا يجب ان تتأثري اذا لم تعرفني. احياناً تخون القوى العقلية الشيوخ. دهشت لأنك عرفتني بعد هذه المدة الطويلة فلا غرو اذا لم تتعرف جدتك عليّ.

ـ برغم اناقة ملبسك، فانك ما زلت قريبي لويس روسينيول! ادخل.

لم تكد عينا الجدة تقعان عليه حتى عرفته ومدت يديها له. تقدّم باللياقة الفرنسية وقبل يدها ثم وجنتيها وقال:

ـ مدام!

ـ نادني العمة كلوتيلد كما في السابق، أولست روسينيول؟ مضى زمن يا لويس كنت فيه قليل الالمام بكتابة الرسائل. وكان أملنا كبيراً أن تأتي لزيارتنا عندما أنت شقيقتك فرنسواز لتعيش بيننا، ولكن فرنسواز المسكينة لم تمكث طويلا اذ لم تمهلها المنية أكثر من ثلاث سنوات هنا، ونقدر عظيم حزنك يا لويس لأنك لم تعلم في حينه لأنك كنت في أميركا الجنوبية تتسلق الجبال حيث وقع لك حادث الزمك الفراش. قل لي. هل لا زلت تتسلق الجبال؟

ـ كلا يا عمتي. أكرس وقتي الآن للأعمال. وسبب مجيئي الى هنا هو انني قمت بجولة تفتيشية في احدى وكالاتنا في اوكلاند ومن هناك اضطررت للمجيء الى ولنتون ولم استطع مقاومة انجذابي لكما فأتيت مسرعاً لنستعيد بعضاً من جو عطلاتنا الماضية. ولم اتوقع وجود سوزانا هنا اذ ان آخر ما سمعته هو انها كانت في زوريخ ثم في لندن.

ـ سمعت؟ (قالت سوزانا مستغربة) صحيح نحن لم نكن نتراسل.

ـ والدك معروف جيداً وتذكره الجرائد الأميركية التي اقرأها عندما اتردد على لوس انجلوس. هل ستبقين هنا طويلا يا سوزانا؟

ـ ارجو ان أبقى حتى آخر أيامي.

ذهبت سوزانا لتحضر فنجان قهوة له وعادت ببعض البسكويت الفرنسي. تأملته وتوسّمت في رفيق صباها منذ خمس عشرة سنة شاباً مكتملا ذا شخصية فذة. قال:

ـ طلبت من العمة كلوتيلد ان تضعني في جو واديكم وترسم لي صورته. . . فتطلعني على من هنا وما يفعلون. قالت ان مورغان لم يتزوج بعد. هل هزل حباً بمارتي التي ذكرتها؟ قد يكون من النوع الذي يلاحق امرأة بعد أخرى ولا يستقر على واحدة منهن، اليس كذلك؟

تركت سوزانا الجواب لجدتها:

ـ كلا. ليس تماماً كان ذلك نزوة عاطفية عابرة. كانت مارتي قد احبت فيليب غريفيش قبل ان تأتي الى هنا عندما كان فيليب ضابط ارتباط على بعض بواخر المهاجرين. ولكن لماذا اكلمك عن ذلك؟ الا تتذكر فيليب؟

ـ لا استطيع التأكد من ذلك. اتذكر مارتي بعض الشيء فقط، وربما ترك فيليب هذا انطباعاً اضعف في مخيلتي.

ضحكت سوزانا وجدتها ضحكة كبيرة وقالت الأولى:

ـ فيليب هو الذي يجب ان يترك الانطباع فيك يا لويس. الا تذكر من انقذك عندما عجزت عن النزول من شجرة الصفصاف بقرب جدول الماء؟ فقد انكسر الغصن الذي كنت عليه فسقطت قبل ان يتمكن من الوصول اليك ولما حاول الامساك بك اثناء سقوطك سقط هو الآخر ولكن وراءك. وهو ايقظك من اغماءتك بالتنفس الاصطناعي.

ـ آه، اذن هو! سبّب وقوعي شقاً في رأسي وتأثرت ذاكرتي ففقدت

بعض التفاصيل وتذكرت غيرها. وأتذكر أيضاً كيف عاقبنا لأننا اخذنا زورقاً يتسرب منه الماء. هذا يعني انه يكبرنا بكثير.

- انه يكبرك بعشر سنوات ويكبرني باحدى عشرة سنة. وكان يبدو بالغ السن حينذاك بسبب سلطته علينا، ولكن يكبر الانسان فتزول فوارق السنين وتقل أهميتها.

- تعبير دقيق، والا شعرت بأني متوشالح، ذلك الشيخ الذي تقول عنه التوراة انه عاش ٩٦٩ سنة.

- من أين برزت فجأة؟

كان المتكلم مورغان الذي سمع العبارة الاخيرة من حديث سوزانا. اجابه لويس:

- من هيروود رأساً وقبل ذلك كنت في أوكلاند التي تبعد ثماني ساعات فقط عن تاهيتي. غريب حقاً انني لم آت حتى الآن في زيارة الى هنا. لا أفهم لماذا لم يتملكني الحنين الى تلك الأيام الحلوة التي كانت كلها بمثابة عطلة لنا.

- قد يعود سبب ذلك الى الاحزان التي تراكمت علينا أو الى الماء الذي ينساب من تحتنا دون ان ندري به. هل تسلمت أعمال والدك يا لويس؟ هذا هو الشيء المعقول. مر والدك بأيام صعبة كما فهمنا من فرنسواز. مسكين والدك، هذا الرجل الشريف والأمين الذي أوقعت به خدعة جعلته يمضي العمر كله في التعويض على من ذهبوا ضحية غش شركائه. وهذا يذكرني بالكاتب الاسكوتلاندي المعروف سير والتر سكوت الذي انكبّ على التأليف ليل نهار ليعوض على من تأثر بفشل شركة النشر التي أسسها.

شكره لويس على احساسه وقال:

- نعم. هذا ما جرى. ولو عاشت أمي لما تردّت صحة والدي الى هذا الدرك، لكنه قارب نهاية الخلاص من ديون الشرف واكملت شركة التأمين ما تبقى منها، الا انني خرجت مفلساً ولكنني تغلبت على ذلك الآن وقد تركت حقل عمل والدي ودخلت حقل المنسوجات- منسوجات تاهيتي المشهورة.

في تلك الدقيقة تدافعت البنتان الى الغرفة وقبلتا مورغان الذي كان بقرب الباب وفيما هما متجهتان نحو كلوتيلد وسوزانا توقفتا عندما شاهدتا

رجلا حسن الشكل ينهض من المتكأ وينحني لهما.

- تحياتي يا آنستي (قال) اعرف من انتما... بنتا الساحرة مارقي والرهيب فيليب.

جمدتهما هذه المجاملة الفرنسية الرقيقة التي لم تتعوداها، دخلت سوزانا وانقذتهما قائلة:

- هاتان البنتان هما دوروثي وروبيرتا. اقدم لكما قريباً لي، لويس روسينيول من تاهيتي وشقيق فرنسواز. كان في عطلة هنا منذ خمس عشرة سنة. هو قريب أيضاً لعائلة روسينيول في اكاروا. (والتفتت الى لويس واضافت) امضت البنتان مع باقي افراد العائلة سنتين في احد الموتيلات التي يديرها بيير ومارغو لافرو بالاضافة الى دار روسينيول التي تحول جزء منها الى متحف، والعمة اليزا ما زالت حية. ولا اعتقد بانكما التقيتما ببيير ولكنكما تتذكران العمة طبعاً.

- طبعاً نتذكرها. كيف ننساها؟ ما عمرها الآن؟

ضحكت كلوتيلد وقالت:

- انها من عمري... في الثمانينات. ويقومون على خدمتها كما يقومون على خدمتي أنا. اذا اطلت اقامتك يا لويس سنقوم برحلة لتمضية ليلة واحدة فقط هناك بسبب انهماكنا في التحضير للاحتفال.

- أشياء كثيرة ليست واضحة بالنسبة الي بعد خمس عشرة سنة، ولكن سوزانا ستنعش ذاكرتي. واذا بقيت هنا أرجو الا تعاملوني كضيف بل ان تعطوني الفرصة لأقوم بما استطيع من عمل كتحضير الطعام لليوم الكبير والاهتمام بالضيوف وغير ذلك من المهام لكي اكفّر عن أهمالي الكبير في ربط العلاقات بالعائلة. وآمل أني سوف لا أثقل على احد بوجودي هنا.

قالت كلوتيلد بصوت ناعم:

- نرحب بك كأحد افراد البيت يا لويس، وبهذا نرحب بالولد الصغير الذي احببناه منذ خمس عشرة سنة وبشقيق عزيزتنا فرنسواز التي انزلت بنا ضربة قاسية بموتها وموت ابنتها. لم املأ بعد الفراغ الذي تركته، لأننا كنا صديقتين حميمتين رغم فارق السن بيننا.

قال لويس بشيء من التردّد بعد أن خرجت الفتاتان:

- هل ما زال صهري هنا؟ أظن ان يجب علي ان أراه.

قال مورغان:

ـ انه في مزرعته الآن، ومن حسن الحظ انه يتغيب كثيراً لانه تبنى السياسة. نراه من حين الى آخر ولكنه ليس شخص مقرباً إلينا كثيراً.

رمقت سوزانا مورغان باستغراب فعض هذا على شفته كما رأت لويس في موقف مرتبك وقال لويس:

ـ لا أكاد اتذكره، ولكنني تذكرتك من أول نظرة يا مورغان.

علقت سوزانا قائلة:

ـ هذا لأن جون كان في مدرسة داخلية معظم الوقت الذي كنت فيه هنا، وكان في سن يجعله يعتبرنا ادنى مقاماً مع انه اقرب سناً الينا من مورغان، وحيث لم يبال مورغان باللعب والتسلية معنا كان جون يترفع عن ذلك. ربما لأنه يحب الوحدة. وفي رأيي ان الحياة السياسية في العاصمة تفيده اكثر من مزرعته التي يقول مورغان انها ليست على ما يرام.

حاولت سوزانا ايجاد بعض الاعذار لجون. اما لويس فلم يبد حماساً لمقابلته. لم يكن ذلك منصفاً. ولكن الظروف جعلت أهل فرنسواز يعتقدون بأنها لو لم تتزوجه لظلت على قيد الحياة. وهذا الاعتقاد بالذات كان على شيء من التعسف. فبعض النساء يمتن اثناء الوضع. أوَلم يكن موتها وموت ابنتها معها ضربة تحطم القلب؟ (وقفت وقالت للويس) اتبعني يا لويس لأريك غرفتك. وبعد العشاء سنرافقك في جولة في الحديقة فالشفق لم يعد معتماً بعد ان اصبح النهار طويلاً.

خف التوتر بين سوزانا ومورغان لأنه لم يعد يستغل معظم اوقاتها بعد مجيء لويس. تراخت أعصابها وعادت الى طبيعتها في حديثها بعد ان كانت تتحفظ في اجوبتها تجنباً لكل ارتباك يوقعها فيه مورغان. ومن اللحظات المسلية مع لويس تدريبه على ركوب الخيل الذي انقطع عنه كل تلك السنوات. اثبت انه رياضي سهل التمرن، ورمى عنه شكليات رجل أعمال لوس انجلوس وتاهيتي، وأصبح رجلا أليفاً سلساً.

ولتجنيب لويس كل مضايقة في لقائه بجون جمعوا عدداً من اولئك الذين عرفوه صغيراً واجتمعوا في مزرعة جون. سروا جميعاً برؤية الولد الفرنسي الصغير الذي احبوه منذ خمس عشرة سنة وكانوا يضحكون منه عندما كان يفشل في التفوق عليهم في العاب الحزازير فيطلب منهم الصبر

واعطاءه الفرصة أو انهاء اللعبة. قال:

ـ لست مسؤولا اذا كبر زملائي القدماء في اللعب وأصبحوا أكثر جمالاً، رجالا ونساء. واذا تعرفت على البعض منكم وفشلت في التعرف على البعض الآخر ستكون هذه لطخة في جبيني، وسأدعي بأن الضربة التي أصابت رأسي اضعفت ذاكرتي. والآن سمّي يا قريبتي سوزانا كل واحد باسمه وأنت تشيرين اليه بيدك.

قال لويس عندما وصلت سوزانا الى جون:

ـ انك ستعذرني اذا لم اتعرف عليك يا جون لأننا قلما كنا نتقابل بسبب وجودك معظم الوقت في كرايستشرش. سمعت انك تهتم بالسياسة الآن، وهذا شيء مدهش. ولكن ليس بالنسبة الي لأنني لا استطيع دخول ميدان التشريع والمناقشات اذ ان مداركي لا تملك سرعة الخاطر، ولكنني اقدر السياسيين الذين يقدمون خدماتهم، دون ان يجدوا من يشكرهم على ذلك، حق قدرهم.

قدرت سوزانا موقف لويس وسرها كثيراً انه لم يظهر اي جفاء تجاه جون. وزاد احساسها بالشفقة على جون خاصة لان شعور الجماعة التي عاش فيها اجداده وعاش هو فيها من بعدهم وعاشر افرادها ظل فاتراً نحوه في معظم علاقاتهم معه. ولقد تجرأ أحد سكان ليندن بيكس بقوله عنه انه ليس من عائلة فورستير وانه يشبه امه في كل شيء عندما فشلوا في كل محاولاتهم ليجعلوها تشعر انها واحدة منهم. الا ان موقفهم منه لم يؤثر فيها بل زاد شعورها حرارة نحوه.

راود سوزانا شك في ان جون اخذ يراقبها مع لويس عن كثب. وفي أحد الأيام تركت لويس يخرج مع مورغان ودان ليرياه مشروع الريّ الذي يفتخران ويفرحان به كأولاد يفرحون بقطار كهربائي. اما هي فقد اخذت طريقاً آخر. اتصلت بها ايديث رايموند مدبرة بيت جون لتعلمها بأن في برّاد التجميد مكاناً واسعاً يستوعب كل ما تريد حفظه فيه من معاجين وبسكويت وغير ذلك وبذلك تترك مكاناً عند كلوتيلد لجميع أنواع اللحومات.

وضعت سوزانا كل المعاجين والبسكويت في علب كرتون واستقلت سيارة الهنتر. رتبت المسز رايموند كل ذلك في برادها ومن ثم تناولتا شاي

بعد الظهر. كانت المسز رايموند معروفة بسماحة اخلاقها، وهي تعمل في مزرعة جون مع زوجها الذي أجبره سوء صحته على التخلي عن مزرعته الصغيرة والالتحاق بمزرعة جون ليتلهى بأعمال البستنة فيها وليناظر المساعد المتدرب في غياب جون الذي كان يطمئن اليهما والذي أمّن لهما مسكناً مستقلا. قالت المسز رايموند لسوزانا:

ـ نفكر احياناً في اتخاذ كوخ لنا في ليندن بيكس ولكن العمل هنا يرفع من معنويات زوجي ويجعله يشعر بانه ما زال مفيداً. ونحن في حيرة من أمرنا لان جون ليس في وضع يمكنه من استخدام مدير لمزرعته.

ـ كان موت فرنسواز مأساة كبرى. ولو انها بقيت على قيد الحياة لاختلفت الاوضاع. كانت جميلة جداً، تشع منها بهجة الحياة، ولكنها لم تتحمل فراق تاهيتي ووالدها وشقيقها لتستقر في محيط لم تألفه. ويقال انها تختلف عن أخيها لويس هيئة وطبعاً. فبينما يشبه لويس والدته تشبه فرنسواز مارتي غريفيش بشعرها الأحمر وعينيها الزرقاوين والحيوية التي تنبع من حراوات الشعر مثلها. وان وصولها الى هنا أضفى بسمات وضحكات على جو المنطقة.

نظرت المسز رايموند اليها باستغراب وقالت:

ـ هذا ما اكدوه لي في حينه ولكنها لم تكن كذلك عندما التقيت بها. كان ذلك عندما تخلى زوجي دوغلاس عن مزرعته على اثر مرض اصابه وذهبنا الى ليندن حيث بقينا بضعة أشهر انتقلنا بعدها الى مزرعة جون بناء على طلب منه لنساعده في بعض الاعمال اثناء حمل فرنسواز. كانت في منتهى اللطف ولكن بدون مرح من أي نوع، الا انها لم تخف عن احد رغبتها الجامحة في ان تكون أماً لطفل. وكثيراً ما كنت أسمعها تتكلم بكل جوارحها عن مولودها العتيد كلما رتبت حوائج الوليد وأضافت عليه شيئاً جديداً يوماً بعد يوم وتقول: «سيكون لي، لي انا. من مدهشات الحياة ان تصبح المرأة اماً، ان تأتي بحياة جديدة الى العالم وان يحبها الوليد بأدق الأواصر الممكنة». (وأضافت المسز رايموند بعد صمت وجيز قائلة) وقالت فرنسواز شيئاً اقلقني في حينه ولكني لم أبح به لأي كان. قالت بالحرف الواحد: «ان يكون الحب غير متناه، بلا حدود وبلا أسباب... وليس بسبب ما قد تملكينه... ولكن لشخصك فقط...».

عبست سوزانا لهذا القول الغريب وقالت المسز رايموند:

ـ تغزو مخيلة المرأة الحامل افكار غامضة وغريبة.

ـ اسمع النساء يقلن هذا. (وافقتها سوزانا قائلة) سأوجه لك سؤالا يا مسز رايموند لم أوجهه الى انسان غيرك، خاصة وأنه كان يراودني اثناء حزننا عليها. قلتِ ان فرنسواز كانت تتحرق لتصبح أماً. هل كانت تعرف مسبقاً ان طفلها لن تكتب له الحياة؟ ربما هذا هو السبب في احساسها باليأس واستسلامها للحزن. اني أميل الى تصديق هذا الرأي.

ـ لا يا عزيزتي. فرنسواز كانت تجهل ذلك لأنهم لم يريدوا اقلاقها به. وصدف ان كان جون في انفركارجيل عندما بدأت مخاضها، فأرسل دوغلاس رسالة له ولكنها لم تصله لانه كان في اجتماع حيث لا يصل التلفون بخط مباشر، ولكننا لم ننزعج لان الولادة الاولى تأخذ عادة وقتاً اطول من الولادات التالية، الا ان ولادة فرنسواز شذت عن القاعدة، وبقينا كل الوقت في مستشفى التوليد. وتأخر جون في الوصول اليها في سيارته بسبب الضباب الذي اغلق المطارات. وسوف لا تصدقين كم كان فرحنا عظيماً بهذه الولادة السريعة، وسمحوا لي بالدخول اليها بدلا من جون. ارتحت لمظهرها الذي بدا لي احسن مما كان قبل أشهر وبدا وجهها ملائكياً سمحاً بعد ان قدموا لها مولودتها. قالت لي فرنسواز:

ـ انها رائعة يا ايديث. ليست حمراء ومتجعدة وعابسة كبعض الاطفال. انها بيضاء وزهرية اللون مثل ازهار التفاح... نضرة، نقية، وهي لي... أشعر بالنعاس الآن وانه لحلم جميل أن أنام مطمئنة على اني سأرى صغيرتي جوستين بين يدي عندما افتح عيني.. هذا بعد جديد في حياتي. والآن، وداعاً يا ايديث. (مسحت ايديث دمعة من عينها وأضافت قائلة) لا الوالدة استيقظت ولا مولودتها. وهذا تعزية لي. كانت غالية على قلبي. وشعرت بانها فعلا وجدت البعد الجديد الذي تكلمت عنه، وأتذكر ان لحظاتها الاخيرة كانت لحظات سعادة.

تعرف سوزانا بقية القصة. فقد كتبت كلوتيلد تخبرها عن ساعة وصول جون الى مستشفى الولادة ليجد ان زوجته وبنته قد فارقتا الحياة. كان ألمه لا يوصف. شكرت سوزانا ايديث والدموع تنهمر من مآقيها لاطلاعها على اشياء لم تكن تعرفها. قالت ايديث:

ـ ما اطلعتك عليه يجب ان لا تتناقله الالسن، لان... لان... اوه، ما هي الكلمة الصحيحة؟ آه، لان المسائل العائلية الحميمة الصرفة مقدسة وأكره ان تلوكها الالسن. وكتبت لأخيها عندما علمت بخروجه من المستشفى بعد حادث التسلق وأجابني برسالة دقيقة جداً. الأخران اللذان اطلعتهما هما كلوتيلد ومورغان.

ـ مورغان يا ايديث؟ لماذا مورغان؟

ـ لو رأيت تأثره. تعرفين مورغان. انه شفوق، اعتقد لأنه بيطري يا سوزانا. هو رؤوف جداً بالحيوانات. انه يكلمها ويواسيها عندما تتألم كأنه امرأة تواسي طفلا. كان مورغان الشخص الوحيد الذي نجح في اضحاك فرنسواز. ضحكت وضحكت كما يجب، ليس مجاملة.

ـ اذن لقد عرف مورغان وكلوتيلد... وجون طبعاً؟

ـ كلا. اخبرته ما قالته فرنسواز ان ابنتها جميلة وان والدها جون سيفرح بها. كل رجل يعتقد ان تفكير زوجته الأخير يتجه نحوه. (انتفضت كأنها خافت مما قالته) لم أخبر احداً بأني كذبت بهذا الشأن يا سوزانا. ولا أعرف لماذا قلته لك، غير ان... (غيرت فكرها واختتمت قائلة) احتفظي بهذا سراً. اتوافقينني؟

اخذت سوزانا يدي المرأة المهترئتين من العمل وقالت مبتسمة:

ـ كل سر يدخل صدري يبقى دفيناً. كنت أمينة على اسرار والدي، وفي أوساط البعثة التجارية يسمع الانسان اشياء لا يجب ان تتسرب الى الخارج والا كوّن ذلك تهديداً للاقتصاد. واعتبر السر الذي ائتمنتني عليه مديحاً لي. احببت فرنسواز حباً كبيراً مدة الاسابيع التي عشناها معاً في الوادي. لماذا اطلعتني على هذا السر يا ايديث؟

ـ سمعت انك كنت على وشك الزواج من جون، ولا أحب ان تندمي على انك... عدت اليه ثانية. ربما كنت اقوى مراساً من فرنسواز فتتحملين بسهولة اكبر، ولكن... لا اظن ان جون فورستير يستطيع ارضاء امثالك من النساء. ولا اخطىء اذا قلت انه سيتزوج مرة اخرى ولكن بامرأة من غير نوع فرنسواز. سيتزوج واحدة من الاوساط السياسية، امرأة تستطيع تقديم المساعدة لانجاحه في حرفته... وتستطيع ان تزن الأمور... امرأة...

وتوقفت لأنها سمعت اصواتاً تقترب من البيت. كان القادمون جون ودوغلاس والمساعد المتدرب وقد أتوا لتناول الشاي.

تأملت سوزانا في المشهد الذي أمامها فوجدته غير حقيقي... كل شبر في جون يعطيه هيئة للمزارع الاصيل واللطيف وغير المعقد... وقصة فرنسواز المحزنة تبدو غريبة ضمن هذا الاطار. لو عاشت الى الآن لكانت تقدم لهم الفطائر والبسكويت، ولكانت جوستين ابنة سنتين تركض من حولهم وتملأ المكان ضجة وزقزقة. ولكن ماذا حدث لهم...؟

لكانت هي نفسها زوجة مورغان لو أرادت ذلك ولرافقته الى عيادته ولكان بيتها في لينذن بيكس ولقامت بزيارات لجدتها كلما دعت الحاجة. ولكن ما العمل ومورغان لم يفه بالكلمات التي تجعلها زوجة له، والتي تحوّل الخطوبة الصورية الى خطوبة حقيقية فزواج... ولكن من هي حتى تلقي الملامة على مورغان؟ انه سوء طالع الجميع.

٦ـ وجدت نفسها تعتذر لمورغان بعد ان علمت حقيقة علاقته بمارتي، وبعد أن أخبرها بمأساة فرنسواز... فهل ستفتح سوزانا صفحة جديدة، أم انها لا تزال تنتظرُ حباً جامحاً؟

تلت ذلك أيام ممتعة لم يعكر صفاء سوزانا فيها سوى ما قالته لها أيديث عن احتمال ان يكون زواج جون لتعزيز اهتمامه السياسي. هل عنت ايديث ان جون قد يتجه بنواياه نحوها مرة أخرى لأنها بحكم مركز والدها تفهم عالم التجارة والمال في العالم؟ ترى سوزانا ان شيئاً من هذا قد يحدث. وتلوم نفسها لأنها لم تع منذ خمس سنوات انها كانت منجذبة اليه. وداخلها شك آخر: هل تعي الآن؟ لو تتعقل قليلا لن تهتم بلحظات تشعر فيها بشوق الى مورغان. فانها بالرغم من مشاكسة أحدهما الآخر لا تزال تحس بموجة من الحب تجتاحها ولا تستطيع مقاومتها... هناك أمور صغيرة تثير فيها هذا الانجذاب نحوه... تراه مثلا جالساً في زاوية من الغرفة يصنع ذباباً لصيد السمك بعناية فائقة استعداداً لموسم الصيد القريب، أو يدون بدقة في دفتر يوميات المزرعة كل تفاصيل العمل اليومي، أو واقفاً عند زراب الخرفان عاري الرأس والذراعين، أو يقفز برشاقة على ظهر حصانه، أو يدخل البيت عند المساء متحولا من رجل مزارع خشن الى رجل وديع، أو تسمعه يوجه كلمة احترام واجلال لكلوتيلد التي تحب ان تتمتع بساعات الاسترخاء في حضوره وتتلذذ فيها بحلاوة العيش.

ذهبت سوزانا يوماً لتوصل اليه رسالة آتية من أحد عملاء القطعان ورأت فرسه لايدي غراي مربوطة فتأكدت انه ليس بعيداً عن منحدرات تل كابج تري القريب من الحظائر. عندما اقتربت رأت مورغان واقفاً لا يتحرك عند طرف خميلة بلوط ولكنها سمعته ينادي بصوت ناعم خاص يستعمله مع الحيوانات. لم يكن ينادي كلبه بلووي لأنها رأته في بيته في

طريقها الى مورغان. توقفت سوزانا ولم تمض لحظة حتى رأت نعجة تتجه نحوه ببطء وتتوقف بعد كل بضع خطوات احترازاً منها كي تهرب عند أقل حركة. وعندما اقتربت النعجة منه رأت سوزانا سلكاً شائكاً بطول بضعة اقدام ملتفاً حولها.

في آخر الأمر توقفت النعجة أمام مورغان الذي امسكها بقوة من صوفها وأخذ يخلصها من السلك الشائك ولم ينقطع عن التكلم اليها، وككل راع نبيه فتح فمها وفحصه ثم اخلى سبيلها فابتعدت النعجة وهي تقفز بين الاشجار متجهة نحو المراعي.

هتفت سوزانا بكلمة استحسان وصفقت. التفت نحو الصوت وانفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة كالولد الذي ابتهج بأن يراه أحد وهو يقوم بعمل غير عادي. كان في استطاعة مورغان مثلا أن يأخذ حصانه ليعود بكلبه ليحاصر النعجة، ولكنه وفّر عليها عذاب البقاء في الاسلاك الشائكة ريثما يأتي به. ركضت سوزانا نحوه بحركة خفيفة وبوجه مشع.

ـ آه يا مورغان. لقد سحرتني بعملك. تهانيّ!

وبدون تفكير إقتربت منه مبدية إعجابها وغبطتها. وضحك هو قائلاً:

ـ فعلت ذلك من قبل ولكن بدون متفرجين. لأن وجود انسان ما عن بعد نصف ميل مجلب للنحس. ربما تجمد الدم في عروقك.

ـ بالفعل تجمد. خشيت من أن تراني لايدي غراي فتصهل.

ـ والأهم من ذلك أن الأمر لم يكن ليتم على هذا النحو لو كان القادم هو لويس.

ـ صحيح. لكان أفسد علينا الأمر. طبعاً لا نتوقع منه أن يعرف شيئاً عن الخراف مثلما كان يعرف وهو صبي.

ـ لاحظت ذلك أنت أيضاً. كان وهو صبي متعلقاً بعمل المزرعة كتعلق البط بالماء، وكنت أعتبر ذلك فطرة فيه أو موهبة لكون آل روسينيول متأصلين من اسلاف رعاة في نورماندي. وبالرغم من انه يركب الخيل بسهولة فهو متبلّد فيما يتعلق بالخراف. ولا أعتقد بأنه يتقبل غبار وأقذار الحظائر. هذا عدا الروائح. ولكنه خفيف الظل وشعبي.

وبعد ان رماها بنظرة خاصة قال محذراً:

ـ اياك والوقوع في حبه يا سوزانا كاريو. انه لا يصلح للعمل هنا.

ـ اظن انك تمازح (اجابته بشيء من الفتور) انه قريبي.

ـ انها قربى بعيدة ولا تستحق الاهتمام، ولكنه ساحر، فاحذري. فقد عرضت نفسك مرة ولم تستعملي حكمتك عندما ملت الى جون. فلا تتركي التاريخ يعيد نفسه. فهذه الاجتماعات تخلق علاقات غير مضمونة. لويس محبوب لكنه خفيف ولم تكتمل مقدراته الأولية. وعلاوة على ذلك فانه لن يرضيك اذ ليس بينكما نقاط مشتركة.

حنقت سوزانا عليه. نظرت بصرامة في وجهه وقالت:

ـ آوه، انت وتصنيفاتك يا مورغان! تصنف الناس تماماً كما تصنف خرافك. انك تبالغ في التركيز على الاذواق المتشابهة والتوافق والملاءمة و... كل شيء. هذا بعيد عن الواقع. يجب أن تكون ابن التربة الظريف وغير المعقد، ويجب ان تجد متعة في... الأمور البديهية... لا أن تنبش هذه الميادين. من يسمعك قد يعتقد بأنك عالم نفساني.

ظهر العبوس على وجهه. قال:

ـ ومن نصّبك محللا لاخلاقي؟ ماتعرفينه عني ليس ذرة مما لا تعرفينه. ما أدراك انني لا أجد متعة في اندفاع كهذا مثلا...؟

حاولت ان تعنفه ولكن بدون جدوى وضحك منها قائلاً:

ـ لا تتظاهري بأنك لستِ مهتمة بكل ما أفعله يا سوزانا... ! اعترفي. تقولين انني أبالغ في تحليل الأشياء بينما أنت تبالغين في اعطاء معادلات لكل شيء اقوله عن الاذواق المتقاربة وعن الدوافع التي تؤثر على الزواج في بعض نواحيه... مثل تعلق كلينا بالحياة هنا وحبنا للشعر ولقراءة الكتب، هذا عدا أشياء أخرى قد تجدينها مشتركة بيننا. في الحقيقة انت لا تعرفين شيئاً عني. ارجوك، لا تبدئي بالجدل. يكفيني ان تصفيقك ادار رأسي... والآن لنعد الى البيت ونشرب شاي بعد الظهر، أرى ان المغازلة تشحذ القابلية للأكل.

ـ مغازلة! (قالت بازدراء) هل تعتبر مثل هذا مغازلة؟

ـ اعرف، ولكن ذلك مقدمة لظروف أفضل، نكون فيها منفردين لا مهددين بمنظار كلوتيلد المدمنة على استعماله. ولو لاحظت وجودك قريباً مني لناديت النعجة الى داخل الخميلة لنكون بعيدين عن أعين المراقبين..

نظر إليها وهما ينزلان المنحدر وضحك قائلا:

ـ تحاولين اظهار نفسك مغتاظة لأنك تعتقدين أن عليك ان تظهري هكذا، ولكنك لست مغتاظة في الحقيقة. لقد استمتعت بلقائنا. أليس كذلك؟ استمتعت به فعلا.

ـ لا موجب للاجابة. (قالت له غاضبة) فانت تجيب على اسئلتك بنفسك. وتقول اني استمتعت بهذا اللقاء. ولذا لن أجيب.

ـ لا لزوم لجوابك يا سيدتي الجميلة. الصمت دليل الموافقة.

خنقها كلامه ونظرت اليه شزراً وهي تحاول ان تقول شيئاً ولكنها بدل ذلك ضحكت وضحك معها، ووقف كلاهما فرحين كأن شيئاً لم يحدث.

تعثرت وهي تمشي ولكنه اسندها، ثم قال بجدية:

ـ أنت أفضل الآن. لا شيء يضاهي الضحك لابعاد كل شعور بالعداء الذميم وغير المبرر.

أومأت برأسها وقالت وهي تمسح دموع الضحك:

ـ صحيح. كل شيء يبدو جدياً منذ ان اتيت من انكلترا. قد يكون ذلك بسبب الوضع المربك بيننا لأننا لم نر شيئاً ملموساً في خطوبتنا كما رآه الغير الذين يراقبون حركاتنا ويتساءلون عن مسلكنا غير الطبيعي.

ـ بالرغم من كل ذلك، نستطيع ان نعاود التجربة. ارجوك يا سوزانا، لا تقاطعيني او تمنعيني عن الكلام. ما قولك لو قلبنا صفحة جديدة؟ كل ما يقوله احدنا يراه الآخر بلون مختلف وذلك لأن علاقتنا منذ خمس سنوات كوّنت علاقة مصطنعة نعرفها نحن الاثنان فقط، وقيام تلك العلاقة بالخطوبة الصورية كانت مفاجأة لكلينا وأنا الذي دفعت بك الى هذه الخطوبة. وفي احدى اللحظات وقعت في حب جون وفي لحظة تالية رأيت ان جون مال بكليته الى فرنسواز، ومن ثم كنت في أعين الجميع مخطوبة لي. والخطوبة تقوم عادة بعد مضي مدة ما من التعارف والتقارب و... المغازلة. أوه، انظري وراءك ولكن بدون حركة عصبية. هذا ما أعني قوله... هذا الديك القزم... يغازل... ويفرش جناحيه أمام حبيبته...

يطلب منها ان تقلب الصفحة. يا له من أمل ضائع! كادت أعصابها تنهار. ضحكت ضحكة ساخرة عالية ملأت الهواء وقالت:

ـ مورغان، مورغان، انك ابله تافه! لم أسمع أياً من الرجال الذين

يحاولون التقرّب إليّ بطرقهم الرومنطيقية يتكلم عن ديوك في حديثه!

- اسكتي! خذي علماً بما سأقول. كل شيء حدث بيننا حتى هذه اللحظة يجب ان ننساه. سيشغلنا الاحتفال اللعين عن أي شيء آخر ولسوء الحظ لن تترك لنا الفرصة لنفرد اجنحتنا. وتذكري وأنت في معمعة العمل اني سأبقى افرد جناحي كل الوقت. انا هنا لأبقى وانت هنا لتبقي... كأننا في تعاقد... ويجب ان نخرج بنتيجة.

امسك بيدها وبدأ يجري فأخذت تجري معه:

- ستحضرين شاياً الآن، ولكن اتركي الحبل مرتخياً بيننا. تذكري اننا قلبنا الصفحة!

دخلا المطبخ وهي ما زالت تضحك ووجدا الجدة كلوتيلد متهمكة في خياطتها. بدا الارتياح في عينيها لما رأت من انسجام بينهما.

اتصل جون بسوزانا في تلك الليلة فور عودته من كرايستشرش:

- هل تستطيعين يا سوزانا ان تقومي بمهمة المضيفة غداً مساء؟ هل تتذكرين عائلة بلنغهام؟ التقيت بهما في اجتماع ولتون حيث القى المستر بلنغهام خطاباً وسيلقي غداً خطاباً آخر في تيمارو، ودعوتهما لتناول العشاء عندي. هل توافقين؟ يهمني كثيراً هذا الرجل.

- وهل سيمضيان الليل عندك أيضاً؟

- كلا. سيتابعان طريقهما الى اشبورتون حيث تعيش ابنتهما المتزوجة. قولي يا سوزانا. هل توافقين؟ انت ماهرة في أمور كهذه وهما يهتمان بك كثيراً بسبب والدك.

- حسناً يا جون، سأفعل ذلك من أجلك. في أي وقت تريدني هناك؟ سأكون عندك قبل نصف ساعة من الموعد. لا، ليس قبل ذلك. لن أهيء الازهار والمائدة ولن أحرم ايديث من هذه المتعة، انها ماهرة في ترتيب ذلك. وطالما أنك تريد الدخول في معترك السياسة فالأحرى بك ان تتمرس في الدبلوماسيات، وهذا يبدأ بتفهم الناس.

- ولهذا أنا احتاج اليك يا سوزانا، والا سأرتكب هفوات. قد انقلب الى اضحوكة. ضعي ذلك في بالك.

- أضع ماذا في بالي؟

- انني بحاجة اليك.

- يدخل الحبور الى قلبي ان اشعر بحاجة الناس اليّ. يقولون ان ذلك يرفع من المعنويات..

اعادت السماعة الى مكانها بعد حديث دام دقيقة أو دقيقتين وعندما استدارت رأت مورغان ينظر اليها من أسفل السلم. قال:

- يسرني ان وجهك لم يتلون بالأحمر والزهري مرة أخرى. هذا هو الفرق بين سن الاثنين والعشرين وسن السبعة والعشرين، اليس كذلك يا سوزانا؟

لم يثر غيظها هذه المرة ربما لأن صوته لم يكن متهكماً كالعادة كلما تكلم عن جون وسرها ذلك. قالت:

- شيء مضجر حقاً. سأقوم بدور المضيفة لاستقبال شخصين التقيت بهما في ولتون. سئمت من هذه الأدوار. ليس هذا من ميولي بالرغم من اني كنت أتقبل القيام بهذا الدور من أجل والديّ.

- هل صحيح ما تقولين يا سوزانا؟ هل هذا كل ما يهمك؟

- نعم.

- اذن لماذا تتمسكين برأيك؟ يمكنك تأسيس عائلة خاصة بك.

ابتسمت ابتسامة فاترة وقالت:

- هناك رباط قائم بيني وبين والديّ. تبعت أمي زوجها وتركت كل شيء آخر، ولكن حنينها الى سهول وأنهار طفولتها وصباها لم يبارح مخيلتها. ووسواسها الذي كان يعذبها هو اني قد أصر على البقاء هنا وأنا في سن المراهقة فتخسرني وتذهب كل منا في طريقها.

لم ينجبا غيري يا مورغان، ولم أرد ان تشعر امي بأنها ضحت بالعائلة لمصلحة مهنة ابي. فسيعودان في خلال سنة او سنتين الى نيوزيلاند ليستقرا فيها. ويأمل أبي في أن يحصل على مركز في كرايستشرش من النوع الذي يشغله وهكذا سيتمكن هو ووالدتي أن يمضيا هنا كل نهاية أسبوع. ويفكران الآن في بناء كوخ هنا لهذه الغاية. وبالطبع أيضاً لم ننسَ ان جدتي قد لا تصل الى هذه الفترة لتستمتع بوجودهما وهي في هذه المرحلة من سنها، وهذا ما يخيفنا أحياناً.

- اعتقد بأنه آن الأوان لأطلب العفو منك لسوء ظني بأنك كنت أنانية في اطالة بقائك في الخارج. من أسهل الأمور الحكم على الغير. أنا آسف يا

سوزانا روز. فلا تحقدي عليّ. كنت فقط قلقاً على كلوتيلد.

تمنت حالة لو أنه يضيف (وفي نفس الوقت كنت أتشوق لأن تعودي الينا) ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك. هذه هي طرق مورغان بلير الذي يتوقف دائماً في نصف الطريق. ولكنها سرت جداً بطلبه العفو.

- اني مدركة لتفكيرك هذا (اجابته مندفعة) سأطلعك على المزيد من أسباب تغيّبي عندما نكون منفردين وبعيدين عن مسمع جدتي- وقد تأتي في كل لحظة الآن- والاعتذار الذي قدمته، له اعتذار يقابله. اعتذر أنا أيضاً. اذ كنت اعتقد بأنك...

قطعت كلامها بصورة مفاجئة، ونظر اليها باستغراب ورأى تورّد وجنتيها.

- انك تحيرينني يا سوزانا. لا يحق لك أن تتوقفي هكذا. كنت تعتقدين بأني ماذا؟

تلاقت أعينهما ورأى شفتيها تنفرجان عن ابتسامة وعن اسنان غير منتظمة قليلا... وتراءى له وجه سوزانا ابنة الاثنتي عشرة وهي تعترف بخطأ ارتكبته. هذا ما قاله لها. الا انها اجابته:

- قد تغضب عليّ كثيراً.

أخذ يدها في يده وقال:

- جربيني.

- حكمت عليك خطأ أنا الأخرى. كنت أعتقد بأنك... اوه، كيف أفسر ذلك... بأنك متعلق باذيال مارتي في غياب زوجها. وتأكدت من ذلك وأنا عائدة مع جون من ولتون. رأيناك تبتعد بسيارتك وهي معك عن مطعم وايت هاوس. ولكنك لم ترنا. وأخذني جون الى ماتافلات وهناك فكرت كثيراً في الأمر. أقر بأني ظلمتك. اني آسفة يا مورغان. انت فقط كنت تسرع بها لتلتحق بفيليب.

أخذ يفرك قفا يده بابهامه وهو يضحك. رأت الفرق بين مورغان اليوم ومورغان الأمس. الأول أقل ارتباكاً من الثاني. كم مرة يكون الكلام بينهما وسيلة لتبادل الاهانات بينما هو الآن يشكل نوعاً من الرباط.

- أحب أن أصرح بدون التواء ويفخر انني لست من النوع الذي يلتصق بأذيال زوجة رجل آخر، ولكن كلامك لم يشعرني بالاهانة يا بلهاء. مارتي

كانت قبل زواجها احدى الفتيات العديدات اللواتي كنت اخرج معهن في بعض الاحيان، ولم تكن العلاقة بيننا اكثر من صداقة. واعترف انه ربما انزلقت مع مارتي لو انها لم تكن امرأة مستقيمة... وكانت تقول لي انها لا تعطي اهمية لعلاقات خاصة. مثلا خرجت مع احدى قريبات عائلة بيشتون في تاوهاي وبنتا ثانية كانت تساعد عائلة لوجي في ابليندن بعد زواج مارتي. اعتقد ان اسمها جني أو شيئاً كهذا أو ربما جين. وأنا جازم من أنك خرجت مع الكثير من الرجال في حياتك خاصة أن نمط حياتك في الخارج يتطلب ذلك وحيث تستوجب الأوساط الرسمية مرافقة السيدات. أليس كذلك؟

- طبعاً.

- ومنهم من حاول التقرّب إليك بكلمات ود... طبعاً. وربما شعرت أحياناً بنبض قلبك يتسارع من أجل واحد منهم... وهذا شيء طبيعي معنا جميعاً. هكذا كانت علاقتي بمارتي. ربما حدث ذلك أحياناً. هل هذا هو ما حاكمتني عليه في المدة الأخيرة؟

- نعم... على الأقل...

- حسناً. تعالي معي الى المكتب. هناك شيء يتعدى حدود الأمور الشخصية.

فتح لها البابَ ودخلا. جلست على المكتب وتركت ساقيها تتدليان. كانت مرتدية قميصاً بنّياً من الحرير وله ياقة خضراء وبنطلوناً عاجيّ اللون فيه طيّات عند الخصر وصندلا اخضر. كانت عارية القدمين ونظرت الى أصابع رجلها وهي تحركها. قال مورغان:

- كفّي عن التظاهر كفتاة مراهقة. هل تودّين ان تضيفي شيئاً آخر ضدي؟

نظرت اليه متوسلة:

- هل تعدني يا مورغان بأنك لن تغضب؟

- لا اعد بذلك. قد اغضب منك ولكن ذلك لن يطول.

اقترب منها فالتصق جانبه بساق الطاولة التي كانت تجلس عليها. واضاف يقول:

- قد يسليني كلامك. تابعي يا سوزانا. أفضل شخصك الحالي على

شخصك الذي أتانا من لندن زاخراً بالسخرية والاعتداد بالنفس.

- راقب كلامك يا مورغان لوولين هرفنتون بلير! فانا التي ستغضب اذا بقيت تتكلم هكذا. لا تعتمد على حسن تخلّصك اكثر من ذلك.

- هيا يا بنيّة. انظري الى الوجه الآخر من اخطائي.

- لم أتقبل قولك ان فرنسواز لم تكن سعيدة، واعتقدت انك ادعيت ذلك فقط لتحذرني من جون ولتضع العراقيل في طريقه. لم تكن منصفاً بحقه. لا تقل أي شيء الآن. اسمعني حتى انتهي. وأعرف الآن انك كنت عادلا في حكمك. ولكن عندما تكلمت مع جون ذاك الصباح- لم اذكر له شيئاً عن قولك- سألته ان كانت فرنسواز تعيسة لاعتقادها بانه اختارها بديلا عن واحدة أخرى يحبها ولكنه لم يحصل عليها.

نظر مورغان بخبث وقال:

- لنوضح الأمور. يجب ان اعرف ولذا فان لي الحق في مقاطعتك. في اعتقادي أن هناك سبباً واحداً دعاك تسألين جون عن ذلك... لأنه قال لك أنك الأولى في قلبه. وهذا تمهيد لطلب يدك.

- انت ماكر. لم اعطه الفرصة ليصل الى هذه المرحلة لأني قاطعته لافهمه بوضوح اني لا أتحمل ان أرى فرنسواز تعيسة بسببي. فقال انه مهما اختلف الناس بأن فرنسواز لم تكن سعيدة فان السبب الحقيقي هو انها كانت تحن الى تاهيتي وهذا شيء طبيعي. وغضبت منك لان الحنين الى البلاد نوع من المرض تصعب مقاومته. اضطررت لأن ابقى كل هذه المدة بعيدة عن موطني... ورسب في ذهني انك كنت تستغل شقاء فرنسواز محاولة منك لتمنعني من الاشفاق على جون حتى اني تركت العاطفة تتغلب على العقل كما تقول انت. ولكن الآن...

غلب عليها البكاء ولم تكمل حديثها. مال نحوها واتكأ بذراعه على الطاولة ووضع ذراعه الأخرى حول كتفيها وقال:

- تعرفين الآن انها عاشت في تعاسة وأتمنى لو كانت حياتها عكس ذلك. وكنا حيارى من أمرنا لأننا كنا متفرجين لا حول لنا ولا قوة ولم نستطع تقديم اي شيء لها غير عطفنا. والآن كيف اكتشفت ذلك؟

- ايديث رايموند هي التي اخبرتني بقصتها وكان ذلك صدفة. ولكن لا تظن انني كنت اتطفل في شؤون الغير. قالت لي ايديث بأنها لم تطلع احداً

غيرك وغير كلوتيلد على ما قالته لها فرنسواز في ساعة الامومة السعيدة الاولى والأخيرة. واعتبر اطلاعك على هذا تكريماً لخلقك يا مورغان. وجعلتني أيديث أتصوركم وأنتم ترون خروج النور والبهجة من عيني فرنسواز. ولا فرو أنكم حنقتم عليّ لعدم قدومي يوم موتها. ما الذي اتعس فرنسواز يا مورغان؟ هل تقع الملامة على جون؟ فقد نظلمه اذا اعتقدنا ذلك.

- يؤسفني ان اقول لك هذا يا سوزانا. ولكن اياك ان تعتقدي بأنني اتكلم ضغينة. انك تذكرين طبعاً قول لويس بأن اعمال والده تحطمت بصورة مروعة وكيف ان والده حافظ على سمعته وسدد كل الديون التي كانت حصة شريكه فيها أكبر من حصته. الا ان جون حقد عليه لهذا المسلك الدونكيغوتي. فقد كتب لحميه ليقول له بان عمله الذي قام به ارضاء لضميره حرم ابنه لويس وابنته فرنسواز من ارث يعود اليهما. كان والدهما من الأثرياء الكبار جداً وخصص لفرنسواز علاوة او دخلا سخياً ولكنه كتب لها فيما بعد ليعلمها بان ذلك سيتوقف وأجابته فرنسواز بانها ليست بحاجة اليه. فأرسلت له كل فلس كانت قد ادخرته قائلة بأن لها زوجاً وبيتاً ويجب ارجاع كل شيء له. حدثت هذه الاتصالات في غياب جون. وعندما عاد غضب وحنق وكتب لحميه ينتقده انتقاداً لاذعاً واستمر في مهاراته بهذا الخصوص. ولما علمت فرنسواز بهذا الأمر عن طريق والدها لم تتمالك نفسها من الغيظ ولم تصدق درجة القسوة التي استعملها جون مع أبيها ودرجة الجشع التي وصل إليها. وفي احدى الليالي الهادئة التي تسبق العاصفة هنا خرجت لتتمشى قليلا ولتخفف من الألم الذي كان ينخر في عظامها. ولأنها كانت حديثة العهد ببلادنا لم تفهم دلائل اقتراب العاصفة في الطبيعة ولما لفتوا انظار جون لتغيبها اكثر من المعتاد قال بانها تحب أن تختلي بنفسها في نزهة ليلية. وكان الوقت متأخراً جداً عندما شكل حملة للبحث عنها وكنت أحد افرادها. أنا الشخص الذي وجدها ولحسن الحظ لم يكن الدكتور ماك بعيداً عنا. ولكنها اسرّت لي قبل ان يأتوا الينا بأنها كانت مصابة بالتهاب في الرئتين، ولو لم تطلعني على نوع مرضها لاحتفظت به لنفسها ولقضي عليها. استعادت صحتها قليلاً، ولكن شيئاً ما ظلّ ينقصها.

توقف قليلا ثم استأنف قائلا موجهاً كلامه اليها شخصياً:

ـ اني آسف يا سوزانا لأني اثقل عليك بحديثي هذا. لست ممن يحبون اعادة القصص الحزينة، ولكني اسردها عليك لأجلك انتِ لأنه يجب ان تعرفي كل شيء. اكره ان يستخدم جون فتاة من صنف فرنسواز.

تحسرت سوزانا داخلياً لأنه لم يقل انه يكره ان يستخدم جون فتاة مثلها هي، مثلما استخدم فرنسواز. لماذا يعمّم في كلامه بدل ان يحصر؟ لكنها خجلت من نفسها لتفكيرها هذا وطردت الفكرة من رأسها. ثم قالت:

ـ اذن هذا ما عنته فرنسواز ولم تعده ايديث على مسامعك عندما قالت وهي تنتظر الأمومة:

ـ طفل يحبك بدون حدود او مسببات... ليس لما تملكين بل لشخصك انت فقط.

أخذ رأسها برفق وقال:

ـ هذا كل ما هنالك، ولكن كل شيء انتهى. لا يجب ان نحزن الآن. كانت تعرف تلك الساعة وتنتظرها. امسحي عينيك يا حلوتي. ليس لنا ان نحزن طويلا على أشياء قديمة، مؤلمة، بعيدة في الزمان. هاك منديلي.

ـ يبدو انك التقطت بعض العبارات الفرنسية من جدتي. ناديتني بيا حلوتي بالفرنسية. أوه، ما هذا؟ يبدو ان احداً ما في الصالون. لكن من...

انصت مورغان بانتباه تام. تأتي الاصوات عادة من كلوتيلد ولويس حين يتناديان أو يتحادثان بصوت عالٍ، لكن هذا الصوت خفي ومتلصلص...

وضع مورغان يده على فمها وهمس قائلا:

ـ مُتنصِت، على ما أعتقد. لا تتحركي.

خرج على أطراف قدميه الى البهو فالى باب الصالون. ولم تعمل سوزانا بنصحه فتبعته. ادار مورغان مقبض الباب بهدوء تام وفتحه بحركة سريعة جداً وصرخا بصوت واحد مندهشين «لويس!» وبقي كل منهما فاتحاً فمه من شدة الذهول.

استدار لويس على نفسه وكاد يسقط اناء خزفياً من صنع سيفر كان بين يديه وذهل هو الآخر لهذه المفاجأة وقال:

ـ بحق السماء.

ولم يكمل كلامه لأن مورغان وسوزانا انفجرا ضاحكين وغطى ضحكهما صوته. قال لويس:

ـ لا أجد ذلك مضحكاً. كدت احطم الاناء!

ـ نأسف يا صديقي. (قال مورغان) لم نقصد أي سوء، ولكننا فوجئنا. وقد يكون هذا من تأثير مشاهدة افلام الجرائم على شاشة التلفزيون، ظننّا أننا أمسكنا بأحد يتنصّت علينا. كنا في المكتب وصوت تحركك كان مكتوماً فغزت مختلف التصورات مخيلتنا. حاولنا في عملنا هذا الدفاع عن كنوز العائلة وكدنا نخسر قطعة منها. وأنتِ (قال لسوزانا مؤنباً) لماذا لحقت بي؟

ـ كيف اتركك تأتي لوحدك يا مخبول؟

انفجر مورغان ضاحكاً وقال:

ـ القزمة القديرة! ديك قزم يتصدى للدفاع عن نسر!

ـ اخطأت في تقدير الجنس الآخر، برهنت على ضيق فهم كعادتك في الظروف المثيرة.

ـ آه، انت تتذكرين كل شيء.

تحولت بنظرها الى لويس الذي كان عابساً- وعلى حق- لأنهما حادا عن طريقهما وقالت له:

ـ سامحنا يا لويس لاعتقادنا بوجود لص في البيت.

ضحك لويس وقال:

ـ لا تستحقان أقل من لقب البلهاء! كانت حركتي مكتومة صحيح، اما متلصلصة، فلا. كنت فقط آخذ شيئاً وأعيده الى مكانه بكل انتباه ولكنكما اقتحمتما الغرفة مثل ثورين هائجين. كلمتني العمة كلوتيلد اليوم عن بعض الأدوات الفرنسية التي جلبتها معها، وكنا نحاول ان نصنف الاشياء التي أتى بها أوائل المستوطنين الفرنسيين والأشياء التي ذهبت الى اكاروا على مر السنين مع نسل من زاروا فرنسا.

قالت سوزانا:

ـ أستطيع ان اتعرف على بعضها. هذه العلبة مثلا. كنت مع والدتي في فرنسا عندما أتت بها لترسلها الى جدي يوم عيد ميلاده ليحفظ فيها ازرار

أكمامه. انها تعود الى القرن الثامن عشر. وهذا الشمعدان قدمه لي شخص من عائلة روسينيول عندما مكثت معهم في نورماندي.

قال لويس موضحاً:

- بالطبع أنا مهتم بالاشياء التي أتت من افراد روسينيول المتصلين بفكتورين اكثر من اتصالهم بكلوتيلد التي لها معهم علاقة زواج فقط. واتصور ان قنينة الخل هذه اتت من عائلة روسينيول. كانت هناك واحدة تشبهها كثيراً في تاهيتي.

- كانت؟ (سألته سوزانا).

- كل شيء بيع لتسديد ديون الشرف.

لم يتكلم احد منهم برهة من الزمن، لأن تضحية مثل هذه تدخل الغصة في حلق الانسان. ذهب كل ما ورثوه من مفروشات وأدوات ثمينة، الا ان والد لويس وفرنسواز مات بضمير نظيف ومرتاح أثر هذه التضحية.

كسر مورغان فترة الصمت هذه عندما قال:

- طالما نحن بصدد آل روسينيول، يجب ان نرافقك الى أكاروا قريباً. اتصلت بنا السيدة اليوم للمرة الثانية. وبهذه المناسبة سنمنح أنفسنا يومي عطلة هناك قبل اقتراب موعد الاحتفال. هذا سيفيدنا جميعاً. وفي كل الأحوال، فانه لو صدف واتصلوا بك لتذهب الى اوكلاند أو بابيته فانك ستعرّج على اكاروا لتراها.

أجاب لويس بسرعة:

- هل انت متأكد يا صديقي من انك تستطيع ان تضحي بشيء من وقتك؟ قلت ان العمة اليز ستكون هنا لحضور الاحتفال، الا يكفي هذا؟ كنت نافعاً في حينها وانطباعاتي عن زيارتي الأخيرة هناك مشوشة.

- كلا. هذا لا يهم. وقد تنزعج السيدة كثيراً اذا لم تزر دار روسينيول الآن وقد اصبحت متحفاً، وستعود الذكريات الى ذهنك كالفيضان. هذا أكيد.

أضافت سوزانا على قول مورغان:

- كنت تحب اكاروا كثيراً يا لويس منذ خمس عشر سنة، كما كنت مولعاً بالتسلق حينها. تذكر عندما تركونا هناك بضعة أيام وأخذتني انت الى كل انحاء جبل بوسّو... ذلك الاحدب اللطيف الذي يحمي الخليج من رياح

القطب الجنوبي فيجعل زراعة الكرمة والازهار نصف الاستوائية وأفضل جوز في نيوزيلاند أمراً ممكناً.

قال مورغان:

- سنقوم بالرحلة في أوائل الاسبوع المقبل.

كانت سوزانا كثيرة التردد وهي تلبس لعشاء جون فورستير في الكورج. ولقد توقع جون ان يراها حسنة الملبس.. اختارت ثوباً من حرير الشاي ذي اللون الاخضر الزيتوني والمزركش بالاخضر الليموني وذهب الميموسا أو زهرة الاكاسيا، والبني الخشبي. وكان تعليق مورغان عندما التقى بها عند اسفل الدرج انها بشعرها الباهت تشبه عثة في ضوء الغسق.

تبرمت منه قائلة:

- افضل ان اكون فراشة زاهية باللون البرتقالي والاسود. الجمال في التباين. الالوان الزاهية، والفراشات المتباينة الالوان جميلة بحد ذاتها ولكنها ليست على ذوقي. (ضحكت سوزانا من كل قلبها تحبباً لأرائه السخيفة الظريفة المورغانية وقالت) ليس في امكان أحد ان يتهمك بتقديم مديح تافه. انت لا تشبّه، ابداً، فتاة بالوردة او بالنجمة أو بشعاع القمر... فقط تقارنها بعثة أو تتكلم عن ديوك قزمة.

أجابها بامتعاض مكبوت:

- لا يمكنك تصور نوع مديحي اذا اندفعت في المديح.

توترت اعصابها قليلا وقالت:

- انك تختلف عما كنت عليه منذ خمس عشرة سنة، حتى منذ خمس سنوات.

- من لم يختلف؟ انت اختلفت ايضاً. منذ خمس عشرة سنة كنت ابنة اثنتي عشرة سنة مقابل سنيّ الثلاث والعشرين، ومنذ خمس سنوات كنا في الاثنين والعشرين والثلاث والثلاثين. حتى في تلك الفترات لم نتساو تماماً. اقحمتك في خطوبة ظاهرية لانقذك من ورطة ولكنك كنت تنظرين اليّ كرجل أكبر منك سناً انقذك من زورق اوشك على الغرق في اوحال المستنقعات ومن ثم ضربك على قفاك عقاباً لك وأنقذك مراراً بعد ذلك ممن هم اكبر منا...

اخفض صوته ولانت أسارير وجهه واضاف يقول:

ـ ويداخلني شعور الآن اني سأضطر لنجدتك من جديد. فقد عدت بعد مضي سنتين من موت قريبتك فرنسواز الى حبك الأول، والآن اعرفه اكثر من ذي قبل. في أول وهلة شككت في ان جون كان يكد ليغتني بكل ثمن، ومنذ خمس سنوات كنت متأكداً من انه ودّ ان يتركك ليتحول الى فرنسواز لأنه وجد ان أمامك وقتاً طويلا لتصبحي وريثة لوادي لارشوود خاصة وان والدتك تأتي قبلك في حقوق الوراثة بينما كان والد فرنسواز غنياً وهي الوريثة المباشرة مع اخيها لويس. وشعرت بمرارة بسبب تغييك عن جدتك مدة طويلة من الزمن في الوقت الذي كانت فيه في أمسّ الحاجة اليك. كل ظني ارتكز على الاعتقاد بأنك لم تريدي الرجوع الى الرجل الذي كنت تحبينه بعد ان تزوج من فتاة غيرك، ولكني أملت في ان قلقك على عجوز تعيش بمفردها سيعيدك الى رشدك ويأتي بك اليها. ولما عدت كان هذا الرجل طليقاً بعد موت زوجته وحنقت عليك من كل قلبي. ولكن منذ رجوعك عملت بجد ونشاط وأظهرت بهجة جامحة بعيشك هنا وكرّستِ قلبك ووقتك لجدتك.. حتى اني رأيت نفسي مرغماً على الاستنتاج من انك انت أنت، تلك الفتاة التي عرفتها. ولذا تقبلي اعتذاري عن كل ما ظننته فيك. ربما وجدت نفسك في محنة قاسية عندما تزوجا.

ـ الآن استطيع أن أخبرك يا مورغان (قالت سوزانا) لم تواتيني أية فرصة حتى الآن. ولن تسمعني جدتي لأنها تستمع الى الراديو في هذه اللحظة ولا يجب ان تعرف قبل مجيء والدتي لحضور الاحتفال وترى بأم عينها ان ابنتها في صحة جيدة. انت تعرف ان جدتي فقدت ثلاثة من اولادها وارتأينا أن لا نخبرها انها كانت على وشك ضياع ابنتها. سأروي لك كل شيء باختصار لضيق الوقت، قبل ذهابي الى بيت جون لاستقبال ضيفيه على العشاء مع انني اتمنى لو ابقى هنا الليلة...

اطلعته على كل شيء عن مرض والدتها. كانت وهي تتكلم تتابع انفراج اسارير وجهه ولمعان عينيه، وودت لو انها لا تذهب الى بيت جون في كورج فورستير. قال مورغان:

ـ هذا يعطي طابعاً للأمور مختلفاً كل الاختلاف. انكم على حق في عدم اطلاع الجدة قبل مجيء ذويك والا لانقلبت حياتها رأساً على عقب هذا ان لم يصبها سوء أكبر من ذلك. واعتقد انها لم تتأثر بغيابك الطويل اكثر مما كنت

اتأثر انا بشأنها. انها امرأة لا تكنّ ضغينة حتى على الضربات التي تكيلها لها الحياة وترى الأمور من وجهها الضاحك بدل ان تزنها من ناحيتها السوداء. تكلمنا عن اولادها في ذكرى يوم انزاك آملين من ذلك الا تذهب لحضور الصلاة أمام النصب التذكاري في فجر يوم الذكرى. ولكنها ذهبت قائلة بأن حضورها واجب للوطن ولاولادها في أحياء ذكرى الفيلق الاوسترالي النيوزيلاندي الذي تشكل في الحرب العالمية الاولى وحارب على عدة جبهات خاصة على جبهة الداردانيل. سألتها كيف تجلدت وتحملت ذلك. قالت انها تقبلته كجزء وكفرض من الحياة عليها وفسرته على طريقتها: «ربما زوّدتني الطبيعة عند ولادتي بقدرة تعينني على أخذ الأمور على علاتها وعلى التعايش معها وعلى عدم اشراك الآخرين كثيراً في أحزاننا. عاش أجدادنا أهوال الثورة الفرنسية... وقاسوا مرّ الفقر واليأس في السنوات التي تلتها حتى وجدوا سنة ١٨٤٠ حياة جديدة على شواطىء (اكاروا)».

توقف عن الكلام ربما ليتجه اتجاهاً مختلفاً في حديثه اذ قال:

ـ حدثنا عن حديثنا الاساسي. قلتِ ان واحدنا يختلف عن الآخر، وان الوضع يختلف أيضاً.. الآن اصبح اقرب الى الطبيعي لأننا لم نعد سجينين لزيف التظاهر بالخطوبة. أنت تعرفين جون فورستير على علاته، ولكن الأمر يختلف بالنسبة الي. فانك لا تعرفينني جيداً. لذا دعينا نبدأ طريقنا من هنا ونتمهل.

بتمهل؟ لا تريد هذا التمهل. تريده ان يجرفها جرفاً. لكن الجرف ليس من طرق مورغان ويجب ان تواجه الأمر الواقع. لن تتحول العاطفة بينهما عاطفة جامحة وانه لحماقة منها ان تشتهي ذلك وان يشتعل قلبه مقابل اشتعال قلبها. لذلك فان عليها ان تقتنع بأقل مما تشتهي اذا رغبت في ان يطلب مورغان منها ان تشاركه حياته.

ـ اللعنة لهذا العشاء. دعني أوصلك الى هناك وأعيدك بعده.

ـ ليس لدي أية فكرة عن ساعة رحيل المستر والمسز بلنغهام يا مورغان. من المستحيل تعيين وقت لمجيئك.

ـ اتصلي بي تلفونياً.

ـ هذا ما أريد تجنبه بالضبط باستعمالي سيارة الهنتر، لان جون عرض عليّ ان يأتي ليأخذني ويعيدني بعد العشاء واذا اخذتني انت سيصر على

اصطحابي الى هنا عندما يسمع أنك آت لتأخذني. أمامنا مجال واسع للكلام.

ـ اتعتقدين ذلك؟ ولويس الموجود في كل مكان هنا؟ كنت متأكداً من انه سيزور ليك كنتري وقد يتصل بعائلة بودونيه في درايفنزهيل ليمضي عطلة نهاية الأسبوع معهم. وظننت أنه بالرغم من انه لم يعد يتسلق الجبال فقد يذهب ليرى منطقة ماونت كوك. ولكن كل هذه الآمال طارت مع الريح. قال انه يفضل تمضية كل هذا الوقت هنا.

ـ هذا لطف منه. هكذا هو لويس. يحب الارتباط العائلي. يجب ان اذهب يا مورغان. شيء مضجر حقاً!

ظلّ يراقبها وهي تقطع البهو وهي ذاهبة لتودع جدتها، وابتسم لنفسه كأنه راض عن كل شيء.

٧ـ تبيّن لها كذب جون، فأزاحت فصلاً شائكاً من حياتها... ثم أخذت تتعرف على حبّها لمورغان، حين علمت انه كان يلازمُ جدتها ليتقصّى أخبارها، وانها لم تفارق تفكيره طوال هذه السنوات.

بالنسبة الى سوزانا تشبه هذه الأمسية إلى حدّ كبير العشرات من الأمسيات التي جالست فيها الى المائدة في مدن عديدة خبراء من عالم التجارة والزراعة والأسواق والأسعار. لم يبد الضجر على غريتا بلنغهام ربما لان زوجها جزء من المشهد.

أما جون فقد كان في السماء السابعة وهذا جانب لم تعهده فيه من قبل وكشف لها المرحلة التي مر بها منذ أيامه الأولى. ولأول مرة رأت انه لن يأسف أحد اذا انتقلت املاك كورج فورستير من أيدي العائلة التي امتلكتها وادارتها منذ الخمسينات في القرن الثامن عشر الى أيد أخرى.

أعجبت بمهارته وبمعرفته الدقيقة في الأمور والمواضيع التي تثير اهتمام بروس بلنغهام. سيكون جون سياسياً ناجحاً ولكن غريزتها والمعرفة التي اكتسبتها بيّنتا لها انه يحتاج الى الاخلاص والأمانة المعروفة في اشخاص مثل روب ملدون و كيث هولي اوك وجون مارشال ونورمان كيرك. واذا نال مقعداً خلفياً في جهة حزبه في مجلس العموم فانه سيتحجم ولكنه سيستفيد من ذلك. ولكنها سخرت من مقارنتها لجون مع هؤلاء الرجال الذين كانوا رؤساء وزارات وعمالقة في ميادينهم بينما جون لا يزال مبتدئاً.

بعد ان ازالت أيديث رايموند الصحون وغير ذلك من بقايا العشاء الممتاز وجلس الجميع في الصالون تحول الحديث الى مواضيع عامة. ودخلت سوزانا في حديث مع غريتا بينما كان يتفحص الرجلان بعض الأوراق. قالت غريتا:

ـ فهمت من جون ان لكما نفس الخلفيات وان أجدادكما أتوا على ظهر

www.elromancia.com

باخرة واحدة في الخمسينات من القرن الثامن عشر وعبروا السهول حتى وصلوا الى هذه الجبال واستولوا عليها.

ـ نعم. كانوا ثلاثة. هناك عقارات غير هذه نحو الغرب، هي تلال بلير التي يديرها آل هرفنتون بلير. ومن عاداتنا القيام باحتفال لأبناء هؤلاء الثلاثة كل عشر سنوات وآخر احتفال أقمناه كان منذ خمس سنوات. ولأن جدتي في الثمانينات من عمرها سيقام الاحتفال هذا الاسبوع، فقد يكون آخر احتفال تحضره الجدة. ويأتي المتحدّرون من كل حدب وصوب.

تكلمتا عن الاخطار التي تعرض لها الرواد وعن أعمالهم المجيدة، وكان اهتمام كل منهما متبادلا. ثم قالت غريتا بصوت منخفض:

ـ ان جون رجل قدير جداً وقد يحظى بمستقبل باهر بعد ان يتدرج في حقل السياسة. لسوء الحظ فان كثيرين من المبتدئين لهم طباع حادة ويتوجب صقل اطرافهم الخشنة، ولكننا نعتقد ان الأمر يختلف مع جون. فجون لطيف اكثر مما يجب... واذا اعتبرنا هذه العبارة ضرباً من المبالغة فأقول انه سلس. (اخذت بعض الوقت قبل ان تضيف) أرجو الاّ تغتاظي من صراحتي يا عزيزتي. ارى انك تستطيعين مساعدته... لك القدرة، على ذلك، كامرأة. واني لعلى يقين من انه لن يفطن الى ذلك ولهذا فشل في الحصول على السفر في مهمة كان قد طلب القيام بها. لم يكن ذلك مهماً بحد ذاته الا انه خطوة الى الامام. فمقامات الحزب العليا يرون ان الشخصيات التي كان سيتصل بها في الخارج تتوقع منا ان نرسل لها شخصاً أقوى شكيمة وأكثر جرأة. وآمل انك تتفهمين ما أعني. فقد يندفع بدبلوماسيته الى الانحراف عن الحقيقة خوفاً من التصادم بسبب اختلاف الآراء... أوه، اعتقد انني قسوت عليه.

ضحكت سوزانا في داخلها لأن غريتا لم تبعد عن الحقيقة مطلقاً بل كشفت عن ناحية فيه، كادعائه بانه هو الذي تراجع عن السفر في تلك المهمة لأجلها هي بعد ان علم برجوعها الى بلدها... يا له من ماكر! قالت سوزانا:

ـ لا ضير عليك يا مسز بلنغهام وأفهم ما تعنين. يجب ان يكون جون اكثر من مجرد واحد من أزلام الغير او ذنب لهم، يوافق أو يرفض لأن رؤساءه وافقوا أو رفضوا.

ارتاحت غريتا لهذا التقارب مع رأيها وقالت:

ـ بعضهم يولدون سياسيين والبعض الآخر يصنعون أنفسهم. في أيامنا الاولى كثيراً ما كنت انوّه لبروس عن طرق أفضل لانجاز الأشياء وأعمل على الحد من عنفوانه لأنه كثير الجرأة. والرجل يتقبّل توجيهات المرأة أو انتقاداتها بامتعاض أخف بكثير من تقبلها من أعضاء حزبه. هذا ما أعتقده على الأقل.

ـ اعتذر يا مسز بلنغهام اذا قاطعتك. انك تتكلمين كما لو كنت توجهين كلامك الى زوجة أو خطيبة. لست زوجة جون ولا خطيبته ولن أكون أبداً لا هذه ولا تلك.

ـ ولكن جون يؤكد... (بدا ذهول صادق على وجه غريتا) أوه، ام هذه مجرد تصوراته عنك واعتبرتها انا حقيقة واقعة؟ أيتها المسكينة!

ـ جون حرّ في ان يتصور ما يشاء وأنا حرة من كل تصور. ويحسن بي يا مسز بلنغهام أن أضعك في الجو. أحس كل منا بانجذاب متبادل لفترة قصيرة جداً دامت خمسة أسابيع فقط وذلك منذ خمس سنوات. وتبين لي انه ليس الرجل الذي أبحث عنه اذ لا توجد أشياء كثيرة مشتركة بيننا، ولا ملامة تقع عليه. فبينما كان والدي يعيش في الخارج وأعيش أنا في وادي لارشوود، هنا، ظننت أني أحببت جون، لا بد أنك تفهمين ذلك.

ـ افهم يا صديقتي. افهم ذلك جيداً. تابعي.

ـ ولذا تراجعت. فتزوج جون قريبة بعيدة لي، ابنة فرنسية من ناهيتي. وربما قيل لك بأنها ماتت وماتت أبنتها معها. كنت كاتمة اسرار والدي لعدة سنوات والآن هو مع والدتي في كندا، لقد وجد لنفسه بديلا عني وبهذا تمكنت من العودة الى هنا لأبقى مع جدتي. مضى سنتان على موت فرنسواز وربما أعتبر جون عودتي تقرباً له، ولكنني أوضحت له الأمر وأفهمته اني لست مهتمة بذلك.

ـ لا تكفي الشفقة والتعاطف للزواج، ولكن جون كان يتكلم بلهجة واثقة عن خلفياتكما، وعن خبرتك في العمل مع والدك مما جعلنا نعتقد بوجود نقاط مشتركة بينكما. انك حديثة العودة بعد، فربما مع الزمن...

ـ هذا مستحيل. كيف افسر لك ذلك؟ هناك شخص آخر في حياتي ولن يكون احد غيره. هذا ما يمكنني قوله الآن.

ربّت غريتا على ركبتها وقالت:

ـ بالطبع. أرى انك تحومين لتتبيني حقيقة أمرك. هذه أيام رائعة، كلها سحر وتخوفات، وصعود ونزول. النساء يعرفن ذلك. أنا وبروس مستقران الآن ومقتنعان بالحياة، وقد عبرنا مرحلة الصعود والنزول أيام الخطوبة والمغازلات. وهذا جعلني أجزم بأن ما قاله جون كان حقيقة وليس مجرد تمنيات مثلما جعلني أجزم أيضاً من طريقتكِ في استقبالنا، أنك تحبينه.

ـ هذا لطف بالغ منكِ. لكنني لا أحب ان تلمحي بأي شيء من هذا لجون وتستطيعين ان تؤكّدي عن لساني، بينك وبين زوجك، انه لا توجد علاقة خاصة بيني وبين جون، كما لا يوجد قرار نهائي بخصوص الرجل الآخر، ولكن...

ـ اعرف وأتمنى لك الخير، ولن أكلم أحداً عن ذلك غير زوجي. ومع ذلك، بصفتك صديقة قديمة لجون، يمكنك اغتنام الفرصة لتقديم النصح له بأننا في نيوزيلاند نفضل السياسيين الخشنين على الناعمين اللطيفين والذين يتحلّون بالأمانة والاخلاص على الذين يعتمدون على قوة سحرهم الشخصي، الاّ ان جون يمتلك ورقة رابحة، هي صوته الذي يمكنني وصفه بالصوت العسلي. فقد يستطيع استغلاله ليسحر الجمهور ولكن هذا لا يكفي. المهم هو ما يقوله السياسي لا كيف يقوله. تعرفت على سياسيين أصواتهم تشبه الحشرجة ولكنهم كسبوا ثقة الشعب لأنهم برهنوا على اخلاص ورغبة متأصلين لخدمته لا لبوتقة السلطة وخدمة مصالحهم الخاصة.

نظرت سوزانا الى غريتا باعجاب واحترام كبيرين وقالت:

ـ اعتقد يا مسز بلنغهام ان زوجك أصاب حظاً لا يقدر باختيارك رفيقة له. اني لاتصور مساندتك له بادراكك الحسي للأمور في أكثر من مرة. لست من النوع الذي يمكنه قول مثل هذه الأشياء لجون. ربما استطعت انت القيام بذلك يوماً ما، واذا طبّق نصائحك فقد يصبح أفضل مما هو عليه الآن. انظري. اظن انهما انتهيا من عملهما.

كانت الساعة التالية ممتعة جداً. كان حديث بروس وغريتا في مواضيع تستوعبها سوزانا استيعاباً تاماً من جراء مشاركتها في التجارة الخارجية ولاحظت نظرات الاعجاب في عيني جون ولكنها كانت تتفاداها، لأنها

عرفت مغزاها الذي يعني أنها ستكون له زوجة ذات قيمة عظيمة.

انتهت الزيارة وذهبت سوزانا مع غريتا الى غرفة النوم لتأخذا سترتيهما. ولما رأى جون سوزانا تحمل سترتها فأبدى دهشته قائلاً:

ـ ظننت انك ستمكثين برهة من الزمن يا سوزانا، لأنني لن أحظى بمرافقتك الى البيت.

ـ لا أريد ان أتأخر أكثر من ذلك يا جون. هناك من يظل ساهراً حتى أعود.

ـ لا أعتقد ان جدتك المسنة تبقى حتى هذه الساعة ولا مورغان الذي ينهض مبكراً.

ـ ان جدتي ومورغان ولويس يسهرون كثيراً. أنسيت عادات جدي وجدتي اللذين كانا يفضلان ساعات السهرة ويقولان انهما من الذين يكتفون بساعات قليلة لينامو هانئين؟ كانا ينتبهان كثيراً لتنظيم حياة المزرعة التي كلها عمل وأكل ونوم ولا يضفي عليها قيمة الا القراءة والحديث في ساعات ما بعد العشاء.

التفت بروس ناحية غريتا وقال:

ـ هذه هي عاداتنا أيضاً. فكثيراً ما يسهر كلانا خارج البيت، كل في مكان مختلف، يعود ينتظر الآخر، فنمضي معاً ساعة أو ساعتين قبل النوم، والغريب انه رغم مرور ثلاثين عاماً على زواجنا، نجد الكثير لنتكلم عنه. يا الهي! ثرثرت كثيراً. الم اضجركم؟

ـ كلا. سوزانا لا تضجر (قالت غريتا) لأن لغتها لغتنا. لنذهب يا بروس. لا أحب من يتسرع في الذهاب ويبقى مسمّراً في مكانه. طابت ليلتكما يا عزيزيّ.

بقيت يد جون على كتف سوزانا، وبعد ان تمنى للآخرين ليلة سعيدة اغلق الباب وقال لها:

ـ لن تذهبي بهذه السهولة يا سوزانا. هذه سخافة. ينال لويس ومورغان حصة الأسد من رفقتك لهما. إنني أدعوك للبقاء، ولن أقبل رفضك. أرى ان معاملتك لي شحيحة جداً هذه الأيام.

ـ ليس كما تقول (أجابت بحزم) اني غارقة لأذنيّ في التحضير للاحتفال وانا مسؤولة عن بيت كبير وعن اطعام خمسة أشخاص غيري، كما علينا

تمضية يومين في اكاروا قبل اليوم الكبير. ألا يكفي أنني أتيت الليلة، بالرغم من أنني بت متحررة تماماً من كل ارتباط بعالم المال والتجارة.

- لكنك أختبرت هذا الارتباط مدة طويلة. لقد أصبح سكنك الطبيعي. انه...

- لا شيء من هذا. سكني الطبيعي هو وادي لارشوود الجميل... الحديقة العطرة، الوادي الذي يتنشق هواء الجبال، الوادي حيث امتطي جوادي فينطلق بي، حيث حظائر الخرفان بغبارها واقذارها، حيث جمع الخرفان والحملان وجزها، وحيث العرق والحر في الحصاد وتخزين التبن والقش والعلف... هذه نعمة بعد الساعات الطوال مع الآلة الكاتبة وبعد الاختلاط بكبار رجال الأعمال في حفلات الاستقبال وحفلات العشاء والخطابات... هذه كلها ماء وهواء لوالدي ولكن ليس لسوزانا كاريو. حياتي هنا في الوادي وستبقى حتى النهاية.

- ماذا تعنين بحتى النهاية؟ هل لمورغان دخل في ذلك؟

- مورغان مدير أعمال والدتي في المزرعة. ولكنني هنا لأبقى، وآمل أن تبقى جدتي على قيد الحياة عشر سنوات أخرى، فنحن عائلة تطول أعمار افرادها على وجه العموم. وسيأتي والديّ في خلال سنتين وسيبنيان لهما كوخاً للاستجمام على بقعة من الاملاك. عندها سيلتئم شمل العائلة.

- هل سيرضيك هذا؟ لا تنسي أنك في سن السابعة والعشرين. الا ترغبين في الزواج، في الأولاد؟

- هذا ما أريده، زواجاً، أولاداً، ولكن مع الرجل المناسب، والاّ سأظل عزباء طيلة أيام حياتي كغيري من النساء اللواتي لم تقبلن بأقل مما هو الأفضل.

- من يقبل بأقل من الأفضل؟ (سألها بصوته الحلو) أمك أحبت الوادي أيضاً، ولكنها لم تخش الالتحاق بزوجها في حياته السياسية. في وسعنا العودة الى هنا أحياناً كثيرة لنبقى بقدر ما يلزم، خاصة وان والديك لن يحتاجا إليك كثيراً بعد ان يستقرا هنا.

- ماذا تقصد بقولك هذا يا جون؟ هل أفهم أنك ستتخلى عن الكورج؟

- لنقل ان الكورج هو الذي يتخلى عني. ليس بعد. ولكن عندما يحين زمن هذا التخلي وعندما يستحق تسديد بعض الديون، يكون والداك في

طريقهما الى الوادي وسأحصل على وظيفة في ولنتون. هذا ما سمعت في الوقت الحاضر، وهذه الوظيفة التي سيجدونها لن يكون العمل فيها الا جزئياً في بدايته. الا تأتين معي يا سوزانا؟ فاذا ابتعدنا عن هنا... وعن مورغان بلير... تأكدي من أن علاقتنا العاطفية ستعود الى حالتها الأولى.

اوضحت كل شيء بشجاعة. لم أحاول ان أغريك لاستئناف علاقتنا القديمة بتقديم وعد كاذب بأننا لن نترك هذه الأرض الا في زيارات دورية للعاصمة كما يفعل بعض السياسيين الآخرين. كما ترين، اردت ان اكون نزيهاً معك.

- من المؤسف انك تأخرت في ذلك. لم تكن نزيهاً عندما ارتكبت سخافة وادعيت بأنك تخليت عن المركز الذي عرضوه عليك لتقوم بمهمة في الخارج عندما سمعت بعودتي الى الوادي. لم يعرض عليك اي مركز. غريتا بلنغهام قالت لي ذلك. قالت انك كنت على وشك الحصول عليه.

نظر جون اليها مشدوهاً:

- ارجو انك لم تخبريها بأنني قلت لك ذلك!

- كلا. بل جاء في الحديث عفواً.

- كيف ذكر ذلك عفواً؟ (بدا القلق عليه) آمل انك كنت متحفظة في الحديث معها.

- أنا كنت متحفظة، انت الذي لم تتحفظ عندما قلت لغريتا وبروس بأننا خطيبان حقيقيان، وانني سأكون زوجتك العتيدة، وعلى هذا الاساس اعتقدت غريتا بأنه يمكنني ان اوضح لك لماذا لم تحصل على المركز، وأن انوه لك عن الصفات التي تنقصك للحصول عليه.

ثم أضافت وهي ترميه بنظرة كلها دهاء:

- انهم يفضلون رجلا متزوجاً ليحتل مركز ولنتون على ما أظن!

دل ذهوله على أنها اصابت الهدف بقولها هذا. فتابعت:

- حاولت ان افهمها انه ليس من واجبي ان اخبرك لأني لست مرتبطة بك بأي شيء ولن يكون هناك اي ارتباط من نوع أو آخر. ومع هذا فلا بدّ ان تعرف، فقد يساعدك ذلك. ان السبب في عدم حصولك على تلك المهمة يعود الى اعتقادهم بأن العلاقات الخارجية تتطلب درجة اكبر من الاخلاص والخشونة، لا النعومة واللطف. هذا ما سينقصك يا جون في

حياتك السياسية اذا بقيت على ما أنت. اما كذبتك بأنك لم تقبل العرض فهي دنيئة. وبالاضافة الى ما قلت، تنقصك الجرأة وتخشى ان تجرح أحساس اولئك الذين قد تستفيد منهم فتضطرب. هذا ما لاحظته في ولتتون. انت دائماً تترقب الحظ. اكره هذه الصفات في أولئك الذين يحكمون بلدنا ويشرّعون القوانين، ولا أطيق ذلك في زوجي. في السياسة العالمية رأينا الكثير من الجدال والغش والنفاق. يتطلع الناس منذ الآن الى سياسيين نزيهين، غير انانيين، يرغبون في ادارة البلاد لمصلحة الشعب ويضحون، وليس سياسيين يحبون السلطة للسلطة. لا يكفيك ان تسيطر على الجمهور بصوت حلو، بل بمادة غزيرة ونزيهة فيما تقول. لا يمكننا احياء الرماد القديم يا جون، ولذا كفّ عن المحاولة. لم ننفصل لأننا كنا نتشاجر، بل تخليت عنك لتأكدي من عدم وجود انسجام بيننا.

- تخليت عني لأن رجلا اكبر مني سناً افتتنك.

- لم يكن افتتاناً يا جون، بل حباً حقيقياً من طرفي انا. اكتشفت ذلك بينما كنا منهمكين في تحرير كتيّب العائلة معاً. وأي وقت تعكرت هذه العلاقة بسببي فانفصلنا. وأحب ان تعلم يا جرن انه لم يدخل قلبي أحد منذ ذلك الحين ولن يدخله أبداً، كما يجب ان تعلم اني لم ارتم عليه. هذا كل شيء، والآن وقد توضح الموقف يمكنك ان تبحث عن واحدة غيري وأملي في انك ستفعل ذلك. ولكن احبّها يا جون لشخصها فقط ولأجلها، لا لما تملك ولما تستطيع عمله لتساعدك في انجاح مهنتك المستقبلية. احبها اكثر من نفسك. هذا هو ركيزة الزواج... ان يحب كل واحد من الاثنين الآخر أكثر من نفسه. والآن أنا ذاهبة، وانصحك بأن تتحادث مع غريتا من حين لآخر. انها متعمقة ومتفهمة للأمور. والأفكار التي أبديتها لك ليست من عندي ولو أنني عرفتها منذ سنوات. واذا سألتها كن متواضعاً وطبيعياً، ولا تتخذ موقف المدافع أو المهاجم. تعرف انك تملك بعض المواهب، ولكن كن معتدلا وعادلا.

شعرت بأن عبئاً ثقيلا انزاح عنها حالما خرجت من البوابة الكبيرة وبأن فصلا شائكاً من الماضي انتهى وبدأت فصلا جديداً. ولولا هذا العشاء لكانت تابعت حديثها مع مورغان... أو لخرجا يتمشيان في ضوء القمر حتى خيلة الصنوبرات. هي الآن في شهر تشرين الثاني وقمره هو الثاني في

فصل الربيع حيث ازهار الليلك والياسمين تعطر الهواء وانواع المدّاد البرّي يزحف هنا وهناك ويزيّن حيث يكون. ستقبل بمورغان على علاته أملا منها في أنه سيحبها كما احبته بكل عواطفها وبكل احترامها لأي التزام نحوه.

ولما اقتربت من البيت رأت ان النور ما زال ساطعاً في الصالون. هل ما زال لويس ومورغان يتباحثان في القطع الاثرية؟ ولكن النور انطفأ عندما وصلت على بضع خطوات من الموقف الثاني للخراف وما كادت تصل المنعطف المؤدي الى الأصطبل حتى أشعل النور في غرفة لويس. هذا حسن. لقد أوى الى الفراش بالرغم من ان كلوتيلد تحب السهر حتى ساعة متأخرة، الا اذا أوت هي الاخرى الى فراشها، وبهذا تبقى وحدها مع مورغان.

وجدت المطبخ خالياً ووقع نظرها على ورقة كتب عليها: «الحادية عشرة ليلا، الآن. دعتني روويا بيشتون الى تلال تاوهاي لأعالج بقرة في مأزق. لا تنتظريني، وقد أبقى طويلا. وذهب الآخرون لينامو مبكرين لأنهم طلبوا منا في خليج روسينيول ان نذهب اليهم غداً لتمضية ليلة واحدة هناك. لذا نامي نوم الجميلات. مورغان».

أحست بخيبة أمل لأول وهلة، لكنها فطنت الى فحوى الرسالة فضحكت. يا لها من لحظة مغازلة... يسرع الديك القزم لينقذ بقرة. تبا لك يا روويا ولبقرتك!

مغازلة؟ عاودتها الشكوك. لكنه قال انه يتقرب اليها لشخصها لا لحصتها في ارث وادي لارشوود الذي هو يديره. طبعاً لشخصها لأنه سيرث حصة الذكر في املاك بلير وستجلب له هذه الحصة دخلا يكفيه لان يدفع مبلغاً محترماً عربوناً لمزرعة خاصة به اذا رغب في تأسيس مزرعة. الدافع الذي يبقيه في الوادي هو احترامه للجدة فقط.

خلعت ثوبها واتجهت الى مرآة التزيّن ولكنها اشتمّت رائحة عطر لا يشبه ابداً رائحة الازهار التي وضعتها جدتها لها على طاولة سريرها.

وفيما هي تتفحص المكان وجدت بجانب الفرشاة والمشط قطعة قماش لملكية اللون مربعة يتوسطها شيء أخضر وارجواني اللون... غصن من الزعتر المعطر. وقفت مأخوذة. شخص واحد فقط يفعل ذلك. لشخص واحد تعني هذه الزهرة الشيء الكثير... مورغان! هل تلك الليلة البعيدة

من ليالي أيلول المقمرة اثرت فيه اكثر مما ظنّت؟

أفاقوا على صبيحة جميلة، وبالرغم من الساعات الاربع التي نام مورغان خلالها، فانه بدا نشيطاً وممتلئاً صحة وسبق الجميع الى الفطور وهو حبور كابن المدرسة. قال عندما رآهم:

- التبكير في الذهاب افضل شيء لدي، والا أقمتنّ الدنيا واقعدتنّها أنتن يا معشر النساء بتحضير الأشياء وأخذها معنا وبالغسل والكيّ... بهذه الطريقة نذهب خفيفين نظيفين، ولكي لا نضيّع الوقت على الطريق نأخذ قيلولةنتناول فيها الدجاج البارد والخس والطماطم، نضعها جميعها في البرّاد مع بعض البسكويت الفرنسي والماء. نتناول ذلك في بيردلينغز فلات بحيث تتمكن كلوتيلد من مشاهدة البحر وسماع تلاطم أمواجه على الصخور. ومن هناك نستأنف طريقنا بكل راحة على درب التل حتى ميناء اكاروا، وسنتمهل في طريقنا لنستمتع بجمال الطبيعة. في كل رحلة الى اكاروا أرى نفسي في عالم آخر. في الحقيقة يجب تسمية اكاروا فرنسا الصغرى.

مروا براكايا متجهين نحو الساحل وهناك تناولوا غداءهم الخفيف وهم يمتعون انظارهم برؤية تلاطم الامواج على الشاطىء الصخري ويستنشقون هواء البحر المملح ويعجبون بمشهد الشاطىء الذي يمتد أمامهم أكثر من تسعين ميلا في شبه الجزيرة.

اصبحت الارض الآن اقل انحداراً وأصبحوا على طريق تنساب في اودية خضراء تكسر سهلها تلال هنا وهناك ترعى عليها خرفان وحملان وتتوّجها أبنية تُفرح، قائمة في وسط مزارع يبدو عليها وجه الازدهار، يرى فيها الناظر أشجاراً انكليزية واشجار الكاوتشوك الاوسترالية.

اخذت الحرارة في الارتفاع، ولم يشعروا بنسمة هواء واحدة. ومع ذلك كانت عينا كلوتيلد تشعان بهجة، اذ هي في طريقها الآن الى منبع طفولتها حيث الشوارع معطّرة بنبات الزعتر وغيره وحيث الأبنية بسقوفها الجميلة تعود بالزائر الى قرن أو قرنين الى الوراء وحيث يسمع أولاد لا يتكلمون الا الانكليزية يخلطون لغتهم بعبارات فرنسية صرفة.

ولدى وصولهم إلى فندق هلتوب دخل مورغان بالسيارة ساحة موقف السيارات بحكم العادة ليتلذذوا بمنظر المشهد العام تحتهم. قالت سوزانا:

- لا يوجد أي مكان آخر في العالم مثل هذا. شاهدت بحاراً كثيرة وثغوراً كثيرة، ولكن هذا كقوس القزح... أنظروا ألوان الزرقة والخضرة تتراوح حسب عمق الماء. ربما كان المكان في الأصل. فوهة بركان قبل أن تغمره مياه البحر، ولا تزال تظهر فيه تلك الخطوط البنية الحمراء. لم أعرف أبداً أسباب هذه الخطوط. هل ذلك خدعة الظل والنور يا مورغان أم هي النباتات؟

- لا أعرف يا سوزانا. أنا اتقبل ذلك على علاّته. المهم أن جماله أخّاذ على هذا النحو.

- خذلتني هذه المرة (قالت سوزانا) لم تخذلني من قبل. ان مورغان مصدر حيّ لأقوال الشعراء يا لويس.

- انت بلهاء يا سوزانا. ما عليّ الا ان العب بالكلمات المتقاطعة حتى اعرف ان معرفتي عميقة.

- بل ظاهرة خارقة أو غير طبيعية. انه ليس فقط قارئاً نهماً بل يملك ذاكرة لم ار أقوى منها في حياتي.

قال لويس بانه يحسده على ذلك. اما كلوتيلد فانها شعرت بسعادة لم تشعر بها خلال السنوات الخمس عندما تركت حفيدتها العزيزة نيوزيلاند وفي قلبها حسرة على أثر فسخ خطوبة كانت الجدة تأمل في ان تنتهي بزواج موفق.

لن يدخلوا اكاروا مباشرة الآن، بل سينعطفون يميناً عند دوفوشيل ليشاهدوا خليجاً حالماً عند قاعدة مثلث اخضر يمتد حتى يصل بواد عطر الاشجار. ورأوا في المثلث تجمع ابنية وبيوت، وبعد ان انعطفوا وجدوا انفسهم على الشاطىء الآخر من الميناء.

داروا حول مرتفع صغير ودخلوا خليج روسينيول ورأوا على مسافة صغيرة من البحر دار روسينيول بجدرانها الناصعة البياض وباطاراتها السوداء حول الأبواب وسقوفها الجميلة المغطاة بالقرميد الأخضر. وبهرتهم حديقة السيدة التي كانت الازهار وأوراق النبات تملأها بغزارة كأنها جزات من الصوف الملوّن نمّتها سنين من الكدّ والحب.

فتح الباب على مصراعيه ووقف أهل البيت على مدخله. بدت السيدة جليلة وفي منتهى الاناقة الا انها كانت تتعكز على العصا، وبجانبها مارغو

بعينيها المشعتين مرتدية بنطلوناً أبيض وبلوزة زهرية وممشطة شعرها الى الوراء يربطه مشط مقوس. ووقف زوجها بجانبها حاملا ابنته العفريتة الصغيرة اليز التي تحمل اسم جدتها.

كان اللقاء حاراً وعاطفياً. تطلعت السيدة في وجه لويس الزائر القادم من تاهيتي وقالت:

- آه، يا لويس، بعد كل هذه السنين! عشرون، كلا، خمس عشرة سنة. ادخلوا، ادخلوا.

دخلوا الشقة السكنية الموجودة خلف قسم المتحف وجلسوا في غرفة تطل على باحة تتوسط الشقة تحيط بها الغرف والممرات، ومما لفت انظارهم تعدد الاشجار المزروعة في الباحة وتنوعها ومنها التوت والجوز والبلوط والكستناء والطحلب والمداد الذي يغطي جدرانها.

قدمت مارغو لهم ساندويشات بالخيار والخس وحلويات فرنسية وبسكويت. قالت السيدة اليز:

- انه ليسعدني حقاً ان تحتوي هذه الحديقة مرة اخرى شخصاً يدعى لويس. واعتقد انني استطيع ان اتعرف عليك في أي مكان بالرغم من أن الولد المغامر اصبح الآن شاباً انيقاً محترماً كنّا نشكك فيه وهو صغيرا

ضحك الجميع لهذه الدعابة، ثم اضافت السيدة تقول:

- وبعد الأكل وتبادل الحديث سنذهب الى المتحف وستشاهد مرة اخرى تلك الكنوز التي كنت تحبها عندما كنت هنا في ذلك الزمان البعيد، ويعجبني يا مورغان ان اجد في الجيل الجديد هذا التقدير الكبير للأشياء القديمة. من الاولاد من لا يميزون الكثير من القطع ولكن لويس كان يتعرف عليها واحدة واحدة ويسميها بأسمائها ويعين زمنها. واكثر من هذا فانه كان يعرف أية قطعة من كنوز والده كما يعرف المقابل لها هنا.

صدف ان اتجه نظر سوزانا نحو مورغان فرأت في وجهه تعبيراً غريباً. ما هو؟ هل هو استغراب؟ ولكنها تذكرت الآن ان لويس ابدى اهتماماً بالقطع التي في بيتها! دون ان يكون له قصد من وراء هذا الاهتمام. أجاب لويس السيدة وهو يضحك:

- لا تزيدي من مديحك لي بهذا الخصوص يا عمتي اليز. ان الصدمة التي اصابتني في رأسي أيام التسلق شوّشت عليّ ذاكرتي. وقال الأطباء

ان الكثير مما فقدته ذاكرتي سيعود اليها، ولكنني يئست من ذلك. انسى بعض الأمور التافهة، مع انني لم افقد الذاكرة في حينه ولكنني بعد ذلك بدأت اكتشف بعض الفجوات فيها.

امضوا بعد الظهر بشمسه الذهبية وفي جو كأنه من عالم آخر. وقالت مارغو حالمة:

- نعم هذا عالم آخر. فالماضي في اكاروا هو البارحة فقط. هذه هي العبارة التي طغت على مخيلتي أكثر من كل شيء عندما ألقى بيير محاضرته في شلسي، وسيبقى هذا الماضي معنا طالما نحن هنا وطالما نستمر في الاعتناء بمتحفنا الصغير. سنذهب الى المزرعة للغداء لهذا لم تروا والدي وزوجته هنا. وجوستين هي التي تحضر الطعام، جوستين الظريفة والارلندية من رأسها الى قدميها وصاحبة القلب الحار. وستكون الشابتان هنا أيضاً وهما اللتان تديران الموتيلات التي أصابها بعض الكساد في المدة الأخيرة، وقد أتتا من المدرسة مباشرة اليوم. شارلوت وليوني تعلّمان في المدرسة هنا. ان هذا جميل حقاً!

فكرت سوزانا في المرات التي كان مورغان يصطحب فيها كلوتيلد الى اكاروا حيث كانت تخصص له غرفته في كل مرة وما لفت نظر سوزانا هو كلام الخالة اليز وهي تنظر من النافذة:

- لقد اقترب غروب الشمس. احب ساعة الى قلبي هي تلك التي ارى فيها كل من عاش هنا فيبدو لي كأنه ما زال موجوداً. هلا قرأت لي تلك القصيدة عن الغسق في اكاروا يا مورغان. قراءتك لذيذة ولكثرة ما قرأتها لأرضاء نزوات سيدة عجوز أصبحت تعرفها غيباً على ما أعتقد.

توجه مورغان الى خزانة كتب وتناول مجلداً وفتح صفحة مونا ترايسي الشاعرة وقال:

- سأحاول القاءها ولكني سأحتفظ بالصفحة مفتوحة احتياطاً لهفوة قد تصدر عني.

وذهب الى مقعد بالقرب من النافذة وجلس بجانب سوزانا والتصق بها لقلة الفسحة. التفت الى الطبيعة والى لون الغسق الارجواني وبدأ القاء القصيدة:

عندما هبط الغسق في جلالٍ على أكاروا وعندما اخذت جمرة الغروب

تنحسر في دلال وتوهج ببريقها ضباب المساء ملتفة بردائها الأرجواني امتلأ الهواء بسحر طائر يغرّد وجرس بيتٍ أنغامه الحالمة.

من الحدائق الغامرة يفوح أريجٌ تسبحُ فيه الخواطر والعقول، حيث أوراق الزنبق والقرنفل منثورة في ظلال النخيل.

وحيث الراتا ذات الخشب القرمزي تطوّق السنديان بحبٍ وشوق حيث النرجس يسخر من الذهبي، فتياً وطاعناً يتوقّد أبداً

حديث النحو وقديمه

يبزغُ كالضوء.

ماذا اذا سقط الندى الذي يشبهه نقاوة

حين تبرز فراشة من شرنقتها

تضاهي القمر وهو يصعدُ من بيته.

وحين تعزف الرياح على أوتار الأشجار

أنشودتها الأبدية؟

هل تظهر أطياف تحوم وتختفي

في هدوء أكاروواً؟

هل يظهر مسافرون جاؤ وا من فرنسا

ما زالوا يجوبون في عالمهم الرومانسي؟

هل ما زال الصبية والصبايا يتجمعون مرحين

يسمعون الألحان ويهتزون طرباً؟

هل ما زال الجد يطيل تأمله

في أمجاد نابليون،

والجدّة تجلس في ظل الجوزة

تتأمل حالمة وتصلي سبحتها الطويلة؟

سمعت سوزانا أحدهم يلقي هذه القصيدة من قبل ولكن ليس بطريقة مورغان الساحرة، وبدا للجميع كأنهم يستنشقون رائحة القرنفل والمنثور.

قالت كلوتيلد:

ـ علينا نحن الاثنتين تقديم اكبر الشكر لما نحن عليه يا اليز. كم من المتقدمين في السن لا يتمتعون بأبنائهم وأحفادهم لأنهم قطعوا كل صلة بالماضي. طبعاً على الجيل القادم ان يكون أباً للجيل الجديد كما كنا أبناء

جيلنا، ولكننا محظوظتان كون أولادنا وأحفادنا يحترمون الماضي.

تأثرت سوزانا بهذه العبارة. مورغان غريب عن هذه العائلة المنحدرة من اسلاف فرنسيين، والمقصود بعبارتها مورغان بالذات تأكدت من ذلك عندما رأت عيني اليز تستقرّان عليه بحنان. كل هذا اخذ يجسم شيئاً في ذهنها، مثل تفهمها لبعض وجوه الحب، وأحد هذه الوجوه التصريح العفوي بالحب والاندفاع في الكلام والتعبير الصارخ عن حاجة الواحد للآخر. هذا الوجه تفضله معظم النساء لأنهن رومانطيقيات. ووجه آخر هو نمو الحب البطيء والاخلاص الثابت له. هذه هي طريقة مورغان. انه يدعوها لتسير معه على هذا النحو. ستقبل وسترافقه.

علقت سيدة روسينيول على قول كلوتيلد:

ـ بالفعل نحن محظوظتان يا كلوتيلد. ان السنين التي حرمتنا من أولادي وأولادك عوضت علينا وجددت حياتنا. خشيت يوماً من انه لن يكون هناك واحد يحمل اسمنا ويولي هذه الاشياء عنايته كما أوليناها نحن، فأتى فرنسوا... من غصن آخر من العائلة، واعاد لفظ اسمه المنكلز الى اصله الفرنسي وزوجته جوستين تملك أفضل ما اتمناه في كنة. وهناك مارغو... التي ارسلها الله لنا- لا يصدق ان شيئاً كهذا يحدث في أيامنا هذه- فالتقت بيير صدفة ومنحني هذا الالتقاء فرصة البقاء حيث انا والتفكير في لويس بلا انقطاع.

حجب الظلام عيني سوزانا وهي تنظر الى الخارج محاولة ان تمنع نفسها من البكاء. بحثت عن منديلها سراً ولكنها لم تجده في مكانه. ووجدت منديلا مدسوساً بين خصرها ودعامة النافذة. كيف أتى الى هناك وظهرها ملتصق بظهر مورغان؟ ثم سمعت مورغان يقول لها هامساً:

ـ إنني أحب النساء اللواتي يستجبن لدموعهن. لا أتحمل الفاترات الاحساس.

قالت وهي تتعمد النظر الى الخارج ومن غير ان تلتفت اليه:

ـ يبدو الميناء هادئاً فالانوار المنعكسة على الماء لا تتكسر.

مسحت عينيها بالمنديل وأعادته الى مورغان. وجرى حديث في الجهة الاخرى من الغرفة بين عائلة فرنسوا الثانية، شارلوت وليوني وخطيبة جول، بريجت كونيلي، التي ستجلب معها المزيد من النهج الارلندي

www.elromancia.com

بالاضافة الى ما ادخلته جوستين التي ستسر بذلك.

انتهزت سوزانا فرصة انشغال الآخرين بالحديث وقالت لمورغان:

- لم أعرف من قبل مركزك ودورك في هذا المشهد. اقدر لك طيبتك لصاحبتك جدتي كل هذه المرات طيلة السنوات الخمس الماضية.

كانا يتكلمان هامسين لالتصاق رأسيهما، فقال مورغان:

- اقولها صراحة يا سوزانا. لم اقم بذلك من اجلها.

- ماذا تقول؟

- ليس هذا بالمكان او الزمان لحديث كهذا. ومن جهة أخرى، ارجو ان لا تظهر دهشتك مما سأخبرك به يا سوزانا. كنت آتي بها الى هنا لاتقصى أخبارك. بسبب اتصالك المنتظم بجوستين وخالتك اليز.

كانت رنة صوته جدية وعميقة، ولم تصدق ما سمعته غير أنها رأت فيه الصدق. قالت:

- كنت أكتب لجدتي مرة كل أسبوع وأحياناً أكثر.

- صحيح. ولكني كنت أضيف ما أعلمه من مكاتبتك لجوستين والخالة اليز الى ما اناله من مكاتبتك لجدتك. كنت متعطشاً لأخبارك. هناك الكثير يتوجب توضيحه وتنقيته بعد الفشل الذي منينا به منذ خمس سنوات. منذ عودتك اخذت تنظرين الى الأمور بمنظار آخر. واردت من جهتي أنا اتاحة الفرصة لك لتنظري الى جون بمنظار آخر أيضاً. واخطأت خطأ كبيراً في محاولتي في تعجيل الأمور، وندمت على رعونتي. وبما انك لم تستقري على رأي بعد رأيت الا اندفع هذه المرة، واتمنى لو لم يكن موعد الاحتفال قريباً. أرفض ان تقرري مصيرك المستقبلي في ظروف غير عادية هذه المرة. ولكن عند الانتهاء من الاحتفال...

صمت وهو يشعر بضعف امله في الحصول على جواب سار. قالت سوزانا:

- لا تتوقف عند هذه النقطة. ارجوك.

- بودي متابعة الحديث. ولكن لو نجد خلوة.

اجابته بصوت لا يكاد يسمع فقرب رأسه من رأسها:

- سنتابع حديثنا بعد الانتهاء من الاحتفال اذ لدي بعض الاشياء سأطلعك عليها وقد تدهشك. ولكن لنتظر.

- لا. قوليها الآن، اذا كانت من الأشياء التي أحبُّ سماعها.

ابتسمت قائلة:

- ارجو انك ستحب سماعها... لا يجب ان تردّ فتاة مرتين!

- ماذا؟

- اخفض صوتك (قالت سوزانا)

وارتفع صوت ليوني في الطرف الآخر يقول:

- كفى تهامساً انتما، ليس هذا لائقاً. نريدك ان تعزف لنا أغنية ارتجالية يا مورغان.

- شرط ان اختار أنا الأغنية لك يا صغيرة.

ذهب الى البيانو وأشعل النور الذي فوقه وبدأ يعزف «يا سوزانا، لا تبكي بسببي...» وهو ينظر الى سوزانا بجسارة رافعاً حاجبيه الى أعلى ربما دلالة على التساؤل أو على التلميح. لم يكن يعرف اذا ما كانت تذرف الدمع من أجله ام لا، ولكنها تعرف تماماً انها لن تذرف دمعة واحدة الآن وقد تأكدت من حبه لها.

تبع ذلك حديث بين السيدة اليز ولويس عن الصلاة في تاهيتي. قالت:

- كل الذين لم يتمكنوا من الاستقرار في تاهيتي تابعوا مسيرتهم الى مكان آخر ولكنهم قطعوا كل اتصال مع تاهيتي وهذا شيء يؤسف له. اما نحن فقد حالفنا الحظ. اسعدنا بلقائك صغيراً وباستقبال فرنسواز التي كانت صورة طبق الاصل لمارغريت روسينيول شقيقة فكتورين بشعرها الاحمر وغير ذلك. اليس من المستغرب أن تتشابه المخلوقات رغم المسافة بين الاجيال؟

- دهشت كثيراً للتشابه بين مارغريت وفرنسواز مع فارق في اللباس فقط، ولكن من يعتبرني شقيقاً لفرنسواز؟ هي شعرها أحمر وأنا أسود تقريباً، ولكني ورثت اللون من ذرية والدتي آل دي كورسي. ليس فيّ ما هو من آل روسينيول.

- ليس تماماً (قالت السيّدة) فهناك تشابه في تكوين رأسيكما وأيديكما. هذا ما لاحظته عندما اتت فرنسواز منذ خمس سنوات، و...

توقفت فجأة وعزوا ذلك الى ذكر اسم فرنسواز. ولكنها استعادت وضعها السابق وقالت:

- سبق وذكرت اننا سنلقي نظرة على كنوز أول عائلة لنا يا لويس، ولكن بما ان الوقت مضى سنقوم بذلك معاً غداً صباحاً. الآن علينا ان نتمتع بما أحضرته البنات من الطعام والحلوى وأن تتلذذ بالأكل تكريماً لصنعهن.. اشكر ربي لأني لست مصابة بسوء الهضم.

قالت مارغو وهي تقف:

- ولا شيء يزيد من وزنك. من دواعي سرورنا ان نطبخ لك يا عمتي.

نامت سوزانا نوماً عميقاً لم يعكره اي حلم ولو انها ظلت ساعة برمتها تعيد الى ذاكرتها كلمات مورغان الحلوة. قد لا يكون مورغان من النوع الذي ينجرف وراء العاطفة، ويؤكد ذلك موقفه من رفض مارتي له كل تلك السنوات وموقفه منها هي عندما قال لها انه كان يفتقدها ويذهب الى اكاروا ليتقصى اخبارها... أوه، مما لا شك فيه انها مقبلة على اشياء ستبرعم وتزهر وتدل على انها في وسط طبيعة سخية بأوراقها الخضراء وألوانها المتفجرة ويشهر أيلول (سبتمبر) الذي يستقبل الصيف قبل أوانه فيعين الاشجار على التفتح واثمارها على النضوج... تقول كلوتيلد انها تفضل فصل الخريف على سائر الفصول. هل كان يحصل هذا لسوزانا لو كانوا في نيسان حيث يبدأ فصل الخريف؟

٨- في الوقت الذي كانت تستعيد فيه ثقتها بمورغان، كان لويس يثير شكوكها بتصرفاته المريبة... ولكن المفاجأة كانت اكثر روعاً، حين اكتشفت ان لويس هذا، ليس قريبها الذي عرفته في طفولتها!

ذهب لويس برفقة السيدة لتمضية بعض الوقت مع قطع كنوز العائلة، وذهب مورغان وسوزانا برفقة بيير ومارغو لمشاهدة حديقة دار روسينيول المنسّقة حسب طراز حدائق أوروبا والتي يحميها من رياح البحر القوية بوكي أومابو أي تل التنهدات وصفّ جميل من الاشجار. اما جوستين فقد أخذت على عاتقها الاهتمام بالطفلة اليز في بيت المزرعة بينما اصطحب فرنسوا روسينيول الجدة كلوتيلد الى الغداء مع بعض افراد عائلة لموان في أحد مطاعم أكاروا حيث سينضم اليهم مورغان وسوزانا ولويس فيما بعد.

سوزانا التي الفت الحدائق الفرنسية رأت أن حدائق دار روسينيول محتفظة بالطابع الفرنسي التقليدي... بممراتها المتعرجة بين النباتات العشبية واللاوند (خزامى أو جيري البر) وأكليل الجبل والبليحاء وببركة الماء التي يتوسطها عامود عليه رأس طفل مجنح تتساقط من تحته قطرات الماء برنين موسيقي. وقارنت بين هذا الجمال وبين مسكنها في لندن قائلة:

- كنت محرومة من حديقة اثناء إقامتي في لندن، ولكن هناك ما يعوض عن ذلك. فلندن مليئة بالاشجار وبأوعية النباتات في نوافذ الشقق. استطيع أن أرى في مخيلتي بعض الأبنية في حي سفّوك بين ساحة ترافالغار (الطرف الأغرّ) وهاي ماركيت حيث كنا نسير ونحن في طريقنا الى دار نيوزيلاند، وغيرها من الأبنية القديمة التي لا تزال تحمل آثار الحرب العالمية الثانية والتي تتدلّى من نوافذها في شهر نيسان أوعية نرجس الوادي وعناقيد الحدقي الارجواني.

www.elromancia.com

وانضمت السيدة اليهم وقالت لبيير ومارغو فور وصولها:

ـ انتما مطلوبان في الموتيل. فقد وجد احد الخدم ان احد البرادات لا يعمل كما يجب. واستعار لويس سيارة جول الميني كوبر وذهب الى المتحف في اكاروا، علّه يجد ما يثير اهتمامه، وتركني هنا، ولذا انضممت اليكم في حديقتي.

قالت سوزانا وهم يتمشون في الحديقة:

ـ أحب كثيراً الممرات المتعرجة المبلطة لأنك ترى نفسك بين الزهور العطرة والغصينات التي تبرز من الشقوق فيصل أريجها الى أنفك، تماماً كما قال مورغان في القصيدة:

«من الحدائق الغامرة يفوح
أريجٌ تسبح فيه الخواطر والعقول».

لفت مورغان نظر اليز الى نقطة وقال:

ـ لا ارى عشبة النعناع الطيبة يا اليز. انها تنمو في لارشوود بكثرة. سآتي لك ببعض الشتلات.

قالت سوزانا مبتسمة عندما نظر مورغان اليها:

ـ حسناً. انها أفضل عشبة عندي.

نقلت اليز نظرها من الواحد الى الآخر كمن أحس بشيء بديهياً ثم قالت:

ـ تذكرني حديقتي دائماً بشعر احتفظ به في البوم قصاصات الجرائد. أظن اني حصلت عليه في الثلاثينات سني السعادة قبل ان وهب اولادي حياتهم على شواطىء النورماندي منبت اجدادهم. اوه، كلا. لا يجب العودة الى ذلك... ولكن الاحزان القديمة كالاحذية العتيقة: انها لا تؤلم كالحديثة. هناك الوجه الآخر للصورة... ذكريات طفولتهم. وأتذكر اسم الشاعر. انه كوكس، وعنوان القصيدة (الحلم) لا ادري اذا كان ما فيها ينم عن تجربة خاصة ام انه مجرد خيال، ولكنني احببته لأنه يجسد حديقتي. وفيما لو حرمت من حديقتي بسبب الشيخوخة ولزمت غرفتي فاني سأكرر هذه القصيدة وأعيد الى الذاكرة مشاهد وأصوات الأيام السالفة. كانت هذه حديقة والدي وأنا روسينوليه مثله وتزوجت من ابن عم لي بعيد من فرنسا.

وأخذت تتلو القصيدة بصوتها الرقيق والضعيف:

أذكُر يوم سرنا في جنّةٍ ينمو فيها اللاوند
وحلمنا أجمل حلم: ان الحلم لا يخبو
حين كان الحب يكبُر بيننا
يرتفع ويسمو كبناءٍ جميل
وحين حلمنا بجنةٍ يحتمي فيها اللاوند
نرتادها كل لحظة
ونحلّق كفراشتين في نسائمها
كم حلمنا واحترقت أحلامنا في وهج الشوق!
وها نحنُ ثانية في جنّة اللاوند
نحلم حلمنا القديم الذي لا يخبو
حيث لا يزال حبّنا
ينمو ويتغذّى بالأريج السماوي.

ساد الصمت بينهم بعد ان توقف الصوت الجميل الذي لا يخلو من اللكنة الفرنسية. الا ان مورغان قطع هذا الصمت ليعلق على سوزانا:

ـ ها هي سوزانا تفتح مجاري دموعها ثانية. لا تغتمّي يا حلوتي. قلت لك امس مساء انني لا أحب اللواتي يتظاهرن بالقسوة.

رفّت بعينيها المبللتين وتوردت وجنتاها وقالت:

ـ انه يطابق المقام. اللاوند نام ونسيم البحر ناعم...

قالت الخالة اليز:

ـ والحب البريء يا عزيزي، الحب البريء. افكر في حبكما الذي يحاكي الحب الذي وصفه القدماء والذي قطعتما حبله. ولكن الزمن يصلح الأمور، الا تريان ذلك؟

قال مورغان بدون أي ارتباك:

ـ لقد اصلح أمرنا يا اليز. بدأنا نلف خيطان الشلة المتشابكة. في رأي شكسبير يأتي الليل بنصائحه، وبالنسبة الينا انه جو ليلة البارحة هو الذي قام بالاصلاح. لم نتباحث في ذلك بعد نظراً لانهماكنا بالتحضير للاحتفال. في المرة الأخيرة كانت الافكار متباعدة. أما هذه المرة فسننتظر حتى يخمد الهيجان والضوضاء ويعود وادي لارشوود الى استقراره وهدوئه.

تطلعت اليز الى الميناء تحتهم ومن ثم الى المحيط غير المتناهي وقالت:

- لا تنسيا ان الوقت لا ينتظرني ولا ينتظر كلوتيلد. وسنلبي النداء في اي يوم... (ثم أضافت متناسية جدية كلامها لتدخل في الدعابة) ولكن عندما يحين موعدكما المنتظر يا سوزانا تذكري ان ثوب التافتا الموجود في الصندوق الزجاجي عند رأس السلم كان فستان عرس فكتورين روز... وأنت فكتورين صورة وملامح ومقاساً. وآسف اذا كنت قد استبقت الأمور بالنسبة الى مورغان.

- انت سيدة شريرة، (ضحك مورغان وقال) ولكن سنساعدك. سأهتم بالأمر بعد عودتي الى لارشوود وبعد ذهاب لويس.

تغيرت ملامح وجهها ودلّ صوتها على ان هناك ثمة شيئاً جعلهما ينظران اليها بترقب:

- آه، لويس! هو ما أريد التكلم عنه الى مورغان. اتسمحين يا عزيزتي سوزان بأن انفرد بمورغان؟ انه وحده يستطيع ان يسديَ لي النصح في الموضوع. ارجو الا تعتبري هذا اهانة لك.

- كلا يا عمتي. سأذهب الى المزرعة.

بعد انتهاء الحديث بين اليز ومورغان ذهب كلاهما الى المزرعة واتجه ثلاثتهم الى اكاروا. وبالرغم من الانسجام الذي ساد بينهم بدا واضحاً لسوزانا بأن حديث رفيقيها كان مشوشاً. ولكن هذا لم يزعجها. فلديها افكارها التي تدخل السعادة الى قلبها. الا انها عادت بتفكيرها الى اليز ومورغان. ربما ارادت اليز استشارة مورغان في أمر تقديم قطعة من مخلفات روسينيول هدية الى لويس وفي أمر احتمال وجود معارضة من طرف أحد افراد العائلة. انه يسعدها تقديم مثل ذلك الى لويس الذي خسرت عائلته في تاهيتي كل شيء لتسديد الديون حفاظاً على شرف اسمها.

رأوا سيارة الميني الحمراء واقفة أمام حانوت مواد اثرية. تمهل مورغان ورأوا لويس يتكلم مع صاحب المحل. قال مورغان:

- ألم تذكري لنا يا سيدة انه ذاهب الى متحف لانغلوا أيتيفنو؟

- نعم، ولكن المتحف يكون كثير الازدحام بعد الظهر، خاصة وانه اخذ وقتاً كافياً للغداء، وذهب متأخراً الى هناك. يبدو لي انه انجز عمله بسرعة هناك.

قالت سوزانا:

- ماذا لو توقفنا وطلبنا منه ألا يتأخر عن غداء مادلين لموان كي لا يفسد عليها سرورها وكيلا يفوّت عليه مآكلها الطيبة؟

هزت السيدة رأسها وقالت:

- اذا كان لويس عديم اللياقة وتأخر عن موعد الغداء وقد برد الاكل في انتظاره فانني افضل الذهاب بدونه. ذكرت له مآكل مادلين بصورة خاصة وقلت له ان يحضر في الواحدة الا ربعاً، ليس بعد ذلك. ولذا أفضل الا نتوقف.

أحست سوزانا بشعور غريب، فقد مرت بها الليلة الماضية وهم يتناولون لقيمات لذيذة. يقول حدسها ان اليز لا تحب لويس الناضج بقدر ما احبت لويس الشاب، هذا الفتى الذي تعلقت به لشخصه ولأنه يحمل اسم زوجها. ولكن اذا كانت سوزانا نزيهة مع نفسها فانها تقر في نفسها هي أيضاً ان مفاضلتها تذهب الى لويس الشاب الذي كانت تفوح منه جاذبية خاصة وعدم مبالاة بالمال. برغم ثراء أهله والذي كان يعبد حياة المزرعة البسيطة. أما لويس الحالي فانه يزن كل شيء بثمنه وقيمته المقابلة. ما هو مقدار ما يحصل عليه المرء مقابل الصوف هذه الأيام: بالجملة لا بالمفرّق؟ بكم انخفضت اسعار لحوم البقر؟ هل أثرت فيها التسعيرة الأميركية وتوزيع حصص السوق؟ هل من الممكن ايجاد طرق أخرى لتسيير هذه اللحوم وشحنها الى اسواق مفتوحة واعادتها الى البلاد لحوماً معلبة؟

لا هي ولا مورغان أحبّا اتجاهاته هذه وقد جادله مورغان بحدّة في هذا الخصوص. أما بصدد أعجاب لويس بالقطع الأثرية الموجودة في وادي لارشوود فانه لم يقم على أساس جمال القطعة أو ذكرياتها بل على أساس قيمتها المادية. وتذكرت تلك الليلة وهي عائدة من بيت جون بعد حفلة العشاء عندما رأت النور ينطفىء في غرفة الصالون ثم يشتعل في غرفة نوم لويس وعندما دخلت المطبخ وقرأت الرسالة التي قال مورغان فيها ان كل واحد ذهب لينام في ساعة مبكرة. كان الوقت متأخراً ساعة اطفاء نور الصالون واشعال غرفة لويس. ولكن ما بالها تفكر في ذلك؟ قد لا يكون لويس من اصحاب التبكير في النوم أو انه لم يستطع النوم فنزل لينتقي كتاباً يطالع فيه.

لم يرتكب لويس جريمة عدم الدقة في المواعيد. فقد أتى في الموعد المحدد للغداء خاصة ان مادلين حضّرت طبقاً لذيذاً من السمك الطازج المغموس في صلصة بالاعشاب ذات الطعم الخاص تضاهي صلصات المطاعم الفرنسية التي كانت سوزانا ترتادها في فرنسا.

قبل لويس اطراف أصابع يده تعبيراً عن تقديره لمادلين وقال:

ـ امرأة فرنسية حقيقية!

وبدا منشرحاً الى حدٍ ما. لماذا؟ هل يمكن ان يكون صاحب دكان الاثريات القديمة قد عرض عليه سعراً مغرياً لقطع ما زالت في حوزته؟ لكنه قال انه لم يبق منها شيء في البيت. ومع ان الخالة اليز ومورغان يراقبانه عن كثب فان سوزانا بدأت تشعر بالانزعاج، وقد زاد في انزعاجها قول لويس:

ـ صدقوني. انجذبت لهذا المتحف لدرجة انني وجدت صعوبة كبرى في الابتعاد عنه كيلا افوّت على نفسي طبق مادلين!

رفعت سوزانا رأسها ورأت النظرات السريعة وذات المعنى التي تبادلها اليز ومورغان كل محتفظاً بشوكته في الهواء كأنهما فوجئا بعبارة لويس. ومن المؤكد انهما لم تعجبهما زيارة لويس السرية الى دكان الاثريات. لماذا؟ لم يخف لويس سيارة الميني الحمراء عن الانظار، ولكن ذلك لا يعني شيئاً لانهم لم يذكروا شيئاً عن تعريجهم على ذلك الشارع في أكاروا عندما ارادوا اختصار الطريق. قد يكون كل هذا الانزعاج مجرد وهمٍ ولا يقوم على مسببات أو مقومات.

عادوا بالعمة اليز الى الخليج ومن هناك اخذوا طريقهم الى كرايستشرش التي تبعد خمسين ميلا عن الخليج عبر تلال تغطي معظم هذه المسافة ليغتنم مورغان فرصة وجوده في كرايستشرش ويشتري ما يلزمه لعمله كبيطري.

ـ سنتناول غداء خفيفاً في المدينة (قال مورغان) لأني لا احب ان ارى سوزانا تطبخ لنا بعد يوم حافل كهذا.

وفي اثناء الطريق توقفت السيارة بسبب عطل طرأ عليها بين دنساندل وراكايا وعرض أحد المارة مساعدته ولكنهم وجدوا ان العطل أكبر مما تصوروا فأتى ميكانيكي من المدينة وقطر العربة التي استوجبت ساعتين لاصلاحها وامضوا هاتين الساعتين في بيت كاهن الرعية ارتاحت كلوتيلد

خلالها.

وأخيراً وصلوا الى البيت وقد اتعبتهم الطريق ولم تر سوزانا من المناسب في حالة كهذه أن تطرح اسئلة بخصوص لويس فأجلت ذلك الى اليوم التالي.

بدت كلوتيلد شديدة النشاط صباح اليوم التالي وتيقّن لسوزانا من ان اليز ومورغان لم يطلعا الجدة على أفكارهما تجاه لويس. وقد يحادثها مورغان في الأمر في الوقت المناسب خاصة وان عليه الكثير ليقوم به هذا النهار.

توجه مورغان تواً بعد الفطور الى محل دان بعد دقائق من نزول لويس من غرفته الذي قال:

ـ هل من عمل يستطيع ان يقوم به بائع أقمشة متجول يا مورغان؟

ـ سأرى ما يجول في خاطر دان. اما السيارة فلا تزال تحتاج الى بعض التصليح لأن الميكانيكي اكتفى باصلاح الضروري فقط، لكي تصل بنا الى البيت، وقد يلزمها الكثير من الوقت.

قالت سوزانا:

ـ هل تريدنا أن نذهب معك الى الكاراج لنعيدك الى العمل ثم نذهب غداً لسحبها؟

ـ كلا. شكراً. هناك بعض الأعمال في راكايا، وعليّ ان اقوم بها. عليّ أولا ان اقوم بالترتيبات اللازمة لخلع قرم الاشجار القديمة وثانياً ان ارى مدير المدرسة الذي يريد ان يكلمني في موضوع معرض الحيوانات البيتية الذي سيقام في الشهر المقبل.

واقترح لويس قائلا:

ـ اذا كنت قلقاً من جهة كلوتيلد واردت تأجيل بعض مهامك الى يوم آخر، خذ سوزانا معك وسأهتم أنا بالجدة.

ـ أشكرك في أي حال يا لويس. منذ اجيال وأنا لاجل عمل تلك الاشياء، لأنه في كل يوم تبرز مسائل على غير توقع، وهذا يحثني على النظر فيها. منظر تلك القرم بشع وكلما بكّرنا في خلعها كلما كان ذلك أفضل.

فكّرت سوزانا انه كان من الطبيعي ان يتبع لويس مورغان لأنه يحب السوق بدل ان يبقى بجانب كلوتيلد.

قال مورغان بعد ان عاد من محل دان:

- يقول دان انه سيبدأ بجمع قطيع من الخراف واخراجه من وهاد سواغمان في نصف ساعة من الآن وسيأخذ هذا العمل نصف الوقت اذا ساعدته فيه.

توقعت سوزانا ان يذهب مورغان في الحال. ولكنها وجدت، بعد عشرين دقيقة، انه ما زال هناك. ولما لاحظ استغرابها قال مورغان:

- كان عليّ تحرير رسالة مستعجلة أولا، ومن جهة ثانية لن تكون السيارة جاهزة قبل الحادية عشرة لأنهم ينتظرون قطعة سترسل لهم في باص من كرايستشرش، وهي قطعة مستعملة لأن هذا النوع من القطع مفقود في الأسواق.

قرع جرس التلفون في المكتب فتناوله مورغان وقال:

- نعم. أنا بيير. لكن انتظر لحظة قبل ان توصلني به.

وضع يده على السماعة وسأل:

- هل تعرفين أين لويس؟

- رأيته يمشي في الباحة ذاهباً ليسرج الحصان. هل تريده؟

- كلا. هذه مكالمة خاصة ولا أريده ان يتسمع.

حملت سوزانا «نافضة الغبار» التي كانت تستعملها وتركت المكان وسمعت مورغان يذكر اسم فرانك وهي خارجة من الباب ويقول:

- حسناً يا فرانك. متى ستتقابل؟

فرانك؟ انه دائماً يستعمل اسم فرانك مع فرنسوا روسينيول. ولكن هناك اثنين أو ثلاثة بهذا الأسم في الجوار. بالفعل، هناك واحد في شركة تقطيع الأشجار. قد تكون هذه المكالمة من كاراج راكايا أو مكالمة شخصية محضة أو ان مورغان لا يرغب في وجود شخص فضولي مثل لويس يحشر انفه في اسعار الزراعة. لا تُصدق حالة لويس!

عاد لويس بعد فترة وجيزة من ذهابه وقال:

- طلب مني دان ان اقول لكم بأننا لن نكون هنا لطعام الغداء. يريد ان يقابل برينت في موضوع ما ولذا سنذهب الى هناك على الخيول وسنعود بالقطيع بعد العصر. رأيناكم بخير.

قال مورغان بعد ابتعاد صوت حوافر الخيل:

- هل كلوتيلد فوق؟ سأصعد لاودعها.

خرجت سوزانا لتلقي نظرة على السيارة في طريقها الى الأسطبل. وعندما خرج مورغان قالت له:

- أرجو ألا تتعطل السيارة فتعيقك.

- انها ستسير على ما يرام، ولكني أفضل قطعة أصلية بدل المستعملة التي وضعوها في الكاراج.

- هل من مشكله يا مورغان؟

لم يتردد كثيراً قبل ان يجيبها على سؤالها وقال وهو يضحك بعض الشيء:

- لا، يا سوزانا، ولن يحدث ما يعكر صفو الجو بيننا من الآن وصاعداً. لن أدع ذلك يحدث. لكن علينا ان نتكلم... بعد الاحتفال طبعاً، كما قلت سابقاً. وحتى ذلك الوقت لا أستطيع أن أقدّم أكثر من هذه التحية الطاهرة على خدك الطاهر...

انحنى وقبل خدها ثم دخل السيارة. وبعد ان أدار المحرك فاجأت سوزانا مورغان مفاجأة كبيرة... مالت الى الأمام، وهمست وهي تنظر في عينيه:

- أنا أحبك يا مورغان!

تقابلت العيون كأن كلاً منها يحاول ان يجد طريقه دون تردّد الى الآخر. ثم ابتعد مورغان بالسيارة.

سمعت سوزانا وهي تدخل جدتها كلوتيلد تغني. وصعدت الى غرف النوم لترتب التخوت. وسرّت عندما رأت أن لويس وضب تخته. انها تجد متعة في ترتيب تخت مورغان بعناية فائقة وتبتسم لرسم والد مورغان ووالدته الموجود على طاولة السرير... وشعرت بحنان خاص عندما رأت كتاب ديوان اشعار (الكنز الذهبي) لناشره بالغريف بجانب السرير مما يدل على انه غرق في قراءة بعض القصائد بالرغم من تعب البارحة. انها تحب الرجل المولع بالشعر. كان الكتاب مفتوحاً. ما الذي قرأه يا ترى؟ رأت محتوى الصفحة المفتوحة. انها أبيات من قصائد حب لهرّيك وجنسون وسدلي. أعادت الكتاب الى وضعه الأصلي، أي مقلوباً. وكان مع الكتاب قلم حبر ناشف وأوراق كتبت عليها أبيات شعر بعضها مقروء وبعضها الآخر مخربش. هذا يعني ان مورغان ما زال يحاول نظم الشعر رغم فشله.

لم تقرأ شيئاً اقراراً منها بعدم التطفل.

انها تشعر بأن السعادة تتسرب الى قلبها، وكم تتمنى لو يكون هذا الاحتفال الملعون في حكم المنتهي! سيكونان في خلال يومين ماخوذين في دوامة انجاز جميع الترتيبات. قرعت باب جدتها وحين دخلت وجدت ان سريرها مرتب فقالت لها مازحة:

ـ ما هذا؟ أراك سعيدة هذا الصباح يا جدتي وتغنين أغنيات حب بعد الفطور!

ـ ولماذا لا أكون سعيدة وأغني خاصة بعد الذي رأيته في الأسطبل؟ سمعت محرك السيارة يدور فتطلعت من النافذة لألوح ببيدي مودعة. لا تبالي الي يا بنيّتي وتخجلي كثيراً. انه ليسعدني حقاً ان تسير الأمور هكذا الآن، كما كان يجب ان تسير منذ مدة طويلة والتي لم تسلك هذا الطريق لأن لكليكما كبرياءه. فقد دخل ذهنك ان مورغان حشر نفسه لينقذ ماء وجهك. واعتقد مورغان بأن الرجل لا يجب ان يتخذ امرأة بديلا أو تعويضاً عن امرأة أخفق في الحصول عليها.

اتسعت حدقتا سوزانا وأمسكت بذراع كلوتيلد وقالت متسائلة:

ـ هل صحيحة يا جدتي العبارة الأخيرة التي تفوهت بها؟ او انك فقط تقولين ما تتصورينه؟

ـ أمامك سبيل واحد لمعرفة ذلك: أساليه وكوني شجاعة يا صغيرتي. هناك أشياء استطيع اطلاعك عليها لتقنعك ولكنني لا أريد حرمان مورغان من حلاوة اطلاعك عليها بنفسه.

ـ كدنا نصل الى هذه النقطة ولكننا أجلنا ذلك الى ما بعد الاحتفال.

تنهدت كلوتيلد وتكلمت كممثل يخاطب نفسه على المسرح:

ـ بصراحة انا لا أفهم هذا الجيل أبداً... لا يعرفون انه لا يوجد وقت مثالي أو موعد معين لاعلان الحب... وان أحلى ساعات الاعلان هي الساعات الحرجة، الساعة التي تخطف خطفاً. لا، لا أفهمهم حقاً!

ثم التفتت الى حفيدتها وقالت وهي تضحك:

ـ اسمعي يا حلوتي. لم يرد مورغان أن يستعجلك هذه المرة لأنه يخشى من أن تعطيه جواباً عكس ما ينتظر، ولكن في عروقك الكفاية من الدم الفرنسي الذي سيساعدك على طرد كل شك من ذهنك.

ضحكت سوزانا من كل قلبها وطوقت كلوتيلد بذراعيها وقبلتها قائلة:

ـ انك سيدة شريرة... ولكن عزيزة. وأنا متأكدة من انك أنت والخالة اليز قمتما بتدبير مكيدة في هذين اليومين.

ـ لا أنكر ذلك، اذ بينما يؤثر السن في النظر فيضعفه وفي السمع فيبلّده. فانه يُقوّي الادراك الداخلي ويجعله اكثر حدّة. ففي ليلة أول أمس، كنت أنت ومورغان جالسين ملتصقين بالقرب من النافذة تتهامسان في أشياء وددنا سماعها. قلنا انه لو كان في يدنا عصا سحرية لاستعملناها لابعاد كل شخص كان هناك لنترككما منفردين بنفسيكما. والآن فكري فيما قلته لك.

كانت سوزانا في طريقها الى الصالون لنفض الغبار هناك عندما طلبتها ستيفاني لتتحادث معها على التلفون كعادتها غالباً. ولم تمض بضع دقائق على بدء الحديث حتى قطعته وقالت:

ـ أريد ان اسألك سؤالا يا سوزانا. لاحظت ان مورغان لم يكن كعادته. بدا لي قلقاً على التلفون. لماذا؟ فقد كلمته بعد ان كلم بريتت. وأبدى بريتت كل تحفظ عندما سألته عما قال له مورغان. هل لديك علم بالأمر؟

ـ لا، ولكنني لاحظتُ ذلك أيضاً. وعندما سألت مورغان عما اذا كان ثمة شيء مزعج، أجابني بالنفي، ولكنني لم اقتنع. ذكرت أنك تكلمت مع مورغان. هل سألته؟

ـ بالطبع سألته. وأول سؤال كان بصدد يوم ميلاد والدتي، بدا متضايقاً كأنه لا يريد البحث في هذا الموضوع. أقلقني ذلك وقلت له: ما الأمر يا مورغان؟ هل أن الأمور ليست على ما يرام بينك وبين سوزانا؟ كلا. لا تقاطعيني يا سوزانا. تغير صوته في الحال وقال: لا تفكري في هذه القضية يا ستيفاني. لم يكن الحال بيني وبينها سابقاً أحسن مما هو عليه الآن ونحن على وشك تسوية كل شيء. كلا. هناك شيء آخر غير هذا، ولكن لا تقلقي، فقد ينتهي على خير. يجب ان اتركك. وبالرغم من تأكيده لي بأن كل شيء على ما يرام أراني منشغلة البال يا سوزانا. ربما حشرت نفسي في شيء لا أحد يجرؤ على التدخل فيه. ولكن أرجوك، ارجوك. لا تحطمي قلب شقيقي مرة ثانية. لأنه يعتقد بأن الأمور حسنة بينكما، فاجعليها حسنة كما يعتقد.

ابتلعت سوزانا ريقها وقالت:

- احطم قلبه... مرة أخرى؟ ماذا تعنين بذلك؟

- دعيني اصارحك تماماً. يبدو لي شيئاً ما معقّد بينكما منذ خمس سنوات ولكنني لا أفهم ما هو، ولا أعرف لونه أو شكله. انا متأكدة من انك لست غير مكترثة به. ومورغان هو الذي اقترح على كلوتيلد لتبكر في الاحتفال خمس سنوات قبل موعده المألوف، فقط لاسترجاعك اذا امكن ذلك. ربما ظنّ ان ذلك حماقة منه، ولكنه لم يستطع اخراجك من قلبه. لذلك أحسّ بأن الأمور بدأت تختلط كثيراً. ويبدو انه حين وصلتِ منذ خمس سنوات يا سوزانا، وقع في حبك من أول نظرة، ولكن قلبك لم يرنُ إلاّ الى جون ربما لأنه كان أقرب منه سناً لك. ثم قال لي مورغان بأنه تحامل عليك فخطبك كما تعلمين. ولكنه لم يتمكن من اعطائي تفاصيل أدق لأنه كلمني وأنا في لندن قبل أن نذهب الى كانتربوري بمدة وجيزة، وتعلمين ان الحديث عبر المسافات الطويلة يكلّف كثيراً. لم يكن يبالي، بالطبع، بهذه الكلفة، بل بتنفيذ هدفه في اعادتك الى نيوزيلاند. وقال انه بعمله هذا قد يجازف ويلقي بك في احضان جون. شككت في ذلك أول الأمر، ثم تساءلت ما سوف يحدث لو وقع ما خشيته؟ ولا أتحمل ان ارى التعاسة تحل بشخص ما مثلما حلت بفرنسواز. وقال ان الخطبة السابقة كانت صورية ولكنه لم يوضح لي سبب ذلك وأضاف بانك لم تتخلصي تماماً من تأثيرها عليك وأفهمني بانه لن يندفع هذه المرة اذا عدت من انكلترا ومكثت هنا نهائياً لأنه ظن انه من الأسهل اقناعك بالعودة لو قلت لكِ بانه يعمل في نيوهبريديز، وأنه رحل عن وادي لارشوود. اخبريني يا سوزانا. لماذا اردت فسخ الخطوبة بالرغم من غرابة حدوثها؟ قال لي مورغان بأنه لم يرد الضغط عليك لابقائها قائمة لأنه يحبك كثيراً. ما قولك في هذا؟

- إنك صديقتي التي أثق بها، وسأفضي إليك بكل شيء. بالفعل وقعت خلافات بيننا، وكنت انتظر فرصة ملائمة لأخبر جون بأنني سأتخلى عنه قبل ان يحاول خطبتي رسمياً ولكن بدون ان ابيّن له سبب ابتعادي عنه، مع ان الأمر كان في غاية البساطة. فقد تحققت من حبي لمورغان. ولكن مورغان لم يكتشف حبي له، ولما رأى ان جون تحول الى فرنسواز حاول انقاذ موقفي باعلانه عن قرب خطوبتنا. والمضحك في كل هذا هو اني أملت منه بان

يعتبرها خطبة حقيقية حين طلبت منه فسخها، ولكنه وافق ولم يحاول تثبيتها.

انفجرت ستيفاني بالضحك وقالت:

- يا لهذه الحماقة! لو كنت اعرف لسجنتك في العليّة وأقفلت الباب عليك حتى ازوجكما. ولكن الأمور سويت بينكما، اليس كذلك؟

- نعم. عندما كنا في تلك الليلة في خليج روسينيول وكنا في غرفة تعج بالناس همس مورغان في اذني قائلا بأنه بعد انقشاع جلبة الاحتفال سنتباحث في أمور تخص كلينا.

- اذا كان في امكانكما انتظار كل تلك المدة فأنا لا يمكنني. ليذهب الاحتفال الى الشيطان. هذا التأجيل ليس الا ستاراً ليختبرك. اسمعي يا سوزانا. في أول فرصة تتاح لك أضربي والحديد حام. أفهمت؟

كاد الضحك يخنق سوزانا:

- هذا ليس رومانتيكياً! ماذا ستقول الخالة اليز؟ لكن مهلا يا ستيفاني، سأضرب والحديد حام!

اخذت «نفاضة الغبار» وبدأت بتنظيف اثاث الصالون مبتدئة بالخزانة الكبيرة الممتدة على طول الحائط والتي تحوي نفائس من فرنسا القديمة ونفائس من العصر الاستعماري. اتت النفائس الاستعمارية من انكلترا ويعود عمر بعضها الى قرون خلت. والنفائس في مجملها كانت جزءاً من حياة عدة أجيال من القاطنين في هذا الطرف النائي من السهول. بعض هذه النفائس ثمينة جداً، ومع ذلك لم توضع عليها الحماية الكافية الحماية الوحيدة لها هو مفتاح الخزانة ولكن ذلك لا يمنع أياً كان من السرقة في غياب أهل الدار. وحتى الآن لم يستعمل المفتاح بالرغم من انه موجود في القفل. غير ان سوزان أدارت المفتاح ووضعته في جيبها بعد ان أغلقت باب الخزانة معللة عملها هذا بسبب ما قاله لويس عن قيمة تلك القطع وجعلها تدرك اهميتها. وألقت بنظرة عاجلة على بعض القطع وتساءلت عما قد تقص عليها من حكايات لو أن لها لساناً ينطق! وفجأة توقفت عند نقطة حيث كان نور الشمس يسطع على علبة طويلة الشكل مبطنة بمخمل أسود تحوي ما قالت جدتها عنه مؤخراً انه ربما كان الثمن طقم من الحجارة الكريمة لديهم. وبدلا من ان تضرب الشمس بنورها على هذا الطقم المكون من أربعة عشر

حجراً منقسمة الى صفين متناسقين من سبعة حجارة في كل صف كلها مشغولة بدقة، ضربت على طقم ذي اثني عشر حجراً منقسمة الى ستة حجارة في كل صف متباعدة التنسيق، ويختلف هذا الطقم عن ذاك.

وفيما هي كذلك تكشفت لها الحقيقة. لويس اخذ الطقم! سعره في الخارج أعلى بكثير مما هو هنا، خاصة في بابيته، حيث تهافت السياح يرفع من سعره ارتفاعاً فاحشاً.

خارت قواها وأحست باشمئزاز كبير. لويس قريب لهم وشقيق حبيبتهم فرنسواز ورفيقها هي في اللعب أيام الصغر. القت نظرة سريعة محمومة على رفوف الخزانة ووجدت اشياء اخرى ناقصة غير طقم الحجارة. آه، يا له من ماكر! لم يأخذ قطعاً كبيرة الحجم. نشل قطعاً من الحجم الصغير لا تلفت الانظار منها علبة اشغال وعلبة سعوط وحلية او حليتان وصحن أو صحنان... أخذ كل جسمها يرتجف وأطبقت اصابعها من شدة التأثر.

حمدت ربها لأن لويس في العمل مع دان في بعض انحاء المزرعة فهي لا تتحمل مواجهته في هذا الظرف وودّت لو كان مورغان في البيت الآن، فانه يعرف كيف يتخطى الأزمات. وقبل كل شيء يجب تجنيب الجدة أية صدمة، وعلى مورغان ان يقابله ليسترجع كل ما اخذه ولابعاده عن الوادي حتى تبقى كلوتيلد في جهل تام مما حدث والا قتلت الصدمة هذه المرأة التي ناهزت الرابعة والثمانين.

ستستدعي مورغان وتطلب منه ان يعود حالما تنتهي السيارة من التصليح، ولكن لا يجب ان تعرف كلوتيلد بهذه المكالمة، ولما ذهبت لتراها وجدتها تحمل سلة وعلى أهبة الخروج. قالت كلوتيلد:

ـ انا ذاهبة الى بيت نسي مع بعض الشوكولا للأولاد وعدد من البيض لأن دجاجها لا ينتج بيضاً كدجاجنا.

اتصلت سوزانا بالكاراج في راكايا حيث ينتظرون وصول مورغان في أية لحظة وقد يعود حتى قبل انتهاء العمل، وقد فوجىء الرجل الذي تكلم معها فسألها:

ـ لا يا مس كاريو. هل سببت له السيارة متاعب أخرى؟

ـ كلا. ربما لم تكن انت الذي عالجت عطل السيارة. سيجلب قطعة أصلية من كرايستشرش بدل القطعة المستعملة التي وضعوها فيها مؤقتاً

الليلة الماضية.

رفع المتكلم صوته بعض الشيء وبدا مغتاظاً:

ـ انا عالجت العطل شخصياً. لم استعمل قطعة مستعملة. ما هذه القصة؟

ولكنها سألته محاولة منها لتجنب الاجابة على سؤاله:

ـ الم تعين له موعداً ليأتي لك بسيارته عند الحادية عشرة؟

ـ ليس هناك أي موعد بيننا. ربما كان هناك سوء تفاهم.

ارتبكت ولكنها قالت:

ـ ربما لم افهم منه جيداً. في أي حال، ارجوك ان تطلب منه ان يتصل بي فور وصوله. الأمر مهم ومستعجل.

واتصلت بالمدرسة وبجماعة قاطعي الاشجار وطلبت منهم ان يبلغوه رسالتها بالرغم من ان وجوده لم يكن مرتقباً هناك.

عادت الى غرفة لويس وقالت في نفسها ربما أخفى لويس هذه القطع في حقيبته اذا كان هو الذي سرقها. ولكن هل لويس هو الذي اخذها حقاً؟ قد يكون أحد اللصوص اغتنم خلو البيت من سكانه طيلة اليوم.

فتحت دولاب ثيابه ووجدت حقيبته مقفلة في داخله، ورأت انه من الغريب ان يقفل حقيبته في بيت اقربائه. حملتها ووجدتها اثقل مما توقعت كما لو كانت محشوة ثياباً، وعندما ادارت نظرها في انحاء الدولاب رأت طقمين وبعض البنطلونات وقميصين معلقة فيه بعد ان كان لا يتسع للثياب المعلقة في الاسبوع الفائت.

وفتحت ادراج خزانة اخرى ووجدتها خاوية من كل شيء حتى من احذيته مما يدل على ان لويس جاهز للرحيل. وبدأ اليقين يحل محل الشك.

نزلت الى أسفل لتتصل ببائع القطع الأثرية الذي زاره لويس ظهر البارحة. ما اسمه؟ آه، تذكرت الآن وطلبت المخابرة الخارجية.

ـ هل لك ان تخبرني اذا كان قد زارك رجل ما ظهر أمس عارضاً عليك بيع بعض الحجارة الصغيرة وقطع أخرى معظمها من صنع فرنسي مثل علب سعوط وعلب اشغال وغير ذلك؟ انه طويل، اسمر، وفي كلامه لكنة أجنبية خفيفة.

ـ نعم ولا. كان يتفحص فقط، ودخلنا في حديث وأخذ يسألني عن

قيمة أشياء كهذه هنا. قال انه من فرنسا وفي بيته هناك قطع مثلها. أطلعته على أسعار تقديرية هنا وفي كرايستشرش ولكني قلت له أن اسعارها في باريس ولندن ونيويورك هي أعلى من ذلك بكثير. لكن قولي لي. هل من مشكلة؟ هل أنت من الشرطة؟ لا بأس من الاستيضاح.

ـ لا توجد أية مشكلة. جدل عائلي فقط. والرجل الذي نحن بصدده قريب لنا وقد قال لنا أن نفائسنا لها قيمة عالية ولكننا لم نصدقه.

ـ هذا حسن لأني ارفض شراء أي شيء قبل التدقيق والتأكد من مصدرها لأني لست من أولئك الذين يغضون الطرف كي يحصلوا على بضاعة بسعر أدنى.

ـ أنا متأكدة من ذلك. فقط اعتقدنا بأنه يبالغ في تقديره.

ـ أؤكد لك ان ما قاله لم يكن مبالغة اذا اطلعكم على تقديراته لها. دعيني اقدم لك نصيحة. أمّنوا على نفائسكم اذا كانت مكشوفة ومعرّضة للسرقة.

شكرته وأعادت السمّاعة الى مكانها واخذت تفكر. هذا شيء من اختصاصات مورغان، أما هي فلا تجسر على مواجهة لويس في غياب مورغان عن البيت وأنها لا تدري ما قد يحدث بين الاثنين. وقد تطالبه العائلة بارجاعها دون ان تقدم شكوى ضده حفاظاً على تماسك العائلة، وقد يدفعه جشعه الى المساومة.

عادت بذاكرتها الى أيام صباها البريئة منذ خمس عشرة سنة عندما كان لويس بمثابة أخ لها. تذكرت العابهما المسلية والمشاكل التي كانا يتسببان فيها والاخطار التي خرجا منها دائماً سالمين بفضل جرأته وحتى انجذابه نحو الجبال وانجرافها معه لأنه لم يتصور ان للبنت رأساً لا يصمد في المرتفعات، ولولا والد مورغان لكانت هلكت لا محالة في مرتفعات كورج فورستير.

جعلتها هذه الافكار الحلوة تثور على تشككها في سلوك لويس، وعلى جنوح خيالها. لتترك ذلك جانباً حتى عودة مورغان ليتحرى سرّ اختفاء القطع وما اذا كان ذلك من صنع لويس أو أحد اللصوص. وقد يسند إليها مهمة الهاء لويس ريثما يتمكن مورغان من حيثيات القضية. لا يجب ان يتهموه خطأ. عليها ان تشغل نفسها بشيء ما، وأن تجد عملا جدياً يلهيها عن تفكيرها.

ستبدأ بتنظيف المستودع أولا. تسلحت «بنفاضات غبار» وممسحة ويسطل بلاستيك وبفرشاة فرك وبرغوة صابون، ولكنها اتصلت اولا بنسّي في الكوخ وقالت لها:

ـ هل تستطيعين ان تبقي جدتي عندك حتى الغداء؟ انا مشغولة هنا بتنظيفات عامة وسأكتفي بقطعة ساندويش.

ـ بكل سرور، خاصة وان والدتي آتية الى هنا ويمكن ان تمضي وقتها مع الجدة. ستأتيك جدتك حوالى الرابعة والنصف.

اشتغلت سوزانا بحزم واستأنفت عملها بعد القيلولة مدة ساعة من الزمن عندما سمعت وقع حوافر حصان. انه لويس. قد يربكها هذا الموقف.

قطع الباحة وهو يصفر. ثم قال وهو يضحك:

ـ برهنت على اني اقل فائدة مما تصورت وربما أفقدتهم صبرهم. برينت سيساعد دان وهو يساوي ستة من امثالي، وعلى هذا انسحبت. ماذا تفعلين يا عزيزتي؟ تفركين الأرض؟ هل هذا ضروري في هذا الحرّ الشديد؟

أجابت وهي تشعر بان شكوكها خفّت بعض الشيء:

ـ قاربت النهاية وسأستحم وأبدل ملابسي. جدتي عند نسّي وستمضي يومها هناك. ما كنت بدأت بالعمل لو عرفت مسبقاً بان الحرارة سترتفع الى هذه الدرجة. لا نشعر حتى بنسمة هواء.

ـ كم بقي لك من الوقت كي تنتهي من عملك؟ قليل من الوقت؟ حسناً. ما قولك في أول سباحة نقوم بها هذه السنة في بركة السد؟ منظرها اغراني عندما رأيتها ذلك اليوم.

ـ هل لديك مايو للسباحة؟ يمكنك استعمال احد مايوهات مورغان.

ـ ليس عندي واحد هنا. سأسمح لنفسي باستعارة واحد من مايوهات مورغان. لم اتوقع ان أطيل اقامتي عندما أتيت الى هنا أو ان يكون الطقس ملائماً لأحد سكان تاهيتي مثلي. وقد نسيت الرياح الجافة والحارة التي تهب على السهول. لا تتعجلي. علي ان اتصل باوكلاند وسأدفع ثمن هذه المكالمة.

ـ لا تقلق بالك بسبب ذلك. نستطيع تحمل هذه النفقة.

ـ لست من رأيك. ليس من المناسب ان يتسبب الضيف في مصاريف كهذه وان يعيش على خيرات الأرض. عرضت على العمة كلوتيلد ان أساهم في مصاريف البيت ولكنها رفضت حتى التكلم في هذا الموضوع رغم اطالة اقامتي هنا.

داخل سوزانا شعور غير عادي، يشبه الشعور بالذنب. كيف تتجرأ وتشكك في نزاهة لويس وهو يصرح بهذه الطريقة؟

عندما دخلت غرفة مورغان غزا الغرفة تيار هواء قلب اناءً، وبعثر أوراق المسودة في كل الغرفة. وأخذت تجمعها صفحة صفحة. وترى محاولته في الكتابة، وقد خربش سطوراً كثيرة وأعاد كتابة بعضها. ولكن الصفحتين الأخيرتين دلتا على أنهما تحتويان على عمله المنجز والمصقول.

وصدف ان وقع نظرها على أسمها. أية فتاة تقاوم فضولها ولا تقرأ ما ترى؟

لم تصدق ما رأت عيناها. وأخذت تقرأ شعراً من تأليف مورغان:

ماذا أفعلُ أيها الشعراء
لكي أصف سوزانا الساحرة؟
هل أجمع عيونكم الثاقبة
وأحلامكم البعيدة؟
هل أغمس قلمي في ضوء النهار
لأرسم وجهها الفاتن؟
كأنّ الفجر يطلع من بسمة
تشرق من عينيها الجميلتين!
كم يروق لي ذلك الشفق الذهبي
منسدلاً فوق كتفيها باحمرارٍ خجول!
ذلك القمرُ الأرجواني
المكتملُ فوق شفتيها!
ذلك الثوب الذي يلامس
جسدها النقي!
من يصدق تلك النشوة
حين تلتفت سوزانا،

وحين تملأ كأس السعادة
بنظراتها؟
لو ان لي عيون الشعراء
لأكتب قصيدتي الوحيدة،
لأطلق مخيلتي كطائرٍ
يحوّم في فضائها الساحر!

وجدت سوزانا متعة حتى في ضحكتها... يا له من شاعر هزلي جدي... هذه الأبيات أحلى على قلبها من العسل. كلماتها تصرخ الحقيقة عالياً. ما أحلى هذا النهار. ما اجمله. أسرع يا مورغان، عد الى البيت. سبقت ستيفاني الشعر ببشراها ثم أتى هذا الشعر لأثبات قولها.

اختارت مايو سباحة للويس من بين ألبسة مورغان وذهبت الى غرفتها وتناولت ثوب سباحة من قطعة واحدة اخضر اللون مقلما بخطوط مائلة سوداء ولم تختر ثوباً آخر لأنها تعرف حرارة الماء. لبست ثوب السباحة ولبست فوقه جاكيت- فوطة وانتعلت صندلا خفيفاً.

انتهى لويس من مكالمته التلفونية وأحضر السيارة. لم تكن المسافة الى البركة طويلة. كانت البركة مغمورة بنور الشمس ولكن الماء لم يكن حاراً لأنه ينحدر من الصخور المرتفعة حيث الهواء بارد نوعاً ما. منظر الحوض جميل، يحده صخر من طرف واحد يتساقط الماء من فوقه ويشكّل مجاري صغيرة في الحوض يتسع حجمها عندما تلتقي في قعر البركة أو تتفرق في جوانبها.

يمكن للمستحم ان يتمدد ليأخذ حمام شمس في اي مكان حول البركة الا من ناحية واحدة حيث الاغصان التي تتشابك مع الأشجار الصغيرة. لا يؤتمن جانبها.

أمضيا نصف ساعة يتمازحان ويتراشقان بالماء، ولم يغطسا ولو مرة واحدة لتفادي الارتطام بصخور القعر. وفي اثناء كل ذلك شعرت سوزانا بسخافة موقفها وقلقها بسبب اختفاء القطع. قد تكون كلوتيلد على علم بذلك فتطمئنها. طردت كل شيء من فكرها وتلذذت بالساعة التي هي فيها. قالت سوزانا:

ـ اشعر بشيء من التعب كما يحدث بعد كل أول سباحة. لنصعد ونجلس قليلا في الشمس. ليتنا أتينا بطرّاحتين، لكن لا بأس، نستطيع

www.elromancia.com

التمدد على مناشفنا.

كان الافريز حيث تمددا واسعاً يكفي لاربعة او خمسة اشخاص وأرضيته ملساء. انبطحا على بطنيهما وعرّضا ظهريهما للشمس. بعد وقت قصير قال لويس:

ـ آسف ان اخبرك يا سوزانا انني مضطر للسفر الى اوكلاند في مهمة عمل. كنت متوقعاً ذلك ولكنني كنت آمل في تأجيل هذه الرحلة الى ما بعد الاحتفال. وقد تعني هذه الرحلة بالنسبة اليّ بضعة آلاف من الجنيهات الأضافية في جيبي اذا تكللت بالنجاح. ولكنني سأكون هنا في اليوم الكبير، بل قبل ذلك اليوم بمدة، ولن أخذل عمتي مهما كلفني الأمر. هل في مقدورك اصطحابي الى مطار كرايستشرش في ساعة مبكرة من صباح الغد يا سوزانا؟

تجهم وجه سوزانا وعاودتها الظنون متدافعة وأجابت بغصة:

ـ طبعاً. ولكن في أية ساعة تقريباً؟

ـ آسف لهذا الازعاج... حوالى الثامنة والنصف، فقد حجزت مكاناً حين اتصلوا بي.

اخذ قلبها يضرب في جوانبها بشدة. هكذا اذن. ربما صح حدسها عن مهمة مورغان المتعلقة بلويس هذا النهار. هل من المحتمل ان تكون الخالة اليز قد فقدت شيئاً من متحف روسينيول؟... وان مورغان تواعد مع فرنسوا في كرايستشرش ليتباحثا في الأمر وما يتوجب عليهما عمله؟

لم يخطر في ذهنها بأنه اتصل بأوكلاند أو المطار. حقيبته جاهزة لينصرف خلسة وسيخلق لنفسه الاعذار فيتصل من أوكلاند ليقول بأنه اضطر للرجوع الى تاهيتي. ومن هناك سيتوجه بكل تأكيد الى لوس انجلوس لبيعها هناك. ولو أجري تحقيق ما في الأمر فسيعلن بكل طهر وانفة عن جهله وسخطه. ويأمل طبعاً الا ينكشف أمر بيع القطع التي لن تظهر في الأسواق الا بعد مدة من الزمن ولن يلاحظها أحد بين العديد من مثيلاتها. لكنه ربما يجهل أن قضية ظهور الشمس والسباحة كشفت عن نواياه. تملك سوزانا غضب شديد ولكنها كبتته لأنها لا تريد ان تظهر أي رد فعل أو ظن، فلتتحمل اذن طعم مرارة الموقف الآن على الأقل.

بدأت حديثاً طريفاً معه وأنهته بقولها:

ـ بدأت أشعر بخشونة الصخر. وعلاوة على ذلك ربما اصبحت جدتي في البيت الآن. فلنعد ادراجنا.

ـ هذا صحيح. لقد فكرت في ذلك أنا أيضاً. وفوق ذلك يجب ان ابدأ بتحضير حوائجي. وبالرغم من انني لا اعتقد بأني سأمر ببابيتيه لتثبيت هذا الطلب الا انني سأستعد لكل طارىء. من يدري؟ وسآخذ كل شيء.

ـ خيراً تفعل. وفي كل حال، انت لم تأتِ بالكثير عندما أتيت.

امسكت بغصن شجرة ليساعدها على النهوض. قال لها لويس:

ـ ما هذا؟ هل هو اثر جرح بليغ. ما سببه؟

كانت ندبة الجرح بين المرفق والابط، ولا تظهر الا اذا رفعت ذراعها فوق رأسها. نهرته سوزانا وقالت:

ـ هل نسيت يا لويس كيف قذف بنا الحصان القزم على الاسلاك الشائكة وحملنا جدي الى المستشفى؟

جفلت عيناه وأدار وجهه، ثم قال بسرعة:

ـ انت تعرفين يا سوزانا أنّ هناك أشياء اتذكرها وأشياء انساها. جرحك من الاشياء التي نسيتها؟

ـ ولكن عندما تلقي نظرة بنفسك على ندبتك انت الا تتساءل عن سبب ذلك؟

امسكت بذراعه وقلبته. حملقت في ذراعه ولم تصدق عينيها. كان جلده سليماً معافى ولا اثر لأي جرح فيه، ولا لخدش حتى.

هزت رأسها ووثبت واقفة. نهض هو الآخر ولكن بشيء من الترنح ولأول مرة رأته مرتبكاً. ثبّتت نظرها فيه وقالت مشككة:

ـ هذا ليس أنت. انك لست لويس. ولكن من أنت؟ وكيف وصلت الى هنا؟ لماذا تنتحل شخصية لويس؟

وفي اللحظة التالية حين رأت نظرته القبيحة في وجهه تلك التي من المستحيل ان تظهر على وجه لويس الحقيقي الصغير ندمت على تسرعها في اتهامه. قبض على معصمها بيد من حديد وقال مزمجراً:

ـ ستأسفين لقولك هذا. وتخطئين اذا كنت تعتقدين ان بامكانك ان تفسدي علي عملي. لن تلومي الا نفسك... لأنك انت التي استقبلتني باسم لويس. ولولا استقبالك لي بهذا الشكل لرحلت بعد بضعة أيام من قدومي.

يجب ان تشغله في الحديث. ربما تستطيع ان تتملص منه. هذا كابوس لا يحدث عادة خاصة في مثل هذه المزارع الهادئة. قالت:

- ولكن لماذا قصدتنا بالذات؟ وكيف تكون صورة حية للويس؟ ولكن... ولكن من... (فطنت الى شيء. قالت مقتنعة) انت احد اقرباء لويس ولا تقربنا بشيء. انت الذي قال عنه لويس انك تشبهه كتوأم له، وفرنسواز ذاتها قالت ان الشبه بينكما كان شوكة في جسم لويس لأن لك سوابق كثيرة!

وفي لحظة انشداده الى حديثها ليرى مدى معرفتها عن حياته السابقة غافلته وافلتت ذراعاً واحداً بينما بقي الذراع الآخر في قبضته، واخذا يتعاركان حين كاد يسقط حيث الاغصان المتشابكة والاعشاب الخطرة في الماء. ولكنها امسكت به لتنقذه. استعاد توازنه وهو ممسك بها. ولكنها سقطت هي! لم تدر ما اذا كان هو الذي دفعها الى الماء. أخذت تصرخ وتضرب في الماء بكل قواها وهي تدور على نفسها لا تستطيع التحرك وقد تملكها الرعب، ولكنه كان يضحك، فيئست من كل أمل.

حبست انفاسها وغطست تحت الماء وانزلقت بين جذوع اشجار لزجة واخذت تبحث عن شيء تمسك به فوجدت اغصاناً صغيرة وقبضت عليها بقوة وثبتت رؤوس أصابع قدميها على جذع وقفزت الى أعلى فبرزت فوق سطح الماء. هزت رأسها هزة عنيفة وأزالت الماء عن عينيها. ملأت رئتيها بالهواء ثم التفتت ورأته واقفاً ينظر اليها نظرة لم تر مثلها من قبل. لم يكن الطرف الذي نزلا منه الى الماء بعيداً عنها الا انه يستطيع الوصول اليه قبلها... وتخوفت من انه لن يسمح لها بالخروج لتذهب الى البيت وتكشف حقيقة امره.

اجتاحها رعب هائل ولكن غريزة تنازع البقاء غلبت عليها فاستدارت لتسبح الى الطرف المقابل. وكان هذا الطرف خطراً. اذ ان صخوره مائلة وزلقة يغطيها الوحل والطحلب ولكن الاغصان التي تغطيها تصل الى الماء وقد تساعدها على التسلق. امسكت بأحدها ونظرت الى الوراء فرأته يحاول ان يفعل شيئاً ليحول دون خروجها من البركة.

رفع نظره الى التل الذي فوق رأسها ورأى انها قد تتسلقه اذا نجحت في الخروج من البركة ومن هناك تستطيع ان تنسلّ بين العليقات الكثيفة وتشق

طريقها الى مزرعة الكورج حيث يمكنها ان تجد احداً ينجدها. لا يستطيع الوصول الى حيث هي ولكنها رأته يتسلق الصخور ليقترب منها ويقفز ليكون بجانبها قبل ان تباشر في التسلق.

عليها ان تسبقه والا ضاعت فرصتها الوحيدة. ولأن اليأس يولد القوة. اجمعت قواها وتسلقت بأصابع من مخالب واختفت بين الاشجار. انها تعرف طريقها في هذه المنطقة، اما هو فيجهلها، ولكن مشكلتها هي انه لا يزال في المرتفع فوقها، واذا قطع عليها الطريق لن تستطيع ان تنحدر نحو النهر الذي يكون حاجزاً من الصعب اجتيازه. فما عليها اذن الا ان تختبىء.

هناك اشجار الفوشية الكثيرة العقد والكثيفة الاغصان على ضفتي النهر. وأخذت تتسلّل بين هذه الاشجار القوية. كانت قدمها تزل بعض الاحيان. لكنه كان ابطأ منها بكثير في شق طريقه بين الاشجار المتشابكة والمداد وأجمات الكرمة والعلّيق. قد يتمزق جلدها وتتألم كثيراً ولكن حبّ الحفاظ على الحياة سيساعدها على البقاء. كانت تسمع تكسر العيدان تحت وطأة قدميه كما كانت تسمع شتائمه. امتلأ جسمها برضوض وبقع حمراء وبالشوك الذي كان ينغرز في لحمها، ورغم ذلك لم تتوقف ولو لتستعيد انفاسها اللاهثة.

وصلت الآن الى كتف التل ودخلت ممراً جرفته المياه يؤدي الى مجرى ماء منخفض. كانت المجازفة كبيرة ولكنها رمت بنفسها وظلت تنزلق حتى اوقفتها جذور بلوطة كبيرة مغروزة في الطين. وهنا اخذت تزحف وتتلوى كالحية وهي تدور حول الجذور. تمددت لتملأ رئتيها بالهواء الذي كانت تحتاج اليه، كما كانت تحتاج الى تهدئة دقات قلبها. اصبح مطاردها عند الضفة العليا للنهر وسيحاول الوصول اليها اذا استدل على مخبئها او سمع حركة صغيرة.

كان عليها ان تعبر الماء الذي يجري تحتها الى الضفة الاخرى لتتبع ذلك بتسلق التل المشجر الواقع بينها وبين مزرعة الكورج. اخذ قلبها يخفق بسرعة وشعرت ان الجهد اكثر مما تستطيع تحمله، ولويس هذا- لا تعرف اسماً آخر له - ككل تاهيتي سبّاح ماهر، اما مهارتها هي في السباحة فمتوسطة. ومن المؤكد بانه اذا رآها تنزل في الماء سيلحق بها ولن تفلت من بين يديه. كان ذهنها يعمل ليتفتق عن حيلة. فكرت في حجر كبير عند

قدميها وانتها فكرة وبدأت في تنفيذها فوراً. لا يجب ان تتوانى لحظة واحدة لأنه اقترب من الوصول الى المرتفع. رفعت الحجر حتى كتفها وقذفت به الى جدول الماء تحتها مستعملة كل طاقتها. وقبل ان يصل الحجر الى قعر الماء اطلقت صرخة يجمد الدم لها. اكبر صرخة رعب تستطيع امرأة اطلاقها. هي نفسها شعرت ببرودة الرعب تسري في عروقها. تمددت بطولها على كومة الجذور والجذوع. سيعتبر ذلك صرخة الرعب قبل الموت بعد ان زلت قدمها وسقطت.

سمعته الآن يقترب من قمة التل وكان أقرب اليها مما اعتقدت. لا يمكنه ان يراها من مكانه ولكنها تجمّدت من الخوف. انه ينزل ويقترب مهرولا. ها هو يتوقف. سمعته يكلم نفسه. كانت الحجارة والحصى تتساقط على الصخور تحته. وتخيل لها انه اتجه نحو صخرة تطل على الجدول ليتأكد من انها طافت على سطح الماء. على بعد بضعة ياردات توجد بعض الشلالات. صحيح انها ليست قوية، ولكنها خطرة. ربما اعتقد انها سقطت من على هذه الشلالات وجرفتها المياه.

وصل الى أذنها صوته وهو يتنهد ارتياحاً. يا للهول. سمعته يمشي في محاذاة الضفة ليتأكد من انها انجرفت. جازفت وألقت بنظرة خاطفة من بين الجذور ورأته يدقّق النظر في الضفة المقابلة وما عتم ان بدأ يعود ادراجه بعد ان اعتقدت انه سيظل يراقب في مكانه. تنفست الصعداء. كان لويس الحقيقي يعرف كل شبر من هذه المنطقة، ولكن هذا المحتال غريب عنها.

سيتجه الآن نحو السيارة وسيسرع في الفرار لأن مشكلته تخطت مشكلة السرقة: انه انتحل شخصية انسان آخر وحاول ارتكاب جريمة قتل. ابتعد الآن ولم تعد تسمع وقع خطوات قدميه.

تعرف سوزانا ما يترتب عليها الآن. يجب ان تبتعد عن الشلالات وأن تقطع المسافة سباحة موازية حتى تصل الى بقعة رملية تستطيع الصعود اليها. من هناك حتى الجسر يلزمها عشرون دقيقة لتكون في وسط مزرعة الكورج. وبالرغم من ان جون في ولتون الآن، ستجد ايديث دايموند وزوجها ليستقبلاها وسيتصلان بدان وبرينت. ترجو ان يلهم الله جدتها لاطالة مدة زيارتها لاغنيس. انها تفضل ضياع المسروقات على اصابة جدتها بأي اذى قد يسبّبه لها هذا الرجل.

٩ـ اختبأت سوزانا في كوخ قديم لتنجو من مطاردة لويس. . . وبينما كانت تنتظر عودة الباحثين بزورق النجدة، سمعت صهيل فرس مورغان. . . ثم وجدته يتقدّم نحوها باعترافاته التي انتظرتها طويلاً.

حين خرجت سوزانا من مخبئها لم يكن ذلك جراة منها او تحدياً له، بل خوفاً على جدتها من ان ترى نفسها في مواجهة هذا اللص الذي لا يعرف له وجه. انسلت من مكان مخبئها بكل حذر كيلا يراها فيما لو عاد ليبحث عنها. عليها ان تصل الى الضفة ما بعد الشلالات.

النهر ليس كثير العمق، في بعض جوانبه حجارة وحصى تغطيها اغصان قد تساعدها على الصمود. وفي الفترة التالية رأت سوزانا نفسها خارج منطقة التيار في مجرى نهر وايماوكو، وهي مندفعة الآن نحو جزيرة دمبلن محمولة على سطح تيار كان يدور بها في دوامة. ورفعت رأسها لتستكشف موقعها فرأت ان التيار يدخل الآن خليجاً صغيراً يعرّش فوقه نبات الوزّال ونبات الصفصاف، فجددت نشاطها وزادت من قوتها الدافعة وكانت في كل مرة تبحث عن موطىء قدم ليكون بمثابة ركيزة لها تقفز منه الى اعلى والى الامام الى ان ارتطمت ركبتاها بصخور وحصى في جانب النهر فاطمأنت الى انها اصبحت الآن في امان.

بعد ان اخذت قسطها من الراحة وانتعشت رفعت رأسها وتفحصت ما حولها، وحين لم تر أو تحس بوجود خطر تسللت كالطيف بين الشجيرات متجهة نحو كوخ قديم كانت قد لجأت اليه جماعة ضلت طريقها فيما مضى.

دخلت الكوخ وهي تتعثر ولم تعط بالاً الى العفن ولا الى نسيج العنكبوت الذي كان يملأ المكان ولا الى الظلمة التي لم يكشحها ضوء النافذتين الصغيرتين. يكفي ان يكون هذا الكوخ ملجأ اميناً ولو لوقت

قصير، وستنقذ هذه الليلة عندما تشعل المصباح لتدلهم على مكان وجودها اذ لا بد من انهم سيهبون للبحث عنها. ومن مخبئها تستطيع ان ترى الجسر وتأمل ان ترى سيارة مورغان تمر من هناك وهو في طريق عودته الى البيت وعندها ستفعل المستحيل لتلفت انتباهه. لكنها تراجعت عن الخطة بسبب الخطر الكامن فيها اذ قد يجلب الضوء نظر المحتال فيعرف انها لا تزال على قيد الحياة، فيتجه نحوها. يجب ان تعطيه الوقت الكافي ليحمل اغراضه ويذهب قبل ان تتسبب هذه الحوادث بأي ازعاج لجدتها.

كان عليها ان ترتب أمورها في الكوخ حيث وجدت من الطعام ما يكفيها مدة الحصار. فهناك علب حليب وفتاحة علب وبسكويت وفاصوليا معلبة مطبوخة وشاي وقهوة. ولما كانت لا تجسر على اشعال النار في الوقت الحاضر فتحت علبة حليب مكثف وتناولت قليلا منه مع بعض البسكويت. هذا من منّ السماء رغم انه ليس طازجاً. وأفضل من كل هذا الحرامات التي وجدتها مطوية وملفوفة بعناية داخل صندوق محكم الغطاء.

تناولت كرسياً ولفت جسمها باحدى البطانيات (الحرامات) ثم جلست تراقب الجسر علها ترى مورغان يمرّ من هناك. ومما زاد في اطمئنانها انها تستطيع ان ترى من هناك أيضاً باحة الاسطبل وجزءاً من بناء البيت. آه... لحظة استرخاء في بيتها... ولكن لماذا التحسر الآن؟ غلب عليها النعاس وغطت في نوم عميق.

افاقت والظلام على أشده فأحست بالخطأ.

ازاحت الحرام عن جسمها ومشت الى النافذة ورأت النور يسطع في البيت ورأت في جوانب التلال نقاط اضواء تتلألأ وتتحرك ومشاعل كهربائية ومصابيح يحملها رجال ملأ الخوف قلوبهم وهم يبحثون عنها مشتتين بين الأمل واليأس.

تحسست طريقها الى الطاولة حيث مصباح الكاز (الكيروسين) وعلبة كبريت. اضاءت المصباح وانتظرت قليلا حتى يسخن زجاجها قبل ان تقوى شعلة الفتيل. فضلت لو كان هذا مصباحاً من النوع الذي لا ينطفىء في العواصف فتستعمله في ارسال اشارات الاستغاثة.

جمعت كمية من ابر الصنوبر ووضعتها في موقد المدفأة وأضافت عليها اكوازاً جافة من الصنوبر وقطعاً من خشب الصناديق واشعلتها. فامتلأ

الكوخ نوراً بفضل سرعة اشتعال صمغ الصنوبر... كان هذا كافياً ليلفت انظارهم. وحين كانت تطمئن الى نار المدفأة كانت تخرج وتلوح بالمصباح، ولكنها كانت تعود مسرعة حين تشعر بالبرد.

بحثت في جارور الطاولة عن آلة حادة فوجدت سكين مطبخ. تناولت حراماً وقطعته الى نصفين، ولفت أحد النصفين حول خصرها وساقيها وثبتت طرفه كيلا يسقط عن جسمها فشعرت بالدفء. وخرجت مرة اخرى وأخذت تلوح بمصباحها. كان الباحثون لا يزالون على جوانب وسفوح التلال وفي هواء لارشوود حين انصتت بانتباه وسمعتهم ينادون بأعلى صوتهم «سوزانا، سوزانا» ولم تسمعهم ينادون «لويس». ذلك يعني انه ربما رحل تاركاً وراءه رسالة يوضح فيها انه كان على عجلة من امره، وبهذا يكون قد ملص بشخصيته المزيفة... ولو الى حين. ولعلّه أخبرهم بأنها (سوزانا) ذهبت لتستحم في الوقت الذي اتته مخابرة مستعجلة من اوكلاند.

ارتفعت الآن ريح باردة على رؤوس الجبال كانت في اتجاهها. هذا يعني انه لا فائدة من ان تصرخ وتناديهم لان الريح لا تحمل صوتها في اتجاههم. ومن الواضح انهم يتوقعون سماع جواب على نداءاتهم من البرك في وادي لارشوود لا من جهة النهر. بدأت تشعر بالألم في قدميها من جديد. متى سينتبهون اليها؟ متى؟ تحولت الى مكان اكثر ارتفاعاً من مكانها وجلست على غصن شجرة وزّال- آلمتها هذه المحاولة كثيراً- الا ان هذه الشجرة اوحت لها فكرة مدهشة حقاً. الوزّال... هذا النبات، الذي تصنع منه المكانس، سريع الاشتعال.

اسرعت الى الكوخ وأخذت كبريتاً وقليلا من الكاز وعادت الى نبتتها لتتأكد من انها كبيرة بما فيه الكفاية وجافة. ووجدتها كما تريدُ تماماً. وقفت والريح من ورائها وصبت الكاز عليها واشعلتها مبتعدة عنها بأسرع ما يمكن اذ اندلعت النار فيها دفعة واحدة. يا له من مشهد رائع.

عصرت عينيها وأصغت بكل انتباه... وفجأة سمعت صوتاً واحداً واصواتاً أخرى ترد عليه. عرفت انهم شاهدوا اشارتها فأخذوا ينادون. لم تتأكد من سماع اسمها. ليس هذا مهماً. ولكنها فوجئت بصوت ادخل الاطمئنان الى قلبها:

- انت يا من على الجزيرة (قال الصوت) هل انت سوزانا كاريو؟ اذا كان جوابك بالايجاب، لوحي بمصباحك مرتين افقياً ومرتين عمودياً.

ولم تكد تنتهي من هذا حتى ارتفعت اصوات التهليل وتردد صداها بين التلال. وتسلمت رسالة ثانية:

- هل انت بخير. اجيبي بالاشارة نفسها!

وبعد ان اشارت اليهم حسب تعليماتهم، وبعد مضي فترة صمت ربما كانوا في خلالها يتشاورون قال الصوت:

- سنذهب الى بلير هيل لنأتي بزورق... هل فهمت تماماً؟ أجيبي.

لوحت بالمصباح اشارة لتسلمها رسالتهم وسمعت الصوت يقول:

- انتهى اتصالنا الآن... تدفئي جيداً. ربما نعود...

وقطع ذلك الصوت صوت آخر اتاها بوضوح:

- اتصالنا لا ينقطع يا سوزانا. سأكون بجانبك حالا.

هذا صوت مورغان. لقد عاد الى البيت. وكل ما تريد معرفته هو... الا ان الصوت عاد وقال:

- ترسل لك جدتك حبها. ستكونين بيننا عما قريب.

عادت الى الكوخ ووضعت المصباح على الطاولة. وكانت حرارة الكوخ مرتفعة جداً بسبب قطع الحطب التي وضعتها في الموقد. شعرت بنشاط وتجدد في جسمها لاطمئنانها على نفسها وعلى جدتها. اخذت القدر الاسود الكبير الموجود هناك وخرجت في ضوء القمر الساطع الى النهر.

غسلت القدر عدة مرات وملأته بالماء وعلقته في المدفأة فوق النار. أحضرت لنفسها ابريقاً كبيراً من الشاي وجلست وبين يديها فنجان ضخم من الشاي الساخن ينقل الدفء الى جسمها، وشربته مع البسكويت. تلهت بفنجانين من الشاي تمضية للوقت. ولم تحاول ان تنظر من النافذة لأن الزورق ليس مجهزاً بمصابيح. سحبت كرسياً قديماً وجلست عليه امام المدفأة ورجلاها ممدودتان الى الأمام.

واذ هي كذلك سمعت اغرب صوت في جزيرة خالية من السكان في وسط نهر كبير في كانتربوري... سمعت صوت حصان يصهل. ثم صوت حكمة (شكيمة) لجام... وفي اللحظة التالية رأت كتلة جسم مورغان في الباب بعد ان فتحه وقال هاتفاً:

- سوزانا... اه يا حبيبتي سوزانا... هل انت بخير يا حلوتي؟ يا حبي، هل انت على ما يرام؟ طمئنيني.

اجابته وقد شعرت بالراحة والطمأنينة بعد ان زال خوفها:

- انا على ما يرام وقد اتيت الآن. آه يا مورغان، مورغان، بماذا سميتني؟ هل تقول ذلك لأنك ظننت انني غرقت؟ ام انك تعني ما تقول؟

كانت تعرف من الأبيات التي قرأتها له، ولكنها تريد ان تسمع تأكيداته.

- تسألينني اذا كنت اعني ما أقول؟ احببتك يا سوزانا حباً جنونياً بالرغم من محاولتي للكف عن حبك كلّ مدة غيابك. احببتك منذ اتيت لحضور الاحتفال الأخير ولم استطع التخلص من واقع الفتاة ابنة الثانية عشرة التي كبرت واصبحت امرأة ناضجة في الثانية والعشرين والتي جعلت قلبي ينبض بسرعة. وخشيت من ان فارق السن سيحول بيننا وانك لن تلقي بالا الى احد غير جون. اتتذكرين يا سوزانا تلك الساعة عندما اطّلعنا سوياً على رسائل فكتورين روز في غرفة السقف؟ كيف لم اتقدم اليك لا ادري. وقعنا في خطأ سخيف عندما ظننا انه لا تأتي نهاية الاحتفال الا وتكونين مخطوبة الى جون. بالطبع كان جون اقرب سناً اليك. وكثيراً ما لعنت نفسي لاتخاذي موقفاً متردداً تجاهك. كان يجب ان اكتسح قلبك في حينه، اذ ما الذي حدث حينذاك؟ تحول عنك الى فرنسواز- مسكينة فرنسواز- وبدا لي انك كنت تعتبرينني مجرد بديل، مجرد رجل كريم انقذك من ورطة. اما انا فلم احد عن رأيي، وانتهزت الفرصة. كانت كل آمالي في ان اراك تتفهمين وضعي وتقتنعين بي تتبخر سريعاً، وانتهى الاحتفال واعلنت مخطوبة جون وفرنسواز ولم تستطيعي التخلص مني بسهولة غير اني لم استعمل الضغط عليك لأني لا أريد زوجة مترددة... انا رجل بديهي ومن طراز مختلف يا سوزانا. لا اتحمل ان يشاركني رجل ما حتى في افكارك.

كان وهو يتكلم يرفق كل عبارة تنهيدة حارة. وتابع يقول:

- والآن، هل ستحاولين الافلات مني يا عزيزتي؟

ضحكت ضحكة السعادة:

- لا، لا، لا. فقط اعطني نفساً لاتكلم ولأقول لك شيئاً بالمقابل. لو علمت بدقة شعورك هذا لما بددت كل تلك السنوات اتعذب بحبك. لو لم ترني يا مورغان وانا اراقب جون وفرنسواز في المرجات ذاك النهار... لو

انتظرت اربعاً وعشرين ساعة فقط لعرفت انني لم اكن احب جون. لأنني اتخذت قراراً تلك الليلة لاعلمه بقطع كل علاقة بيني وبينه، تلك العلاقة الفاترة والمرهقة. اتعرف لماذا؟ لأني وقعت في حبك حباً جنونياً وأبدياً لا يقاوم... اين؟... في غرفة السقف. ولكنني كنت اعتقد اذ ذاك ان قلبك كان ملتهباً بحب مارتي ولهذا لم تتزوج وانك كنت تراني مجرد مراهقة مزعجة يملأ النمش وجهها. والذي اعنيه يا مورغان هو انك صفعتني مرة على... ففاي. فكيف لي ان اعتبر هذا اذن غير عمل لطيف قام به رجل نحو فتاة؟

ـ قالت لي ستيفاني كل ذلك وهي تجري بجانبي لاهثة ونحن نبحث عنك، ولكنني اردت سماعه منك.

ضحك ثانية ضحكة لم تعرف له مثلها قبل ذلك، لطيفة ومرحة وصريحة. قالت:

ـ حدّثني يا مورغان لأتأكد من ان هذا صحيح.

ـ لو تتوقفين عن الكلام فقط. آه يا سوزانا. اعتقدت بأنك غرقت.

شعر بارتياح شديد بعد ان صارحها بكل شيء وجلس بجانبها على الكرسي القديم:

ـ لا شيء مثل هذه الكراسي الفكتورية القديمة المريحة التي تتسع لأثنين. آه ليت العمة اليز ترانا. كانت تتوق الى قيام علاقة رومانسية بيننا... نجلس معاً متمتعين بعبير اللاوند. ولكن اين نحن الآن من اللاوند؟ أننا في كوخ قذر فيه تبدو عروستي المقبلة كاوفيليا بخصل الساحرة وأعشابها... أريد ان اتثبت من انك في حال جيدة.

ازاح الحرام عن خصرها ورأى في ضوء النار الخدوش الدامية في كتفيها وتورما في اكثر من مكان في ساقيها من لسع نبات القرّاص والجلد المقشور في قدميها المتسخين، فقال بصوت متكسر:

ـ سامحيني يا سوزانا. انا المخطىء. كان يجب ان احذرك. انا...

وضعت يدها على وجهه وقالت:

ـ ما شأنك انت بهذا الخطأ. أنا الحمقاء. فان لويس هذا ليس لويس. انه قريبه الشرير، وهو...

انتفضت متأثرة، الا انه قال:

ـ اعرف يا عزيزتي. انه ارمان دي كورسي. كنت اشعر ان هناك شيئاً غريباً فيه يختلف عن طباع لويس ابن الخامسة عشر او الرابعة عشر أو اي عمر كان فيه. لم اعرف عنه شيئا ولكن العمة اليز تعرف. واستغربت منه جهله بأشياء كانت طبيعة ثانية في لويس كركوب الخيل مثلا. اما هذه النقطة فقد كشفت الكثير للعمة اليز. أتذكرين عندما كانوا يتكلمون عن عدم وجود تشابه بين لويس واخته فرنسواز؟ بدأت العمة اليز بقولها ان هناك تشابهاً بين لويس وفرنسواز في استدارة الرأس، ثم توقفت. كانت تريد ان تُكمل عن شكل يديه واذنيه البارزتين. وعند الكلام عن الاذنين رفعت نظرها الى اذني منتحل شخصية لويس، اي ارمان، وقالت لي ان الأذان لا تتغير. ان لسوزانا ولويس وفرنسواز ولي أنا أيضاً نفس الأذان الروسينيولية البارزة. والتوقف عن الكلام عند اكتشاف شخصية لويس المزيف يدل على رباطة جأش فائقة عند امرأة عجوز مثل اليز. هناك شيء آخر كان يحيّرها. المعروف عن لويس انه ماهر في تحرير الرسائل وكان يراسل اليز من حين الى آخر. ولما علمت بالحادث الذي وقع له بعثت له برسالة وفي جوابه لها ذكر انه لم يصب في رأسه وانه اصيب في ساقه فقط واضاف انه سيعود الى التسلق عما قريب. والآن هو موجود في منطقة الاندس ولم تعرف ذلك عندئذ. غير ان ارمان كان يعرف ولذا اطمأن على ان امره لن يكشف لفترة من الزمن. اما العمة اليز فقد نصبت له فخاً البارحة صباحاً. ارته قطعة أرسلها لمارغو رئيس مكتبها في لندن هدية عرس. وهذه ليست قطعة روسينيولية ولكنها قطعة ثمينة. قالت له اليز:

ـ انا متأكدة يا لويس من انك تتذكر هذه القطعة لأن والدك كان يملك قطعة توأماً لها قبل ان تحل به النكبة المالية التي ارغمته على بيعها. وتقاسم هاتين القطعتين فرعا عائلتنا فأخذ فرع عائلتكم قطعة وأخذ فرع عائلتنا قطعة ولما رأيت شغف فرنسواز بها وعدتها بان اتركها لها في وصيتي.

وقع ارمان في هذه المكيدة وقال انه يتذكر القطعة الاخرى تماماً كما يتذكر ان فرنسواز ذكرتها في رسالة لها الى اهلها. عند ذلك تأكدت اليز من هوية هذا الخائن. واتصل فرانك روسينيول بشرطة بابيتيه الليلة الماضية بغية الاستيضاح. وهذه المرة روج ارمان مخدرات تحت غطاء المتاجرة بالمنسوجات ولقي شاب حتفه من جراء المخدرات وكان ارمان في لوس

انجليس عندما علم بموت هذا الشاب فلم يجرؤ على العودة اذ توقف في اوكلاند وأخذ طائرة ثانية وأتى الى هنا عندما تذكر كلام قريبه لويس عن هذه البقعة حيث اراد ان يقبع فيها مدة من الزمن ليتوارى عن الانظار مطمئناً ان لويس لن يتصل بهذه المنطقة طالما هو في أميركا الجنوبية وآملا ان لويس لم يطلعهم على شيء من سيرته السيئة.

ولكنك اعتقدت انه فعلا لويس، ونحن حذونا حذوك. من يشك في هذا التنكر بعد مضي خمس عشرة سنة لوجوده آخر مرّة هنا؟ فاستغل هذه الفرصة، والمحتالون مثله يعيشون على دهائهم وفطنتهم السريعة، اتخذ حادث التسلق عذراً، مدعياً النسيان لتغطية ما كان يجهل من أمور. واذا كان قد ذكر بعض مغامراتك الصبيانية فربما بناها على معلومات استقاها من لويس فبدا كلامه موثوقاً فيه. قال لي فرانك ان شرطة كرايستشرش تريد مقابلتي هذا الصباح، وكان هو هناك أيضاً. وهكذا بدأت التحريات ولكنها تكون بطيئة عندما تتعلق بدولتين لأن المعلومات تأخذ وقتاً لاثبات صحتها بدقة. سأبقى في البيت وأعيش عيشتي العادية كانه لم يحدث شيء، وستتصل الشرطة بنا كلما طرأ شيء جديد. اخطأت كثيراً عندما لم اطلعك هذا الصباح عن ارمان ولم أوضح المسألة لبرينت ودان توضيحاً كاملاً. قلت لهما فقط ان يلهياه قليلا لأنه فضولي ولأنه يجهل كل شيء عن الحيوانات وقد يتسبب لها بأذى. هذا لم يكن كافياً ليقنعهما بابقائه كل الوقت. وعلى كل حال فانه كان سيفلت منهما لو اصرا على الاحتفاظ به لأنه ادهى منهما. ولم اعرف بخطورة المسألة الا عندما ذهبت الى كرايستشرش، وخشيت من انك لن تكوني طبيعية معه لو اطلعتك على حقيقته. عدت الى البيت عندما كان يدخل السيارة بحقائبه فتأكدت من انه عرف اننا اكتشفنا هويته ونواياه. كنتُ مطمئناً ان كلوتيلد ما زالت في بيت نسّي وان دان وبرينت وصلا لتوهما مع قطعان الخراف. ولما سألت ارمان عن وجهته اختلق حكاية تقول انهم طلبوه من اوكلاند وانك سمحت له بأخذ السيارة وانك وأغنيس ستأخذان سيارة الهنتر وستعودان بالسيارتين من هناك بعد ان تكونا قد تسوقتما. ولما تأكدت من مكان وجودك قال انك ذهبت لتسبحي بعد ان نظفت المستودع. صدقت كل ذلك، ولكن شيئاً واحداً أثار شكوكي وهو انه اراد الهرب خشية من ان تكون اليز

قد وشت به. وفجأة لاحظت الخدوش في يديه. كانت تلك اسوأ لحظة في حياتي... حتى هذه الساعة. داخلتني مخاوف قبيحة... تفهمين ما أعني. وشككت في رذائل أخرى بالاضافة الى أعماله السيئة وانك استعملت اظافرك دفاعاً عن نفسك. ظن برينت ودان انني جننت، ولكني عرفت الحقيقة منه. هجمت عليه صارخاً في وجهه بأنني اعرف انه ارمان وليس لويس. وأعرف لماذا تطارده العدالة. كدت اخنقه... لولا انني اردت منه ان يعترف بكل ما حدث.

قالت سوزانا وهي لا تصدق:

ـ هل قال لك بانه دفعني الى البركة ولم يدعني اتجه الى الضفة المقابلة؟

نظر مورغان اليها ملياً ثم قال:

ـ قال انكما ذهبتما لتسبحا سوياً الا انك اختفيت بين الاغصان والاعشاب المتشابكة وخاف من القاء المسؤولية عليه لأنه لم يحاول انقاذك فيكشف عن هويته الحقيقية، ولذا اراد الفرار. في تلك اللحظة فصلني برينت ودان عنه بالقوة، ولكنهما قيداه واتصل برينت بشرطة كرايستشرش بينما ركضنا انا ودان الى المسبح. ووجدنا منشفتك هناك.

توقف قليلا وقد شحب وجهه:

ـ خلعنا ثيابنا وغطسنا ولم نترك زاوية في البركة الا وفتشناها، ومن ثم نزلنا مع التيار حتى المجاري الكبرى راجين من الله ان تكوني برزت من الطرف الأخير وصعدت الى الضفة. وقد أرسلت شرطة كرايستشرش بعض أفراد اشبورتون لتنظيم فرق البحث والانقاذ ريثما يلحقوا بهم. آه يا حبيبتي، كيف وصلت الى هنا؟

سردت سوزانا كامل قصتها وبدا عليه تأثر كبير. قال:

ـ ان جدتك لمدهشة. تملكها حزن كبير ولكنها لم تيأس وكانت تكرر «يجب ان تجدوها، يجب ان تجدوها» وكانت تحضّر الشاي لفرق البحث بنفسها وتقوم على خدمتهم أيضاً بالمشاركة مع ايديث ونسيّ ووالدتي طبعاً. انت هنا، هذه هي المعجزة يا سوزانا تحصل لك بعد ان أمضينا تلك الفترة مع اليز في حديقتها قبل ان تطلعني على قصة لويس المزيف، وأرى الآن أننا لن ننتظر حتى ننتهي من اعمال الاحتفال. كنت أفكر وأنا أبحث عنك من وقت لآخر انك تعرفين انني احبك ولكن كيف وكم احبك، فهذا شيء لا

تستطيعين تقديره.

- بلى. اكثر من الحب الذي تمتعت به كليوباترا او جوليا في شعر هرّيك... قل لي يا مورغان. هل كانت عينا ماري ملكة الاسكوتلانديين زرقاوين؟ اعرف انه كان لها شعر احمر، هذا يعرفه الجميع. ولكن ماذا عن عينيها؟

نظر مورغان اليها كمن ينظر الى شخص فقد صوابه:

ماذا؟ ها... هل قرأت ثرثرتي؟ انت قرأتها؟ طبعاً لا اعرف لون عيني الملكة، لكنك تعرفين يا عزيزتي انه يحقّ للشاعر ما لا يحقّ لغيره. قصدت بذلك موازين الشعر وتناغم القوافي. أرجو ان لا تعرضيه على اي شخص ينظم الشعر.

- انك بمبالغتك جعلتني اتألق فوق كل النساء اللواتي ألهمن الشعراء على مر العصور، يا رجلي السخيف. ومقابل مبالغتك هذه أريد أقول أنا أيضاً أن شعرك يفوق ما كتبه اي شاعر آخر، يفوق قصائد شكسبير، ويفوق أية كلمة دخلت الشعر.

يرى الناظر الى ضحكتهما اشارة سعادة مقبلة في حياتهما في الوادي حيث تحيط بهما عائلتهما ويحيط بهما اولاد حفيدة كلوتيلد.

قال مورغان وهو يأخذها نحو النافذة:

- أرى من تجمع الانوار على تلك الضفة البعيدة انهم ينزلون الزورق الى الماء. أما اللايدي غراي فستخوض النهر وراءنا. وبما انه ليس لدينا الا القليل من الوقت نكون فيه معاً قبل ان يأتوا لنجدتنا اريد أن أوضح امراً يهم كلينا.

بدا شيء من التخوف على وجه سوزانا:

- لا يا مورغان. لم يبق شيء لم نوضحه. أرجوك. لا تقل...

- ليس هناك ما يثير الجدل. انه مجرد انذار نهائي. سئمت من الانتظار ولا أريد ان يكون التئام الشمل حائلا بيننا.

- طبعاً لا. سنخبرهم هذه الليلة بالذات، خاتم الزمرد الذي استعملته في خطوبتنا الأولى لا يزال عندي وما عليّ الا ان أضعه في إصبعي ونعلن عن خطوبتنا ثانية.

ضحك مورغان وعلق على قولها قائلا:

- انا لا أعني خطوبتنا. بقولي هذا اقصد زواجنا. بددنا الكثير من عمرنا. سيحل عيد الميلاد مباشرة بعد الاجتماع الكبير وتخطئين اذا اعتقدت بأنني سأنتظر حتى السنة الجديدة.

قالت مذهولة:

- ولكن الزفاف يتطلب عملا وتنظيماً يا مورغان. سأركض الآن رأساً الى بيت الكاهن ليعقد قراننا اذا كان هذا ممكناً. ولكنك لا تجهل ان جدتي ووالدي ووالدتي يريدون زفافاً حافلا، ووالدك واختك ستيفاني... وزفاف بلا ثوب عرس و...

- ثوب عروس؟ الم تقل العمة اليزان ثوب فكتورين في انتظارك، في الصندوق الزجاجي في متحف روسينيول؟ ثوب فكتورين روز في انتظار سوزانا روز.

- يا مغفل... انه ثوب من الأيام الغابرة، كله دعامات خلفية تُعقد وتُشدُّ حول الخصر حتى يصبح كخصر الزنبور. مستحيل ان ارتديه.

- يمكنك ارتداؤه. جدتك كلوتيلد لبسته عندما تزوجت جدك. ربما ازيلت الدعامات منه. لن ننتظر حتى خياطة ثوب جديد. ان والدك سيحضر الاحتفال بالتأكيد فهل ستتاح لنا فرصة أفضل من هذه؟... وتذكري انني انتهازي اصلي. فكري ملياً. كل شيء جاهز لزفاف... زميل البحار. انظري. لقد انزلوا الزورق. انظري كيف يديرونه في ضوء مصباح قوي جداً.

امسكت به وسألته:

- هل ارمان هناك يا مورغان؟

- كلا يا حبيبتي. نسيت ان اخبرك. لم يتهموه بالاشياء الاخرى بعد، ولكنهم اتهموه بالسرقة.

اطمأنت بالا. كان والد مورغان أول رجل وضع رجله على أرض الضفة واحتضنها والدموع تبلل وجنتيها. ثم قال مورغان:

- اريدك ان تعرف يا والدي انك تعصر، وتكاد تخنق، التي ستصبح كنتك في المستقبل القريب.

قال والده ستيفن:

- اني اشكر الله على هذا. ولكنك تمهلت كثيراً يا بني.

اقترب موعد التئام الشمل بكل هدوء. واخذ كل بيت تقريباً في ليندن بيكس حصته من الضيوف الذين احتلوا ايضاً امكنة جز الصوف في تلال بلير وكل الاسرة في وادي لارشوود.

وآخر سلالة فورمستير، جون، كان متغيباً في مهمة تجارية في اوستراليا، وقد عرض مزرعته للبيع التي قد يشتريها فرد من احدى السلالتين الآخريين. تلاشى آخر ظل لآل فورمستير احد المهاجرين الثلاثة.

انهمكت والدة سوزانا لتساعد كلوتيلد في تجهيز العروس وامتلأ المكان بمراسلي الصحف ومصوري التلفزيون. واخرجت عربة الفيتون ذات العجلات الأربع، التي كانت تُحفة معروضة للمشاهدين، ونظفت ولمعت وجهزت بطاقم خيل لتقل العروس الى الكنيسة التي بنيت في وسط الوادي منذ أوائل سنوات الهجرة. واتفق الجميع على ان تكون شارلوت وليوني روسينيول وصيفتي العروس وبرينت ودان شاهدي العريس.

لم تبك كلوتيلد لارشوود واليز روسينيول فرحاً لأن سعادتها قد اكتملت بالعروسين اللذين تحبانهما وتأملان ان يدخلا حياة جديدة وجيلاً جديداً الى وادي لارشوود.

كان مورغان واقفاً بين برينت ودان حين رأت راي سوزانا متأبطة ذراع والدها وتقف خلف الكاهن. كانت ترتدي فستاناً حريرياً بأكمام واسعة وطويلة. ومخرّمة وبياقة مطرزة. لم تكن محجبة بل اعتمرت قبعة من القش الايطالي تماماً كما فعلت الجدة فكتورين روز منذ اكثر من قرن. وزينت فستانها بقلادة من الزمرد توفق وألوان الرسوم المطرّزة فوق الياقة.

وكالجدة فكتورين، حملت سوزانا باقة من أزرار الورد «وزهرةمارتي» أو «لا تنسي» كما يسمونها في العالم الغربي. رفعت عينيها الى مورغان ووقفت بجانبه. ابتسم الواحد للآخر ولم يبد عليهما أي انفعال.

وفي الهدوء الكنسي الجليل سمعوا صوت اليز الصغيرة تقول:

- هل هذا هو الاحتفال الكبير يا عمتي؟

- نعم يا بنيتي. بل هو اكثر من احتفال كبير. انه اتحاد..

وبكلمات اليز روسينيول هذه اختتمت حفلة الزفاف.